

الربيع والخريف



رواية

حنان مينة



دار الآداب

•
ويا وطناً بالحبّ نكسو أديمه
فيحرمننا من رضاه ويمنعُ

الحقوق محفوظة

•
إلياس أبو شبكة

الطبعة الأولى

حزيران (يونيه) ١٩٨٤

جُلس في مقهى «ام كي» «M. K» في شارع ليتين ببودابست، كان وحيداً، غريباً، يراقب الناس والأشياء من حوله مراقبة فيها فضول، يمازجه عدم اكتراث، كأنما قرر أن يكون لا مبالياً، ما دام يجهل البيئة واللغة وطرائق التصرف، في بلد ورث عن امبراطورية قديمة، كل نزعة الشعور المفرط بالذات، بالانتماء القومي، بالمهارة فيما يباشر من عمل، وفيما يصنع من مواد، أغذية، خمر، وبني من جسور ذات مواصفات عالية، حتى أطلق المهربون على أنفسهم، أو أطلق الآخرون عليهم، هذا اللقب الذي يجنون ترداده وسامعه: «بناء الجسور».

وقد جاء جسرهم المعلق، على الدانوب الأزرق، تحفة فنية معمارية، وإن كان في بدايته، من طرف «بست»، قد انحرفت استقامته قليلاً، لأن ثمة كنيسة أثرية قديمة، أثر المصممون، والبناء، وهيئة التخطيط كلها، ألا تُمسّ أبداً، باعتبارها من مفاخر المدينة، وأطلقوا على الجسر اسم اليزابيت.

هذه المعلومات الأولية، التي عرفها عن الجسر، وبخاصة عن بودابست، ثم عاين بعضها منذ وصوله، كان قد حدثه عنها صديق مجري يدعى «هيدجي»، يعمل أستاذاً في جامعة بكن، وقد ذهب

التشيل يرتفع عنده الى مرتبة الواجب القومي الذي لا تساهل فيه ، مها كانت الظروف .

وكانت له زوجة تدعى « انيكو » ، وابنة تدعى بمثل اسمها ايضاً ، بحسب التقليد المجري ، ومن أجل التمييز يدعونها « أنا الصغيرة » ، وصي يافع اسمه غابور ، وقد جاءت هذه العائلة الصغيرة الى الصين ، وفي خيالها تهاويل عن بلد العجائب ، في الشرق الأقصى البعيد ، بلد آلهة بوذا ، والصور العظيم ، والمسيرة الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ ، والمعابد والصوامع والقبور الأثرية لأسرة مينغ .

لكن هيدجي ، مع اهتمامه الشديد برؤية الصين كلها ، والتعرف الى حضارتها الباذخة ، والوقوف على أساليبها في البناء الجديد ، كانت له هواية ، سبغها ما قرأه في المجلات المتخصصة بالآثار والعادات ، قبل أن يأتي الى بكين . وكان مصمماً ، على نحو عنيد ، أن يكتشف ، ويمتلك في الصين ، أجل وأقدم ما يقع عليه من تحف ، رغم أن ماله لا تساعده في ذلك ، فمرتبته محدودة ، ولا يمكن أن يقوم تلاؤم بين « مرضه التحفي » ودخله المتواضع ، بأي شكل . لذلك كان يحسب الاقتصاد ، الى درجة تتجاوز المعقول ، وإذا اعترضت زوجته السيدة « انيكو » على مسلكه هذا ، كان يقول لها بمجدية بالغة :

- تذكرني ، يا عزيزتي ، أنني أنا الخبير هنا ، وأنا الذي أعمل ، وأنتك تعيشين من دخلي ، وكل هذا فعلته لإطلاعك على هذه البلاد العجيبة ، البعيدة ، التي ما كنت تحلمين في الوصول اليها يوماً .
وتحبيه السيدة انيكو :

- أفهم هذا .. أفهم جيداً .. لقد قلته مئات المرات ، حتى

إعارة إلى الصين ، لتعليم اللغة المجرية ، وهناك التقى « كرم المجاهدي » الذي كان يعلم اللغة العربية ايضاً ، فأحبب أحدهما الآخر ، إذ كانا جارين ، تجمعهما بناية واحدة ، في مجمع سكني يبعد نصف ساعة عن المدينة ، خصص لإقامة « الخبراء الأجانب » الذين جاءوا يساعدون الصين ، في أوائل الستينات ، وبعد التحرير مباشرة ، في بنائها الاشتراكي ، وإعداد الكوادر اللازمة لها في كل المجالات .

كانت هذه المدينة الصينية الصغيرة ، التي اطلقوا عليها اسم « دروجيا » (الصداقة) أشبه ببرج بابل القديم ، لا من حيث تعدد اللغات التي يتكلمها سكانها فقط ، بل من حيث اختلاف جنسياتهم ايضاً ، حتى لم يكن لأحدهم أن يتعرف الى أخلاق وأمزجة وآراء بلدان كثيرة في العالم ، من خلال معايشة السكان الوافدين منها ، مادام الجميع يلتقي في المطاعم والحدايق ، والملاعب الرياضية ، وحفلات المنوعات الفنية ، وتخصيصاً في « اوبرا بكين » الشهيرة ، إضافة الى الحفلات الخاصة التي كانت تقام في هذه البناية او تلك ، كتشمة لحفلة السبت الراقصة في النادي الواسع .

كان هيدجي طويلاً ، رمادي الشعر ، أزرق العينين ، مورّد الوجه ، له احناء خفيفة في كتفيه ، ونظرات تحسبها تصدر عن زجاج لآع ، ويدان لا تكفان عن التحرك وهو يتكلم الفرنسية ببساطة : كأنه يستعين بالإشارات ، على ثقل ما في رأسه من افكار ، بحيث تتكامل مع نظرات عيبيه الزجاجية ، الزرقاء ، وتضفي لوناً من فرح طفولي على مظهره كله ، مخففة الى حد بعيد ، من مفاخره القومية المجرية التي تبدأ ولا تنتهي ، كأنها يريد أن يفتح الدنيا بأن المجر هي جنة الله على الأرض ، وأنه يمثلها في الصين ، وأن هذا

المرجعة للشهر كله ، لذلك يصيح :

- الى الشيطان بكل ما تقولين .. إنني جنتليان بما بكفي ، وهذا ما لا أحتاج إلى تذكيرك به .. الحضارة ، يا عزيزتي ، تاريخ طويل ، وبالنسبة للمجر تاريخ طويل وعريق ، وبصفتي عبرياً أصيلاً ، فأنا نتاج هذه الحضارة .. لكن هذا موضوع آخر ، ما يهمني ، الآن ، هو جانبها الاقتصادي ، فالحضارة ، وإن شئت السياسة كلها ، لا تفهم دون أساس اقتصادي .. عقوياً .. لا تقاطيعني .. أعرف كل اعتراضاتك .. سمعتها ، حفظتها .. لكن هذا لا يمنع ، ولا يلغي الحقيقة الموضوعية ، التي لا دخل للمواقف فيها ، وهي أنني أنا الخبير هنا ، وأنا الذي أنفق عليك وعلى الأسرة .. وأنت تعرفين ، وتؤمنين أيضاً ، أن القصة ، بعد كل شيء ، هي للعمل .. هذا هو المعيار .

- إذا كان هذا هو المعيار ، يا عزيزتي ، فيعني أنني ، الآن ، لا شيء .. وإذا أخذنا بقاعدة من لا يعمل لا يأكل ، فمعنى هذا أنك تصدق علي حتى بوجبات الطعام .. ألا ترى هذا شيئاً عجلاً حقاً .. ؟

- لا خجل في العلم يا انيكو .. أنا أبسط حقائق علمية ..
- والعواطف الإنسانية ؟ عواطف الزوج تجاه الزوجة ؟ ..
- آه فهمت .. هذا بيت الفصيد .. إنك تتطلبين عواطف زوجية ..

- علاقة زوجية قائمة على المحبة ..

- بتعبير آخر ، قائمة على الحب ..

- هذا هو .. الحب .. مواقف الرجل تصرفاته ، شهادته ، كياسته في كل الظروف ..

ملكته ، لكن ذلك كله لا يمنع أن تخفف من غلوائك التحفية اللعينة هذه ، وتيسر لنا أن نعيش كالأحرار ، ما دامت هذه فرصتنا ، كما قلت قبل سفرنا ، للتمتع بعامين من « شهر العمل » حسب تعبيرك .

- أولاً لنناق ما هو شهر العمل هذا ؟ ما هي مقوماته ، ونتائجه السعيدة ، ومصادرها ودوافعها ؟

- دعني من كلمة « أولاً » هذه التي تبدأ بها كل حديث .. في العلاقات الزوجية ، لا يتكلمون كما في المحاكم .. أو في المفاوضات السياسية .. لا يقولون أولاً وثانياً في كل لحظة ..

- وما يقولون إذن ؟

- ما أظنك تجهل .. تنفسي ، كل لحظة ، بالحضارة المجرية ، بالثقافة الأوروبية ، ولا تعرف كيف تدبر حديثاً طيباً مع زوجتك .. قل كلمات لائقة ، حتى بالنسبة اليك كأستاذ جامعي ..

- أولاً .. آسف .. لنندع أولاً هذه التي لا تحببها ..

- لا أطبقها أيضاً ..

- ولا تطبقها أيضاً ..

- وتسبب لي توتراً نفسياً ..

- وتسبب لك توتراً نفسياً ..

- قل ما تريد الآن .. قل به شكل تنسى معه أنك أنت الخبير هنا ، وأنت أنت الذي تشتغل ، وصاحب الدخل الوحيد في الأسرة ، وكل هذه المقدمات التي تبعث على الغشيان ..

هنا يجتد السيد هيدجي . احتداده نابع من أنه لم يشرب بعد ، فتمن زجاجة من البيرة ، أو إذا أسرف ، زجاجة من النبيذ ، يحدث اختلالاً ، مهما يكن بسيطاً ، فهو اختلال في موازنته المحسوبة بدقة ،

- أنا، إسحى لي أن أقول هذا، كَيْس في كل الظروف..
لكنك تريدن ما هو أكثر.. تريدن ما تريده كل امرأة، بعد
الزواج..

- وما هو هذا الشيء الذي تريده المرأة بعد الزواج؟
- العشق! أن يبقى الزوج عشيقاً الى آخر العمر.. المرأة تريد
زوجها عشيقاً، فإذا ما انصرف عنها قليلاً، افتقدت عشقه لها،
ورمته بافتراءات كاذبة..

- أرفض العبارة الأخيرة.. لاحظ أنها لا تتناسب مع حديث
يدور بين زوجين لا خصمين...

- أصرُّ على ما قلته.. المرأة تريد زوجها عشيقاً.. المرأة تتطلب
في الرجل عشيقاً أبدياً..

- وما الضرر في ذلك؟ اليس هذا صحيحاً، وضرورياً.. ويصدر
عن محبة، واحترام للذات؟

- ارجوك.. اسحى لي.. السائلة، هنا، لا تتعلق باحترام
الذات بل بالأنانية..

- وماذا في ذلك.. الحب، إذا لم يكن أنانياً.. والحب، إذا لم
يكن غيوراً.. ماذا يبقى؟

كان كرم، الذي تدور هذه المحاورات بين السيدين هيدجي
أمامه باللغة الفرنسية، وأحياناً، عند الشتم أو الإقذاع، بعبارة
عجربة، يستشعر غربة كاملة عن نط التفكير هذا.. في الشرق لا
تقوم معادلة اقتصادية صارمة فيما يتعلق بعمل الزوجين. طبعاً
الظروف في الغرب تختلف، والمرأة، منذ تعلّمت وعملت، لم تبقى
عالة على الزوج في أوروبا، لكن الحب، بين الزوجين، يظل أسمى

من تحديد من يُقدّم وجبة الطعام.. مع ذلك فإن كلام السيد هيدجي
على رغبة المرأة في أن يظلّ زوجها عشيقها لا يجانب الحقيقة...
المرأة، هذا الكائن الرائع، رقيق الشعور، بالغ الحساسية، تريد من
الزوج أكثر مما هو بيت ولباس وطعام.. تنشأ الحب، العشق، حياة
ما قبل الزواج، يوم كانت كلمات الغزل، تشكل قاموس الكلام، في
أي لقاء بين مخلوقين مقدمين على بناء حياة مشتركة.. لكن هيدجي،
بسبب مرضه للتخفي بسدّ أذنيه عن مسلمات كهذه، ويرفض
الاعتراف حتى بحق انيكو في أن تذكرها له، أن تطالب بها.. فإذا
ما حاصرت، وأحدثت المناقشة، راح يصرخ:

- الى الشيطان، عودي الى بودابست.. دعيني وحدي، إنني،
بعد كل شيء، أقوم بواجب تربوي، ولي مهمة ثقافية هي الاطلاع
على حضارة الشرق الأقصى، على أسرار الدهانات، على حكمة
الحكماء، وكل ألوان الثقافات القديمة والجديدة. ذلك أنني أضع
كتاباً هو أمل حياتي..

تقول السيدة هيدجي، عندئذ، وهي تحافظ على رباطة جأش
بالغة:

- أفهم طموحك الثقافي هذا يا عزيزي.. لكن ما يعكّر صفوك
ليس أنني أطلب أن تظلّ عشيقتي، حسب تعبيرك، بل إنني أطلب
أن نتناول وجبتنا كاملة.. إنني، بعد كل شيء، أذوق الطعام
الصيني.. قل أنتلّذ به..

- ذلك أنك أدمنت..

- وكيف ذلك..؟

- الطعام الصيني، مثله مثل الخدر، يجعل من يتناوله على

الإدمان.. وضد هذه الآفة ينبغي أن نكافح.. لا إدمان؟ هذا هو شعاري.. نحن لا نستطيع، في بودايست، أن نأرسل هواية الطعام الصيني، هذا الترف الزائد.. إلى الشيطان بكل المطاعم الصينية.. إنها منتشرة في أوروبا كلها.. وماذا تقدم، مقابل أسعارها الخيالية؟ أصنافاً من طعام برع الصينيون في إعدادها.. إنها، باختصار، تحذر الزبائن وتبتزهم.. ولن أخضع، أنا، لهذا الابتزاز.. لن أطلب، في أيها وجبة سوى نصف طبق..

- وبينم النصف الآخر، تبتاع تحفة.. إنه حساب جميل.
- جميل أو قبيح، لا فرق.. المهم أن نضعي في حسابك أنني هنا في مهمة ثقافية..

ولأجل هذه المهمة الثقافية، فرض السيد هيدجي على عائلته أن تقتصد.. ربما كانت حكاية نصف الطبق هذه مثلاً على منجاة في الاقتصاد، ولم تطبق في أي يوم، لكنه كان يذكرها، كدعوة لكبت الشهوات. وقد اضطرت العائلة، أمام عناده، أن تخضع خضوعاً لا مناص منه، وأن تجاري حساباته الدقيقة، بحيث لا نتم موازنة التحف، ولو بقي، هو بالذات، محروماً من كأس النبيذ الذي يشتهي.

وكان كرم، الذي جاء يكن قبل السيد هيدجي، ومكث خمس سنوات متواصلة فيها، يستشير شهية الزوجين، في اتجاهين متضادين: يسرف في الكلام على الطعام الصيني، على مهارة الطباخين الصينيين، الذين بلغ من أمر العائلات الاقطاعية، في صين ما قبل التحرير، أنها كانت تصطنعهم وتورثهم أياً عن جد.. فقد كان للعائلة طبّاخها الخاص، أطباخها الخاصة، وكانت كل عائلة تحافظ على أسرار مطبخها، وتقاخر، في الولائم، بما تقدم من

أصناف، تختص بها وحدها.. كذلك يسرف في الكلام على التحف الصينية، هذه التي يأتي خبراء ونجار العاديات لثرائها، باعتبارها ثروة قسمة، لا توجد إلا في الشرق الأقصى، والأصلي منها، بالغ الندرة، وبشكل تراثاً حضارياً لا يقدر بشئ..

وأمام هذا الإغراء المزدوج، للطعام والتحف، كان يضعف الزوجان الصديقان أكثر فأكثر. يصيبها ولع جنوني، يصطدم أبدأ بتقديري الأمكنية، فيحل الإحباط، ويصبح الحب، والجنس، وكل روابط الروح، في خلفية الأشياء تماماً، وعندئذ، في ممارسة شرقية لهواية السخاء، يتقدم كرم باقتراح بسيط:

- ماذا، يا صديقي، لو قبلنا دعوتي؟

تتطر، السيدة هيدجي، من مجلسها بوقار. هي لا تتحدث عن العرافة المجرية بل تعيشها، تفضل، تمسكاً بالتأني الذاتي، الذي لا تسخلى عنه حتى في أخذ مقعدها، أو عند تقبل كأس أو سبكارة، أن تهر كنفها.. إنها قادرة، حيال تصرفات زوجها، أن تخرجه من عواطفها، لكنها ليست على استعداد، مقابل أية دعوة، أن تدخل أيها شخص إلى هذه العواطف أيضاً. وقد فهم كرم هذا المنحى الخلفي فيها، وأثبت لها، من خلال تصرفه، أنه لا يرغب في شيء، وأن دعوته منزهة عن شوائب كهذه.... وهذا ما جعلها تميل إليه، تودّه، تصادقه، ترغبه أيضاً، لكن دون أن يتطور ذلك إلى علاقة.... وربما، في الاستشارة، عندما تشفى الأنثى، كانت تريده، لكنه، هو، كان لا يريد.. إنه مريض على طريقته، مريض بعينه إلى الوطن، وحبته إلى المجهول، إلى نداء بعيد غامض، منهم، يأتيه في نهاراته، ولياليه، وأحلامه، ويفظته، ويدعوه إلى الرجوع، إلى معانقة الشوق في ذات هي شطر من ذاته فقدّها يوماً لا يدري

أين، في أي زمن أو أي تاريخ. وكان يعلم، بدافع من يقين لا يقل غموضاً وإيهاماً، أنه سيلتقي هذه الذات، هذا الشطر الضائع، وأن القدر يعدّه لمفاجأة كبيرة، وأن الرياح التي حملته باتجاه أقصى الشرق، ستحمّله، يوماً، باتجاه أدناه، وهناك، في مدينة في بلدة، في قرية، في خرائب معبد، في قاع واد، في غابة، سهل، ضفة نهر، شاطئ بحر، سيلقى شطره الضائع.

من أجل ذلك كانت دعوته تحمل حجمها فقط، هدفها المباشر فقط، دون غرض، ودون مقابل، سوى أن ينعم بصحبة هذين الصديقين، وأن يشهد نقاشاتها، ثم يشهد، في ممارسة تعهيد نفسه للآخرين، كيف يتصرفان به، وماذا يقولان له، وأية انعطافات فكرية، خيالية، تجريدية، عند زوج يرفض أن يكون عشيقاً، أن يبنى عشيقاً، وأن يارس هذا الواجب الذي خلا من أي اندفاع ذاتي، ما دامت الاندفاعات الذاتية في العشق تتناقض، وتتآكل، تدريجياً، بعد الزواج.

ومقابل تحفظ الزوجة، ترفّعها، تردّد لها، يبدو الزوج، هيدجي، طفلاً طيباً، يريد أن يلبي الدعوة، وهو لا يداور، ولا يتردد، في قبولها رأساً، وبكلمة شكر قلبية، بيتاً عيشاء الزجاجيتان، الزرقاوان، تلتصعان بحيث بريء، حيث من يعرف ما يريد، ويندفع للحصول عليه اندفاعاً طفلاً إلى دمية، لذلك كان يجب صراحة:

- بالنسبة لي، يا عزيزي كرم، لا مانع لديّ من قبول الدعوة.. وأحسب أن أنيكو لا ترفض أن تصنع لها بهجة صغيرة.. برغم أنني، في تقرير أمر خاص كهذا، أترك لها حرية التصرف... إنها، بعد كل شيء، تستمتع بالحديث عن أعاجيب هذه البلاد.. ويسعدّها أن

تكون معنا.. وأن تتناول قدحاً صغيراً. من هذا الشراب الذي يسمونه «ماوتاي»..

- لكن السيد كرم، تقول أنيكو، يكلف نفسه، حيالنا، أكثر مما ينبغي.. (وتنظر إليه نظرة خاصة ثم تضيف): وفي المقابل، كيف أقول؟

- يا عزيزي، أرجوك.. لا تقولي شيئاً.. إنني أكون سعيداً مع كرم، وهذه هي المسألة.. أنا لا تعني كثيراً، الجوانب المادية من الدعوة.. هناك ما هو أهم.. هناك..

وتضحك أنيكو:

- الجانب الثقافي.. أليس كذلك؟..

- ليس تماماً.. خبرة كرم عن الحياة في الصين.. كلامه على الآثار، على الأساطير..

وتضحك أنيكو ثانية:

- وعلى التحف.. قلها يا عزيزي.. كن صريحاً..

ويقول كرم:

- أنا نفسي بطيب لي الكلام عليها.. إذا كان هذا لا

يضايقك.. لن نذهب إلى المطعم.. أم إلى البار؟

ويجد هيدجي فرصته:

- إلى البار أولاً.. ولكن، يا صديقي، هذا ما يسمونه باراً

«هنا»...؟ عندنا مثلاً..

يقولها بالفرنسية chez nous par exemple ويظل، طوال الجلسة،

يردد عبارته: «عندنا مثلاً» لا يقول عندنا في المجر.. يدع لجليسه

أن يفهم ما يعني.. ففي الدنيا مكان واحد، هو المجر، وهذا المكان،

بالنسبة لهيدجي، هو «عندنا» وبعد ذلك نقطة النهاية.

وها هو كرم أخيراً، في المجر..

إنه سعيد في مجلسه بمقهى «ام كي» في الشارع الرئيسي من بودابست.. وقد قال في نفسه «أستطيع بعد اليوم أن أكتشف، وأثبت، من عبارة «عندنا مثلاً»، هذه التي عنت لي، قبل الهجاء، أشياء كثيرة، من قطعة البيفتيك الى زجاجة النبيذ، الى المرأة، مروراً بكل ما خلق الله من أشياء، كان هيدجي يضي عليها طابعاً آسراً من الرؤية الخاصة، مجرد أن تكون مجربة..»

ولقد اعترف، وهو يتذوق قهوة الاكسبرسو، أنها لذيدة تماماً، وأنها تنطبق على «عندنا مثلاً» بشكل كامل. وحين أشعل سيكارة جديدة، من علبة «الكنت» الموضوعة على المائدة أمامه، رغب بفنجان ثانٍ، على خلاف الزبائن، الذين يكتفون بطلب واحد، هو المقرر من المقهى مقابل الجلوس فيه. ذلك أن كرم يتجاوز المؤلف دائماً.. يتجاوزه دون تعمد. يفعل ذلك عفوياً، دون ميل إلى التشوف، أو نزعة إلى الإدهاش، أو حتى ممارسة أي نوع من التميز، أو التظاهر بذلك، بفعله لأنه ما يروق له، وما يحب أن يكون، أو ما يلتقي اطمئناناً في أحاسيسه الغلفة، الساعية، الباحثة ابداً عن ظل يرف عليها، أو لفحة ترناح لها، أو تصرف، فيه قدر من المنعة، حتى في الحفاقة التي يتبدى فيها.

كان ذلك بعد ظهر الأحد. في الساعة الخامسة تماماً، الساعة الأحدى من مساءات الصيف، وكان المقهى مزدحماً، وجلّ الزبائن من الشباب، وشيء ما حلوا، متسقين، مضاء بفرحة لقاء جديد، بعد سهرة مائعة، يلوح على الوجوه، والجالسون الى موائد ملونة، رشيقة، مستديرة، يشكلون مثلثات وزوايا، وهم يتحدثون بغير

انقطاع، وبغير تحفظ، بأصوات رخيمة، مزقزقة، تعطي لنتهم الغريبة، المترقة عن لغات الشرق والغرب، نكهة خاصة، هي تماماً نكهة «عندنا مثلاً» التي تحسها «هيدجي» تلخيصاً رائعاً.

وكانت الشمس، في شارع لينين الذي يمتد نحو الغرب، تتسحب ببطء، كلفافة حريرية ضخمة. شقافة، ذهبية، فُرشت كلها، ثم جرى سحبها على مهل، فهي تتفلس وتنفلس، تغادر، بمحذوبة بقرص من المغناطيس ينحدر وبسحبها وراءه، كما عروس سائرة وثوبها وراءها في بلاطات القصور الأوروبية، وليس ثمة فارق سوى اللون الذهبي الذي تتساقط بقاياها، بقعة، على الموائد، المقاعد، الواجهة الخارجية، وتزهو قليلاً، ثم تنطفئ، مخلفة الفراغ للأضواء الكهربائية، التي تشتعل، بدورها، تدريجياً.

كان هذا المقهى سخناً في الليلة الفائتة. ففي طابقه العلوي، الواسع، وعلى أنغام موسيقية هاددة، وفي جو من الازدحام الشديد، تقام، كل ليلة سبت، حفلة راقصة. ولأن بودابست، في ليالي السبت هذه، تتحول الى قاعات رقص لا عدد لها، فإن المحرّ، أو حضور الحفلات، يجري باكراً، ضامناً للأماكن. وكان كرم يعرف هذا من صديقه هيدجي. فقد حدثه، في مقارنة نُت عن احتقار شديد، بين ما يقام في «مدينة الصداقة» في بكين من حفلات سبت، وما يقام في بودابست من حفلات حقيقية، غلبة، زاهية في مثل هذه الليلة. قد قال له بإشارة ازدراء من يده:

- إلى الجحيم، يا صديقي، بحفلة كهذه.. عندنا مثلاً..

أضاف:

- انتبه! ينبغي لك أن تكون قد تواعدت مع صديقة على السهر منذ أيام على الأقل.. الفتاة، منذ يوم الاثنين، تنتظر موعداً مع

صديق لليلة السبت . تعلق على ذلك أهمية خاصة . تفهم مقدار حب الآخر ، الآخرين ، لها ، من يوم الموعد ، فإذا جاء السبت ولم تكن قد ارتبطت بموعد ، تعتبر نفسها خائبة ، وقد ترفض الموعد ، إذا جاء في يوم السبت ذاته ، لانه يعني ان الصديق الذي يواعدها لم يجد سواها ، او كان فاشلاً مثلها ، وان عليها ، في قبول دعوة كهذه ، ان تلتحق مثله بالعربة الأخيرة في القطار ، وهذا مايسوؤها جداً .

ولقد جاء كرم ، ليلة أسس ، في نحو العاشرة ، الى المرقص ... كان وحيداً ، ولم يكن راغباً في السهر . وليس من صديقة ترافقه . حتى عربة القطار الأخيرة قاتته .. وبطبيعة مزاجه المتقلب ، وعدم قدرته على المكوث طويلاً في مكان واحد ، خرج من البيت دوناً وجهة معينة . كان الليل جميلاً . كانت ليلة صيف من ليالي بودابست ، ومن بيته ، في شارع « بنزور اوتسا » القريب من ساحة الأبطال ، سار متمهلاً ، تحت الأشجار الوارفة ، بنعم ببرودة الليل ، وأضواء المدينة ، ومتابعة المنزهين ، وهو يفضّل الطرف عن العشاق ، في الزوايا ، عند جذوع الاشجار ، على مفارق الطرق ، او فوق المقاعد التي تتوسط شارع الجمهورية ، وأمام الأبطال التاريخيين للمجر ، حيث يتعانق ازواج من القتيان ، ويقبل حبيب حبيبته ، او يريح رأسها على صدره وأنامله تداعب وتتخلل ، الشعر .

وقال في نفسه : « هنيئاً » وقال في نفسه : « حقاً إنها « باريس الصغيرة » ..

ولم يستشر ايما حرقة او حسرة ، او حرمان . إنه ، بعد كل شيء ، في رحلة لما تنته .. رحلة بدأها من بلده البعيد ، شرقي المتوسط ، حين خرج ، كما آدم من الجنة ، مطروداً بغير ذنب . وطوال هذه الرحلة ، كان يرد ، بغير شعور ، على كل احساس

بالتألف ، بإحساس مضاد ، نابع من النور أن يستكين أو يألف ، او يرضى بفكرة العيش طويلاً خارج وطنه . كان الانتفاء إلى الوطن دماً في دمه ، وكان هذا الانتفاء حيناً الى البيت ، والحي ، والبحر ، والشاطئ ، ووجه الأم .. وكان ، فوق ذلك ، حيناً الى مجهول ، الى صدر ، الى هالة بدرية ، الى اشماسة ماسبة ، الى مخلوق غير محدد ، غير محدد ، لكنه موجود ، ونادر ، وسبي وماجد .

لذلك مرّ بالفهم في طريقه ليس إلا . وكان أمام باب المرقص صفّ من الشباب والشابات ، في ثياب السهرة ، وكان ينتظر دوره في الدخول . فجأة نبق سؤال في ذاته : « لماذا لا أدخل أنا أيضاً ؟ » وكعادته في الإقدام ، مضى الى تنفيذ فكرته رأساً ، أخرج نقوداً ، وحاول ابتلاع بطاقة ، لكن قاطع التذاكر لم يكن يعرف الفرنسية ، وعيناً حاول شرح غرضه بالإشارة ، لكن حارس الباب الهجري ، وهو رجل ثخين ببرزة رسمية ، تدخّل وقام بالترجمة ، ولأنه أجنبي ، وسائح ، فقد سمح له بأن يتخطى الصفّ ، وهكذا وجد نفسه يصعد الدرجات الأولى الى المرقص ، ووجد ، لا بدري كيف ، فتاة تتأبط ذراعه .. زاعمة أنها صديقه .. لكنها ، ما ان صارت داخل القاعة ، حتى لوحت له بيدها مودعة وهي تضحك بصوت عال ، فيه شفاوة ، وعندئذ أدرك أن دوره انتهى ، وأنه لم يكن إلا وسيلة اصطفتها الفتاة للدخول الى فتاهها الذي ينتظرها على طاولة حجرها مكرراً في المرقص ..

لم يستشر كرم أيما انزعاج من لعبة الفناء معه. كاد، أمام ضحكاتها المعبشة، أن يطلق ضحكة عالية هو الآخر، لقد خدع.. وماذا في ذلك؟ المرء، أحياناً، يحب أن يُخدع، أن يكون ضحية لمقلب صغير يريء كهذا، ما دام بعيداً عن الضرر، عن الأذى، وفيه طموح مشروع إلى الحياة، وإلى التمتع بالرفق والنعاء في ليلة آخر الأسبوع، حيث الجميع، يدعون همومهم، متاعبهم، جانباً، وينشدون المسرة والترويح عن النفس.

إحساس خفيف، خفيف جداً، بالأسى انتابه، لأن لعبة الفناء التي لم تدم إلا دقائق، ولم تستغرق إلا مسافة صعود الدرج، قد بعث فيه أملاً بأنه ما يزال في العمر الذي يتناسب مع المفاجآت السعيدة. لقد دهش، وهو يقطع بطاقة الدخول، أن ذراعاً تشبك بذراعه. وحين التفت ووجد فتاة صبية، ضاحكة العينين، تتعلّق به، اتسعت دهشته، وعامت على بحر من السرور الداخلي، فعرض أن يتناح لها تذكراً، لكن الفناء أرته تذكّرتها المقطوعة سلفاً، وشدت به بأجواء الدرج، فافرة قفراً، قبل أن ينتبه الحارس، ويحتجّ الذين قطعوا تذاكر مثلها، ووقفوا في صفّ طويل ينتظرون دورهم في الصعود إلى قاعة الرقص.

قال في نفسه: «حسناً! هذه علامة جيّدة في دفترك يا صديقي هيدجي.. «عندنا مثلاً» لم تأت على واقعة كهذه.. انت في سنك، ومكائنك الجامعية، لم تعد من رواد المراقص أو الملاهي الليلية، وربما لم تقف، منذ زمن بعيد، منذ أيام الشباب، في صفّ على باب مرقص. السيدة انيكو حدثني عنك طويلاً. روت قصصاً كثيرة عنك، روتها وهي تضحك، قالت إنك تتصرف بشيء من انعدام المسؤولية، أحياناً، لكن تصرفك يتخذ طابع الطرافة، وقد ألفتك، منذ السنة الأولى للزواج، لذلك لم تعد تستاء منه، وإذا كان حبك للنبيذ في بودابستك الجميلة هذه، قد تحوّل إلى حب مجنون للتحف في بكين، حتى أنسك الهوى الأول، فإنها عانت من نوباتك النبذية غير قليل من المتاعب والهموم. قالت إنك كنت، في بعض الليالي، وخاصة ليلة السبت، تخرج في طلب أي شيء، ولو كان كيلو غراماً من البطاطا، لوجبة الأحد، فتوصيك ألا تتأخر، ولا تتعيب، وأنها بانتظارك، لإعداد الوجبة منذ المساء، وتؤكد أنت أنك عائد لنوك، وأن شيئاً لن يفريك أو يلهيك عن هذا الواجب البيتي، وأنتك ستعود سريعاً، لتتناول كأساً من النبيذ معها، هي زوجتك الصغيرة، اللطيفة، التي أحبتها وانما في الجامعة. وتصدق هي أنك عائد وتؤمن أن أيما أمر لن يجعلك تهملها، أو ينسيك أنك خرجت في طلب حاجة من حاجات البيت، لكنك، منذ أن تصيح في السوق، وترى إلى حانة النبيذ، أو يناديك أحد أصدقائك من داخلها، حتى تدخل، وفي بيتك، كما تؤكد لها، أن تأخذ كأساً.. كوباً فخارياً كما أكواب البيرة، وهذا لا شيء، في حساب قدرتك على الشرب، ولن يؤثر فيك أيما تأثير.. غير أنك بعد الكوب الأول، تجد نفسك منسجماً في الحديث مع الشاربين، أو مع الأصدقاء،

وتنظر في ساعتك، قائلاً لمن معك: «على أن أذهب... إتي، بعد كل شيء، رجل متزوج، وأنيكو تنتظري» ولكن مقاومتك تضعف أمام إغراء التبيذ، وطلاوة الحديث، فتجد نفسك مدفوعاً إلى طلب كوب آخر، وهكذا، يمضي الوقت، تزداد مقاومتك ضعفاً، ويزداد طلبك للتبيذ، وتعود في اليوم التالي، دون بطاطا ودون فلوس... وتشعر، كمادتك في مثل هذه الأحوال، بإرسال الحانة والتبيذ والشاربين إلى الشيطان، مفسماً أنك لن تفعلها مرة أخرى، مها كانت الأسباب... لكنك، يا صديقي هيدجي، كنت تفعلها، وتقف ساعات على رجلتك في حانات التبيذ، هذه التي حدثتني عنها طويلاً، قائلاً: وأنت تخلص شفتيك، «عندنا مثلاً» آه! اللعنة لو ذقت التبيذ الهجري يا كرم، لو ذقت تبيذ «توكاي» الفاخر... لا يد أن تأتي إلى البحر، وأن أصبحك إلى حانة نبيذ، وأن أدعك تتذوق هذا «الإكسبر الإلهي»... لكنك لم تذكر المراقص إلا قليلاً، ولم تقل إن الناس، عندكم في بودابست، يقفون في صف طویل، بانتظار الدور للدخول... لقد رأيت أنا، في بكين، وموسكو، وفيينا، وجنيف، وعواصم أخرى، الناس يقفون في صفوف لأجل الخبز، لأجل اللحم، السمك، المخبزات، وأشياء أخرى، أما ان يقفوا، في صف، لدخول المراقص، فهذا ما لم أراه سوى في بودابست... بودابستك الدانوبية الفاتنة يا صديقي.

كان، كرم، يجلس إلى «البار»...

اعتزم أن يتناول كأساً من الكونياك ويخرج... وكان البارمان يتكلم الفرنسية، وقد نصحه أن يجرب الكونياك الهجري. قال له: «الآخرون، السباح، الزوار، وحتى الهجريون أنفسهم، في بعض الحالات، يتذوقون الكونياك الفرنسي... بونايرت، أو مارتيل، أو

غاموس... لكنني، أنا، أنصحك أن تجرب الكونياك الهجري... اليك قدحاً، ما دمت تطلب نصيحتي».

وافق كرم بغير تردد. لم يكن ثمة ما يدعو إلى التفاخر بطلب الكونياك الأجنبي، فرنسياً كان أو غيره... هذا يفعله بعضهم تكريماً لمن معهم. الصديق، إذا كانت معه صديقة عزيزة، يقدم لها مشروباً أجنبياً... شامانيا أو كونياك أو ويسكي. وقد يفعل الهجري ذلك، لجرد حب الأشياء الأجنبية المستوردة... الخبراء الأجانب، في بكين، ومن جميع البلدان، كانوا يتباهون ما أن تكون لديهم سلعة غير صينية. كانوا، برغم الصعوبة والتعقيد، يستوردون بعض الحاجات من هونغ كونغ... خاصة السكاثر... أما هو فقد أحب السكاثر الصينية، والطعام الصيني، والألبسة الصينية، ولم يجد ميلاً إلى محاراة الآخرين في الولع بما هو مستورد، من فرنسا أو أميركا... وقد سافر مرة إلى شانغهاي، واشترى هناك حذاءً جيلاً، من صنع الصين نفسها، لكنه، حين عاد إلى بكين، ورأت الحذاء سيدة كندية، حكمت فوراً أنه من «هونغ كونغ» فأحب أن يمتحنها، مؤكداً أنه من هناك، ومن صنع انكليزي، وعندئذ شهقت السيدة الكندية قائلة: «يا لروعه!» وحتى عندما وصل إلى البحر، وليس حذاءً بحرياً، رفض جاره أن يصدق إلا أنه حذاء إيطالي... وهكذا تذكر مثلاً قديماً في بلدة سورية، مفاده «كل ما هو فرنجي برنجي».

لم يغادر المرقص بعد القدح الأول، كان صديقاً دائماً للبارمانات... وقبل ذلك، في وطنه، كان صديقاً للخمّارين، كان يطلق عليهم لقباً جيلاً: «صانعو السرّات». وأعظم صانع سرّة بالنسبة إليه، هو الخمّار الذي يفهمه من الإشارة. يتمتعده كما يحب

ان يقول. إذا جاء وحده، وإذا جاء مع آخرين، فليس له ان يطلب.. الحمار الذكي، الرائع، ابن المهنة، هو الذي، من نظرة، يفهم كل شيء، ويستجيب، تلقائياً، لما يرغبه، وما يناسب المقام. وعلى هذا السلوك واطب في إقامته الاضطرارية في أوروبا والصين. كان يصادق البارمان، في أي بار او فندق. برغبة حقيقية. يستشير، يطلب رأيه، بمحادثته، بنادمه إذا كان لديه وقت لذلك.. وكذلك كان يفعل مع «المبتر» في أي مطعم او فندق، ويعتبر هؤلاء أصدقاءه، وأدلاءه، لما فيه نفعه، ومتعته، في الشراب والطعام. ولكم أحب همنغواي، بعد ذلك، لأنه كان يحب البارمانات أيضاً، ويطلق على أحدهم اسماً فخماً جليلاً: «المايسترو الأعظم»، ولعله، في تدوِّقه لأصناف الشراب، ومزجاته المتعددة، وألوان الطعام، والتوابل، كان مديناً لهمنغواي، وسائراً على خطاه، إلا فيما يتعلق بالاستدانة، من أيها بارمان، أو تأجيل الدفع، أو التهاون في الإكرامية. فقد كان حريصاً على الملاءمة بين ما يجعل من مال، وما يتناول من شراب أو طعام.

ولقد أثنى، منذ الفدح الأول، على الكونتياك المجري، وقال للبارمان فيرانتس:

- نصيحتك، يا صديقي، في مكانها.. زدني من هذا الشراب..
قال فيرانتس:

- يسرني أن أسمع ذلك.. نادراً ما يقع لي أن أنصح بشروب مجري.. إدارة المحل تفضل أن تقدم المشروبات الاجنبية للسياح.. هذا يرضيهم أكثر.. وثمة أغلى، بما لا يقاس..
قال كرم:

- على كل، أنا لست سائحاً اجنبياً.. ثم لست طاووساً بديل عريض ملون كما ترى..
قال فيرانتس:

- الى المحجم بكل الطواويس.. هؤلاء الرقماء يجلسون هناك، في الصالة، ويرقصون حتى الصباح، على زجاجة نبيذ واحدة..
- هؤلاء شباب.. وقد جاءوا للرقص لا للشرب.. إنني أفهمهم..

- وأنت..؟ هل ستفنعني بأنك لن ترقص..؟
- أنا سأشرب فقط.. ألا تراهي وحيداً.. وبالمناسبة.. ماذا افعل ببطاقة الدخول هذه، التي دفعت ثمنها مئة قورنت..؟
- تشرب بنسبتها حين تجلس الى مائدة في الصالة.. هذه ليست رسم دخول الى المرقص.. إنها فن شراب، حتى لا يسهو الناس على زجاجة بيرة.. إنها الحد الأدنى..
- والحد الأقصى؟

- أن تشرب، أنت وأية فتاة، حتى السكر ثم تذهب الى الفراش..

أضاف فيرانتس ضاحكاً:
- وما أحبك ستألني ماذا تفعلان في الفراش، أليس كذلك يا صديقي؟

- أنا لن أسألك سؤالاً لئياً كهذا.. وإن كنت أجهل، حتى الآن، كيف أتعامل مع فتاة مجرية في الفراش.

- المرأة المجرية كغيرها.. فقط احذر أن تكون غجرباً معها..
- وماذا يفعل العجرب يا فيرانتس؟
- يرفعون ساقي المرأة بأكثر مما يجب..

- أنا سأرفعها بأقل مما يجب ..

- انت يا سيد كرم، ستصرف مع المرأة المجرية كما تنصرف،
الآن، مع الكونياك المجري .. تذوقها على مهل .. ويكثر من
اللفظ .. ولن تقتني بعبائك .. قل لي، لماذا جئت وحدك الى
المرقص ..؟

- لان أحداً لم يأت معي .. ما زلت غريباً عن الجو .. انا هنا
منذ اسبوع فقط ..

- ألم تتعرف الى آتيا فتاة ..؟

- بلى ! تعرفت الى فتاة، وأنا أدخل المرقص ..
وروي له الحكاية .. فضحك فيرانس في غير تحفظ، وانصرف
الى تلبية طلبات الزبائن، حتى إذا فرغ وعاد إليه، قال له مازحاً :
- أنا لست شرطياً على كل حال .. ولو كنت كذلك لما استطعت
إرغام تلك العاهرة الصغيرة على الاعتذار إليك ..

- أنا الذي سأعتذر إليها .. لقد راقبتها .. إنها تجلس هناك ..
سأرسل الى طاولتها زجاجة من النبيذ .. تعبيراً عن اعجابي
بذكائها .. ساعدني يا صديقي .. من أطلب ذلك ؟

- من الكرسون .. ولكن انتظر .. افعل ذلك بعد انتهاء فترة
الرقص ..

- خلال ذلك، لشرب معاً كأسين من الكونياك يا فيرانس، ما
رأيك ؟

- فكرة طيبة ..

- وإليك تذكرة الدخول هذه .. تصرف بها ..

- اسمح لي أن أشكرك إذن، على الكونياك، وقيمة تذكرة
الدخول هذه ..

- لا تشكركي .. يكفي أن تكون صديقي ..

- يبرني أن أراك هنا دائماً .. ولكن ليس وحيداً .. ولا مع فتاة
ترافقك في صعود الدرج فقط .. مع صديقة .. صديقة حقيقية ..
ترقص معها إلى الصباح ..

- أرجو ذلك .. وإن كنت، أحياناً، أحب أن أكون وحيداً ..
أن أراقب لعبة الآخرين دون أن أشترك فيها ..

- في هذه الحال لن تتعرف على المهر بشكل جيد .. هل ستطول
إقامتك ؟

- ولكنني مقيم هنا .. أنا أعمل في بودابست ..

- وماذا تعمل ؟

- أستاذ في الجامعة، قسم اللغة العربية ..

- هذا جيد .. جيد جداً يا سيد كرم ..

- قل يا صديقي ..

- يا صديقي ..

- والآن نحب صحتك .. كيف يقولون ذلك بالمجرية ؟

- أكش اكدري ..

- أكش اكدري يا فيرانس !

- شن شن .. يا صديقي كرم .. والآن، أي نوع من النبيذ،

تريد ..؟ .. هباً .. لقد توقف الرقص، سأذهب بنفسي وأشرح

الموقف .. وسأرى تلك الصغيرة .. وأعطيك رأيي ..

انتقى كرم، بناء على نصيحة فيرانس، أفخر نوع من النبيذ،
وذهب البارمان بالزجاجة الى الطاولة التي حددها كرم .. ورجع
وهو يضحك قائلاً :

- إنهم يشكرونك.. لقد حدثت الفتاة أصدقاءها بما وقع لها..
وكانت القصة طريفة ضحكوا لها.. لكنهم أسفون لعدم دعوتك الى
مائدتهم.. ظنوك مرتبطاً بموعد ما..

- لو دعوني لأعتذرت.. أنا لن أستغل مصادفة كهذه..
- وما هو وجه الاستغلال في الجلوس إليهم؟ هيا.. أنت لا
تعرف الجريين بعد.. إنهم عشراء وطيبون جداً..

بعد قليل جاءت الفتاة وصديقتها الى البار.. كانت تبسم وقد
احترت وجنتاها من السبذ والرقص.. قام فيرانس بمهمة التعريف.
أصر كرم على دعوة الشابين الى كأسين من الويسكي، لاحظ أن
الفتاة تتجنب النظر إليه مباشرة، لعلها تخشى أن ينفجر ضحك
تكنمه، تجسها هو أيضاً، خشة أن يجارها في الضحك. كان مرهراً
الآن يفرح مفاجيء.. لم يكن لديه ما يقوله.. فوق أنه لا
يستطيع ان يقوله بالهجرية والفتاة لا تتكلم سواها. اما الفتى فيشكل
الانكليزية التي يجعلها كرم إضافة الى ان البارمان فيرانس استأثر
بالحديث، وراح الشابين يصغيان اليه، وكانا يتسبان، ثم ضحك
الثلاثة معاً، وقال فيرانس:

- أخبرتها أي عجري أنت!

- أرجو ألا تكون قد أتيت على ذكر الفراش..

- اكتفيت، هذه المرة، بالكلام على عجريتك في الشراب..
- كيف؟

- قلت إنك خفت من الكونياك الهجري.

- وماذا أيضاً؟

- وأنتك تخاف المرأة الهجرية.. لذلك انت وحيد هنا..

- في هذه أنت على حق..

- لذلك اقترحت على الفتاة أن تشجعك قليلاً..

- أمل ألا تكون قد فهمت الموقف خطأ..

- الى الشيطان بالفهم الخطأ يا صديقي.. أنت في بار أم

معيد..؟

- أنا في مرقص..

- أفضل شيء إذن أن ترقص، هيا، الفتاة تدعوك..

قالها وتكلم مع الفتاة بالهجرية.. ابتسمت.. قالت:

- أرتحب..؟

ونزلت عن كرسي البار. كانت هذه الحركة منها بمثابة دعوة،
وكان صديقها لاسلو، الذي هو خطيبها أيضاً، يبتسم بطيبة، مشجعاً
خطيبته على أن تجعل كرم سعيداً، فيما كان هذا يتقدم الفتاة، ثم
تأخر مرتبكاً، وجعلها تسير أمامه كما ينبغي، واضطر، في حلبة
الرقص، أن يجارها في حركاتها الخفيفة على ألحان موسيقى صاخبة،
لم يألها في الصين، استشر معها حرجاً غير قليل، لأنه هو، ابن
الأربعين، كان يرقص منفلاً، ويدفع يديه إلى أمام ووراء، ويحرك
ركبته، ويهز كتفيه، محاولاً أصطناع المرح، البهجة، الاندغام
بالجو، راضياً في كل لحظة، أن ينتهي هذه الجنون الموسيقي، وأن
تعرف الجوفة مقطوعة هادئة، تريجه من هذا الانخفاق الجسدي،
وتتيح له أن يجتوي جسد الفتاة بهدوء ونعومة، وأنساب كما ألف..
لكن الموسيقى ظلت سريعة، عسيفة، وظل كرم يتطوَّح كأنه في حلقة
ذكر، والفتاة ترى اليه وتبتسم، مدركة انه ما زال غريباً على الجو،
والموسيقى، وانه يلقي عنثاً في مجاراتها..

- انتهت الجولة، عادا الى البار، كان فيرانس والفتى يتحدثان

ويتضحكان، وقالوا له:

- أحسنت .. كانت رقصة ممتعة، أليس كذلك؟

- أرجو أن تكون قدما روزيكا سليمتين ..

وقالت الفتاة مازحة:

- ليس تماماً ..

وقال فيرانتس:

- دبكيت جيداً يا صديقي ..

أضاف:

- لا بأس بما فعلت، كبدابة .. ظني أنك لم ترقص سوى

التانغو ..؟

- وحتى هذه، كانت تانغو لعينة على الطريقة الصينية .. لكنها

كانت تناسبني أكثر، أنا المعجوز كما ترى.

قال فيرانتس:

- أنت عجوز عاهر على كل حال .. اسمح لي أن أقول هذا يا

صديقي ..

- لا انزعج من هذا الوصف .. إنه أفضل لدي، فيها لو كنت

صالحاً لذلك ..

- سنسأل صديقك في المستقبل .. السيدة هي التي تعطني علامة

الرجل ..

- ستكون علامتي صفراً اذن ..

قال فيرانتس ضاحكاً:

- ومع الرحمة أيضاً.

قال كرم:

- لا تكن غجرياً سفيهاً يا فيرانتس .. أنا لا أريد الرحمة ..

قال لاسلو:

- ما رأي السيد كرم أن يأتي ويجلس معنا بقية السهرة؟

وقالت روزيكا:

- أصدقائنا طيبون، وسيكون مسروراً بيننا ...

ترجم فيرانتس، وقال:

- أنا أقبل الدعوة نيابة عنه .. أريده أن يدخل الحياة المجرية

بسرعة .. (وقال بالفرنسية) هيا يا صديقي .. لن احتجزك على

«باري» هذا أكثر مما فعلت .. اذهب وكن مرحاً .. لا تخش على

قدمي التي تراقصك كثيراً .. أنت لا تقدم امتحاناً في الرقص على

كل حال ..

- شكراً على لطفك يا فيرانتس .. سألقى بها بعد قليل ..

انصرف الشابان. دفع كرم حسابه .. دفع أيضاً ثمن زجاجة

أخرى من النبيذ، حملها الكرسيون إلى المائدة، وجاء هو بعده،

مرتبكاً قليلاً، متسائلاً عن الطريقة التي سيتفاهم بها مع أصحابه،

لكن شأناً يسهم كان يتكلم الفرنسية بركاكة، استطاع أن ينقل

كلماته، ويكون واسطة تفاهم في حديث عادي، يدور حول أصله،

وعمله، ورأيه المبدئي بالمجر ..

قال كرم بنبرة صدق:

- بودابست رائعة .. حدثني عنها صديق مجري الثقيل في

الصين ..

سألت عدة اصوات دفعة واحدة:

- في الصين؟

- نعم .. ولماذا الاستغراب .. قضيت في بكين خمس سنوات ..

- وماذا كنت تعمل؟

- مدرساً للغة العربية ..

سألت فتاة:

- هل صحيح أن المرأة الصينية تضع قدميها في الحديد منذ الصغر؟

- كان هذا في الماضي.. الآن، بعد التحرير، انتهت هذه العادة.. تحررت الصين، وتحررت أقدام الصينيات أصبحت كبيرة، مثل أقدام النساء في كل مكان..

- ونهت النساء الصينيات.. هل صحيح أن الفتاة تضع عصاة على تديها كي لا ينموا؟
- هذا صحيح أيضاً.. لكن ليس الآن.. كان ذلك في الماضي.. وعلى كل هذا ذوق جمالي خاص..

- كيف؟

سألت الفتاة:

- التذوق الجمالي يختلف من بلد لآخر، أو من منطقة الى أخرى في هذا العالم..

صاح لاسلو خطيب الفتاة:

- ولكن هذا عجيب.. امرأة ودون صدر؟

قال كرم:

- أنا أيضاً أقول إنه عجيب.. إنني لا افهم كيف يتذوقون الأشياء.. ولكنهم يتذوقونها.. في الدنيا أكثر من حسن جمالي..

وطفت الموسيقى الصاخبة، كرة أخرى، على الحديث، ومن جديد ألقى كرم نفسه امام حرج مراقبة إحدى الفتيات، قنص الى الحلية، وتطلع الى فرانتس فرآه يشتم، ويشجعه بحركة ودية من يده، وهكذا بدأ جولة من «الروك أند رول» وغاب في زحام الأجساد محاولاً نسيان وقاره الأربعيني متذكراً قولة البارمان «كن

مرحاً وطيباً» وعبارة هيدجي «عندنا مثلاً» وقال في نفسه: «كل شيء في المجر يبدو مغايراً لما عرفته في بكين.. هنا المجتمع مفتوح، والتعصب المذهبي لا أثر له، وتستطيع منذ أسبوعك الأول، أن تتخذ أصدقاء من المجرين، وأن تدخل بيوتهم، أنت الذي عشت خمس سنوات في الصين فلم يكن لك، خارج علاقات الدراسة، أي صديق صيني، ولم تدخل بيتاً صينياً قط.. أرقص يا كرم، ادبك كما قال لك فيرانتس، ولكن لا تكن غريباً.. ابن الماهرة كشفك من اللقاء الأول، قال عنك انك عجوز داعر.. ربما كان يمزح، ولكنه لم يستعد عن الحقيقة.. أنا داعر يا بكفي، أحب المرأة والشراب، والرقص.. لكنني لا أستطيع أن أكون خارج جلدي.. لا أقوى على احتال هذه الغربة التي طالت، ومهما عرفت من نساء، يبقى هناك، في داخلي فراغ.. يبقى حنين أو هذا ما كابدته في الصين، وما أدري إذا كانت المجر ستخطفني من نفسي، شئتني انني غريب، وأني في منفي ألماتي اليه الظروف، وأن الوطن يناديني، وربما كان حنيني اليه يتجاوز الأرض والبحر والغابة، يتجاوز البيت والحي والمدينة، ويتصل بالإنسان.. الأهل، والأصدقاء والرفاق، وشيء ما مبهم، أحبه ولا أكتشفه، لا أحزره، ولا أعرف التعبير عنه.

في نحو الواحدة بعد منتصف الليل انتهت سهرته، رقص بما فيه الكفاية. شرب أكثر مما اعتاد لكنه ظل محتفظاً بوعيه وعند وداع الفتاة وخطيبها أعطاهما عنوانه، وشكرهما على الدعوة، والسهرة، والمصادقة الغريبة، وقالت الفتاة:

- ستزورك وستحدثنا عن الصين.. لا شك أن لديك قصصاً كثيرة عن تلك البلاد..

- ولديّ تحف صينية أيضاً، وموسيقى شرقية، ومجموعة كبيرة من اللوحات..

فقلت الفتاة بدهشة وبراعة:

- ما امنع كل هذا.. سنزورك في اقرب فرصة، الى اللقاء!

عاد الى بيته القريب ماشياً، كان الجو لطيفاً جداً، وكان الهواء منعشاً، وقد طاب له، بعد وصوله، أن يكتب فصلاً جديداً في روايته، فظل ساهراً الى الفجر.. وعندئذ استلقى على فراشه ونام الى عصر اليوم التالي.. ثم نهض فتناول طعام الغداء وقصد مقهى «ام كي» مستمتعاً الراحة والصحو بعد تعب الرقص، وإجهاد الكتابة، والنوم العميق العميق الدافئ..

وها هو يستعيد وقائع ليلة أمس، وقبلها وقائع حياته في الصين وأحاديث هيدجي، وحواره مع البارمان فيرانس، منصرفاً عن كل ما حوله، راغباً في التعرف بأحد، حتى بعض العرب الذين يترددون على المقهى ويتعاطى بعضهم التهريب، وتبديل العملة في السوق السوداء مكتسباً بمنعة مراقبة الأشياء في ذاته، ومن حوله، في نوع من الاسرخاء والكسل الملوكي.

كانت تجلس إلى مائدة مجاورة فنانان، كانتا تنتظران أحداً ما. ولم تطلق إحداهما البقاء فقامت وخرجت، بقيت الأخرى، إما بانتظار عودة صديقتها، أو بانتظار صديق ما، وقد بدا عليها القلق، فهي تكثر من النظر في ساعتها، وتكثر من التدخين.. راح يراقبها بفضول. كانت جميلة قارحة القامة. ذات شعر خرنوبي، وعينين عسلتين، مستديرة الوجه، غيداء وفي وجنتيها غمازتان تكسيانها طابعاً متميزاً، خاصة عندما تبسم.. لم يول الأمر، في

البدء، أي اهتمام، بحالة النظر الى وجهها وطاقتها كانت تتخذ صفة الاهتمام من انسان غريب. بحالة غريبة من القلق تنبدي على فتاة الى حوارها، كأنها هو رسام وقع على نموذج لوجه فريد.. لكن الفتاة، تناولت علبة تبغها بعصبية، ومدّت إصبعها داخلها كأنها على يقين ان ثمة، في قاع العلبة، سكاكة وحيدة باقية.. لكنها، مع الأسف وجدتْها فارغة، وعندئذ قبضت على العلبة في كفها ودعكتها، وفي اللحظة نفسها، مدّت اليها كرم علبة «الكنت» فائلاً بالفرنسية:

- تقبلي.. ارجوك!

فيها ، وقد رفضت ، كما خيل اليه ، عرض شاب اراد الجلوس الى طاولتها ، وفتحت كتابها مشيعة بوجهها عنه .

القناة أيضاً ، التي أخذت بحركة كرم وتقبلتها ، لم تكن على استعداد ، مقابل بادرة فيها كياسة ، أن تسمح لصاحبها أن يستغل بادرته على نحو سوفي ، لو أتبع حركته بأي عرض لرفضت فوراً ، ولو قدم لها سيكارة اخرى لامتنعت ، ولو اصطلح أي وضع فيه تظهر لازرقته . أما ان ينصرف الى تدخين سيكارتة ، دون ان يشعل اللتفات اليها ، ودون ان يستغل مناسبة السيكارة لمباشرة حديث معها ، فهذا يعني أنه يحترم فعلته وينصرف بحجتها . قالت في نفسها « هل هو فرنسي ؟ ليس بالضرورة أن يكون فرنسياً إذا تكلم اللغة الفرنسية ، وحتى لو كان فرنسياً فلي لي معه شأن » . إنه سائح كغيره . وهو وحيد ويرغب في أن تكون له صديقة . يرغب اكثر أن تكون صديقته على إلمام بالفرنسية . ثم هو يكبرها بشكل واضح . حطبي اللون ، في شعره بعض البياض ، في نظراته شرود ، معتدل القامة مثلها ، على تحول بالنسبة لعمره ، لا ينتظر أحداً ، ولا يتلهف الى اكتشاف الأشياء بسرعة ، شأن السائح الذي يريد أن يعرف اكثر ما يمكن في أقل وقت ممكن .

مرة اخرى باغتها . ضطها تحتلس النظر إليه . ابتم . ارتبكت . ابتمت ، اطرقت ، جاءها صوته :

- هل لدى أنثي مانع لو جلست الى طاولتها ؟
أجابت بمرود :

- تستطيع ذلك لو اردت ..

بعض واقترت منها ، انحنى وعرف بنفسه :

- ٣ -

بوغت القناة بحركة كرم وبلغته الفرنسية ، وبعد تردد لم يدم ثواني ، مدت يدها وتناولت سيكارة ، شاكرة بالفرنسية بدورها . أشعل كرم السيكارة ، وأشعل لنفسه واحدة ، ونظر اليها مباشرة : غصت طرفها تحت وقع نظراته . كان مزيج من شعور خاص بتملكها ، فهي تعرف الآن ان هذا الرجل الأجنبي كان يراقبها ، وهي مسرورة لأنه فعل ذلك ، وكارحة لأنه ضطها في اللحظة المناسبة ، لحظة بحثها عن السيكارة الأخيرة في علبتها .

تركها كرم تداري مشاعرها المستجدة . لم يكن متعجلاً ، او متلهفاً ، ولم تبدر عنه تلك الحركة عن تعمد كامل ، وليس هدفه منها اقتناص امرأة ، مها تكن رائعة الجمال ، على نحو يستدل فيه نفسه ، فهو كثير الاعتداد من هذه الناحية ، ويعتبر طرح النفس على الآخر ، مجرد تعارف او تحية ، نوعاً من الرخص في السلوك ، ينأى عنه ، ولا يرتاح اليه حين يتبدى في أنها إنسان أيضاً . لقد فعل ما فعل ، لانه وجده مناسباً . ولان القناة لفتته بقوة ، فهي صغيرة ، وغريبة عن جو المقهى والفتيات المترددات عليه ، وهي متففة او طالبة ، بدليل ما تحمل من كتب ، ورغم الفلق الذي يمزج عن تغاد صبر ، فإن فيها لاسبالاة واضحة بالذين حولها ، او الذين مروا بها ، وحدقوا

- كرم المهادي..

- بيروشكا..

جلس قبالتها، وقدم لها سيكارة تناولتها وقالت:

- آسفة.. نفذت سكاثري، ولم استطع الخروج لابتياح علبة منها..

- هذا بصادف.. نحن المدخنين نفهم هذه المصادقات، ولا تعلق أهمية عليها.

أضاف:

- تسمح أنسي ان اطلب لها علبة من الكرسون.. ما نوع سكاثرك؟

- لا يسمعون سكاثر في المقهى...

- اذن نقتسم ما عندي، حتى نفلس من السكاثر معاً..

- لكنني لن أجعلك تفلس لأجلي..

- هذا أفضل أنواع الإفلاس.. نرتاح قليلاً..

- في هذه أنت مصيب.. تأمل! طالبة جامعية ومدمنة على التدخين!

- كنت في سنك أنا أيضاً حين أدمنت.. برغم أنني لم أكن طالباً جامعياً أبداً.

تأملته ملياً، فكرت: «ماذا يكون اذن؟ مظهره لا يدل على شيء معين اجتماعياً. لا هو يعامل ولا فلاح. مثقف.. حديثه يدل على أنه مثقف.. لكن أي نوع من الثقافة؟ إنه لم يكن جامعياً قط.. ماذا يعمل إذن؟ ما هي مهنته؟ ما هو الوسط الذي ينتمي إليه؟ أياكون تاجراً؟ رجلاً ثرياً؟ وماذا يعمل في البحر؟ سائح؟

زائر؟ له مهمة؟» وقالت في نفسها: «مهما يكن.. فأنا بعد كل شيء،

لن ألتقي به ثانية.. مصادفة.. مجرد مصادفة.. ربما كانت معرفتي

بالفرنسية هي التي رَغَبَتْه في.. يستطيع أن يقيم حواراً معي.. يعرف أشياء عن البحر مني.. او ربما.. لكنه ليس من أولئك.. ام إنه يتظاهر بالبراعة؟ من يدري.. سأكون معه كما أنا.. الأمر لديّ سيان.. حين تعود صديقتي تفترق.. وبانتظارها اثرثر معه قليلاً.. أدعه يأخذ فكرة جيدة عن البحر..»

سألتها:

- يا رأي لِنَسِي أن نشرب شيئاً؟

- شربت قهوة..

- وأنا شربت عصيراً.. كنت ظهّان.. اما الآن فيمكن أن تتناول شيئاً آخر.. قدحاً من الويسكي مثلاً.

- هذا لطفاً منك.. ولكنني أفضل النبيذ..

- ما نوع النبيذ الذي تفضله؟ إنني أجهل أنواع الأنبيذة عندكم.. لذلك أترك لك حرية الاختيار.. دعيني أتعرف الى ذوقك في هذا المجال..

ابتسمت بيروشكا.. قالت في نفسها: «ألطيف هو ام يتلاطف معي؟ هذه الطريقة في المعاملة تنطوي على قدر كبير من التهذيب..

هل هذا بسبب أنه فرنسي..؟ ينشر شياكه ليصطادني.. أبظنني سهلة الى هذا الحد؟ لا يبدو من لهجته أنه فرنسي.. أعرف اللهجة الفرنسية تماماً.. مع ذلك لا بأس، سأسأل الكرسون عن أجود ما عنده من النبيذ.. لكنني سأقول له إن هذا ذوق الكرسون وليس ذوقي.. انا لست خيرة على أية حال.. الأفضل أن أكون صريحة معه..»

قالت:

- في البحر أنواع كثيرة من النبيذ.. لنسأل الكرسون عن أفضل ما عنده..

- كما تشائين.. ما دمتا لا تريد ان تختار، فلتترك الأمر
للكرسون..

أوما الى المضيفة. كانت فتاة هي التي تقوم بالخدمة في القسم
الذي يجلسان فيه، وقد تولت بيروشكا الكلام معها بالحرية.
تضاحكت المضيفة البدينة قليلاً. وراحت تعد أصناف النبيذ بالقلم
على أصابعها وبيروشكا تتابعها مختارة، ثم قالت حاسمة الموضوع:

- ريزلنغ..

وسألت كرم:

- ما رأيك بالريزلنغ...؟

- موافق.. على أن يكون مبرداً جيداً..

قالت المضيفة:

- إنه مبرد.. وأستطيع أن آتيكما بسطل من الثلج..

سألت بيروشكا:

- هل تحبون النبيذ عندكم؟

- نحبه.. لكننا نفضل العرق عليه.. هل لديكم عرق في المجر؟

- لا.. هل هذا مشروبكم الوطني؟

- نعم.. نمزجه بالماء فيصبح أبيض كالجليب..

- كيف..؟ تشربونه حليماً؟

- كما يفعل الأطفال!

- عفواً.. أردت هل له مذاق الجليب؟

- وفائدته أيضاً.. إنما للرأس وليس للعمدة..

ابتسمت بيروشكا. قالت:

- لم أقصد شيئاً سيئاً..

- ولا أنا.. إنما اعجبتني فكرة الجليب هذه.. عندنا بسمه

بعضهم «جليب السباع».

- بوذي أن أراك تشربه..

- وأن تريني أنقلب سبياً.. لكن أحذري.. قد أكلك عندئذ..

(قالها وفتح فمه على مداه ضاحكاً)

- أنت جنتلمان ولا تفعلها..

- من يدري.. أما سمعت بأكله لحوم البشر؟

- ولكن هؤلاء في افريقيا..

- ونحن في آسيا.. جيران!

- عفواً.. لا أريد أن أكون قليلة تهذيب.. إنه فضول لا أكثر..

عادت المضيفة بزجاجة «الريزلنغ» كانت باردة، وداخل سطل

من الثلج. تذوّقها كرم وأبدى إعجابه، وعندما صوّتت المضيفة من

السائل الماسي في الكأسين، قال:

- بصحتك يا آنسي..

- بصحتك يا سيد..

شربا. أشعلا سيكارتين. كانت بيروشكا تنظر إليه الآن

مباشرة، نظرتها تطوي على تساؤل. تريد ان تكتشف من هو؟

ماذا يريد؟ ما وراء هذه الدعوة؟ وكان كرم يحس ذلك، يقدر

رغبتها في اكتشاف غايته. غير أنه كان واثقاً انها لن تكتشف

شيئاً. لسبب بسيط، هو أنه لا يريد شيئاً، تكفيه مشعة الجلوس

معها. لو رآه البارمان فيرانس مع امرأة بهذه السرعة لقال له:

«حسناً فعلت يا صديقي.. كنت أعرف أنك داعر من النظرة

الأولى» ولقدّم له، بعد ذلك، كأساً، على شرف هذا الانتصار

السريع.. ولكن فيرانس واهم.. ليست المسألة على هذا النحو.. إنه

لا يبحث عن انتصار بالعلاقة مع الآخر.. لو أراد ذلك لفاز به منذ

زمن بعيد.. لكن الانتصار لمن، بعد كل شيء؟ ولماذا بعد الرجل

نفسه، في علاقة كهذه منتصراً، ولا تعد المرأة نفسها كذلك؟ هل ثمة

ذكورية في الجبر أيضاً؟ تظل الذكورية حالة اجتماعية قائمة؟
والتقدم؟ والحضارة؟ واستقلالية المرأة؟ سيادتها؟ وكل ما أعطتها
الثورة الصناعية الأوروبية؟

رجع من شروده فألقى بيروشكا مطرقة. كانت تفكر هي
الأخرى، لكنها لم تكن مستهجة. طلال من وجوم ترسم عند
ملففيها. كانا معاً في المكان ولم يكونا معاً في الزمان، كل منهما
ذهب في ناحية، تساءل: «من أين جاءت؟» وتساءلت: «من أين
جاء؟» وقال في نفسه: «ما أظنها تحسني من أكلة النساء» وقالت
في نفسها: «ما أظنه يحسني من النساء اللواتي يؤكلن».. انتبه إلى
أنه تصرف بغير لياقة. تذكر نصيحة فيرانتس: «لا تتصرف كعجري
في الفراش» قال في نفسه: «التصرف كعجري يمكن أن يكون
خارج الفراش أيضاً».. قال معتدراً:

- لا تؤاخذيني.. شردت قليلاً..

- وأنا أيضاً..

- كان علي ألا أفعل.. هذا ليس من اللياقة..

- لا أحرص على التصرف الدقيق.. إنه مضجر.. أليس

كذلك؟

- هذا رأي الشباب..

- ورأبك؟..

- لشرب أولاً.. انظري.. كأسانا بنشاء بان..

- لنحذر إذن.. قد تتأهب نحن أيضاً..

- هذا تعبير شاعر عرلني من عندنا..

- حدثني عنك أولاً.. تملك بقواعد اللياقة في التصرف

دائماً؟

- أبدأ.. إنما أنا غريب.. وأحب مراعاة قواعد السلوك
عندكم..

- نحن لسنا تقليديين إلى هذه الدرجة.. أقول هذا عن نفسي
على الأقل.. تصرف براحة.. كن أنت.

- شكراً على هذا الساح.. سأكون أنا بقدر ما تكونين أنت..
أعني لن أصطنع الأشياء.. لنشرب أيضاً..

شرباً جرعة كبيرة.. ابتسما دون كلام. صار أكثر انسجاماً.
تحرراً نوعاً ما. توقعت أن يتكلم أكثر.. أن يقول أشياء عن نفسه..
لم يفعل.. ما كان يعتمد. لم يفعل لأنه لم يجد ضرورياً أن يقدم نفسه
أكثر مما فعل.. ولا هو سألها أن تقول أشياء إضافية عن نفسها..
استرخى.. رغب في أن يسرعاً في الشرب.. كان هو الذي يقترح
ذلك.. ما كانت متحفظة، غير أنها لاذت بالصمت.. تركضه يفود
الحديث.. لم يكن هذا ملائماً له.. أسس، مع البارمان فيرانتس، مع
تلك الفتاة التي تعلقت بذراعه، مع خطيبها، مع المجموعة. كان أكثر
قدرة على الكلام.. كان قد شرب جيداً، هم أيضاً كانوا قد شربوا
حتى انتشوا.. سيشرّب حين يريد.. يدعها، هي أيضاً تشرب حين
تريد.. لا يحب كثرة الأخطاب.. لماذا لا تتكلم؟.. تنظر إليه ولا
تتكلم.. تبسم حين يضبطها تنفحسه.. هل هي حذرة إلى هذا
الحد؟ تنتظر أحداً؟ تدعه إذا جاء.. هذا الأحد؟.. ألا تكمل
الزجاجة معه؟ يفيل الآخر، لو جاء أن يقاسمها الشراب؟

سألها:

- ماذا تقرئين؟

- هذه كتب جامعية..

- في أية كلية أنت؟

- كلية الآداب..

ارتاح .. بينها شيء مشترك ، جميل أن يكون الأدب هو هذا الشيء ، ولكن الدراسة في كلية الآداب لا تعني أكثر من أنها دراسة ، يعمل المخرج بعدها في التعليم أو غيره . لو كانت كليات الآداب تخرج أدباء وأدبيات لامتلأت الدنيا بهم ، كما يمتلئ البحر بالسمك .. في هذه الحال يظل البحر أقل امتلاءً ، فالسمك يأكل بعضه بعضاً .. اما الأدباء ؟ ابستم ، ألا يأكل الأدباء بعضهم بعضاً ؟ وقال في نفسه : « لو توقفت الأمر على الحجم ، على قوة العضل ، قوة الفك ، القدرة على الافتراس وحدها ، لكان الأكثر غباء وضحالة هم الأكثر قدرة على النهش .. إنهم حيوانات « أدبية » ضخمة هؤلاء .. »

سألها :

- لماذا اخترت هذا الفرع ؟

- لأنني أحب الأدب ..

- ولك محاولات ؟

- بسيطة .. أكتب مقطوعات شعرية ..

- مقطوعات أم قصائد ؟ قولي الحقيقة ..

ضحكت ..

- لست شاعرة على كل حال هذا لقب كبير .. أنا مبتدئة ..

أدرس الأدب المصري بعد ..

- من من الشعراء المصريين تفضلين ؟

- اندره آدي ..

- ومن أشهر شعرائكم ؟

- الكسندر بيتوفي .. ولكن هل هذا امتحان ؟

- تقريباً .. غير أن العلامة ستكون بعد سماع مقطوعة من

شعرك ..

- آسف .. لا تساعدني لغتي الفرنسية على الترجمة الشعرية ..

- لترجم الشعر اذن الى خير ..
- هذا جيد .. الشعر والخمر متلازمان ..
- والمرأة ؟
- ما رأيك انت .. ؟
قال ضاحكاً :
- أهذا امتحان ؟
- تقريباً .. والعلامة تأتي ..
- لا تساعدني لغتي الفرنسية على الترجمة .
- يا لك من داهية .. تحاربني بسلاحي نفسه ؟

اعتدل في جلسته وشرب كأسه كله .. طلب منها أن تفعل كما فعل ، قال لها : « أرجوك » .. ملأ الكأسين . رغب عن الكلام الجاد ، مال الى المزاح .. ماذا يقول عن المرأة ؟ ثمة أشياء تحس ولا تقال .. الحب مثلاً .. كيف يشرح الحب ؟ ماذا يقول الحب عن نفسه ؟ النظرة ، ههنا ، تكفي . أبلغ ، أبلغ ، أبلغ .. نظرة وصمت .. اذا تكلمت عن الحب أسلمته للبرودة .. كذلك الشعر والخمر والمرأة .. ولكن أن نسمع الشعر ، أن نشرب الخمر ، أن نحب المرأة .. هذا بصير .. تعيشه ، نحبه ، نشتمع به .. ولكن ان نتكلم عنه ، كيف يستطيع بكلمتين ، ان يتكلم على المرأة ؟ حتى لو استطاع فإنه لن يفعل .. المرأة بالنسبة اليه ، هي الخمر والشعر والدنيا .. لو قال هذا لظننت انه يتمدحها .. يقول كلاماً يرضيها .. يبالغ كي يستميلها ، كي يظهر أمامها أنه رجل حضاري .. المرأة معيار في حضارة الرجل ، هذا ما يؤمن به ، لكنه ، إن يقل ذلك ، أمام امرأة من الجلسة الاولى ، فهذا يضعه في صورة كل الرجال .. وهو يريد التميز .. يريد ان يكون هو لا غيره .. من أجل ذلك يفضل أن يصمت ، أن يسألها هي عن الرجل .. يرى صورته في تفكيرها ..

قال:

- في جلسة تعارف كهذه، مع كأس النبيذ المتلوج، تصبح لعبة الدهاء باطلة.. أنا لا أحب هذه اللعبة في كل الأحوال.. وخاصة في لقاء كهذا.. أنت تسأليني رأيي بالمرأة.. يمكن أن أقول ذلك بكلمتين، ويمكن أن أقوله في محاضرة، لكن ليس الآن.. لذلك أعذر عن عجزتي.. وفي المقابل، أستطيع أن أعرف رأيك بالرجل؟

- ليس في جلسة كهذه..

- ها أنت ترفضين التحية لي..

- لأنك تحب التعامل بالرموز.. أعذرتي على صراحتي.. أنت، حتى الآن، لم تقل من أنت. ومن أين جئت، وماذا تعمل، وماذا تريد.. أنت، عدم المؤاخذه تلفت نفسك بالسولوفان..

- صحيح؟ ما كنت أدري.. حسبت نفسي واضحاً بما فيه

الكفاية..

- إذا كنت واضحاً فكلمتي عن نفسك قليلاً.. كل ما أعرفه أن

اسمك.. كيف هو..؟

- كرم.. كرم المجاهدي..

- ما معنى كرم؟

- السخاء..

- وأنا بيروشكا.. الحمراء الصغيرة..

- اسمعي إذن يا عزيزتي بيروشكا.. أنا من سورية، من مدينة دمشق.. وقادم من الصين.. ومقيم في يودابست، وأعمل أستاذاً للغة العربية في الجامعة.. وأحب الأدب.. لكنني لم أكن يوماً في الجامعة، أو في كلية الآداب.. ولم أمارس نظم الشعر.. وإن كنت أحبه جداً جداً.. ولا غرض لي، ولا أريد أبداً شيء، من أي

إنسان.. إنني، كما نرى، أحب النبيذ فقط.. وأشرب نخب تعارفنا.. هل امتلأت الاستارة؟

- وتسميها استارة؟

- محضر تحقيق..

- اتراقي شرطية؟

- لا.. باحثة اجتماعية..

- انت لا تهزأ بي أليس كذلك؟

- يا عزيزتي بيروشكا..

لكنه لم يكمل.. قطعت حديثه فناة وقتت وألقت التحية.. نظرت إليها ونهض.. تذكر أنه رآها تجلس مع بيروشكا أول دخوله المقهى.. صافحها.. عرّف بنفسه.. ذكرت الفتاة اسمها لكنه لم يستوعبه.. جلست وتحدثت مع بيروشكا بالجرية.. تضاحكا.. وقالت بيروشكا:

- السيد كرم.. أستاذ اللغة العربية في جامعة يودابست..

- وودت لو كنت من طالباتك..

قال كرم:

- لشد ما كان يسعدني هذا..

- هل اللغة العربية صعبة؟

- ليس أصعب من اللغة اليابانية..

- وقالت بيروشكا:

- أنت تخيفنا يا سيد كرم.. أليس كذلك؟

- وسأل كرم الفتاة:

- ماذا تشرب آنسي.. نبيذاً أم ويسكي؟

- وقالت الفتاة:

- بل ويسكي..

كانت، لأمر ما، تنزع إلى التحدي.. يعود ذلك إلى الحسد؟

حدثت صديقتها لأنها كانت موضوع استحسان من رجل؟ يكون ذلك لأنها أقل جلاً منها؟ لم ترتج إليه؟ نبرة صوتها تَمَّ عن عدم تلاؤم مع وجودها. خائفة! ما أصعب المرأة إذا كانت خائفة! تحتوى الريح في ثيابها عندئذ. تثبت مسامير في أصابعها.. هو لم يد المسامير، لكن ردها عليه.. تشديدها على كلمة «ويسكي» فيه قدر من العنجهية، وآخر من عدم الرضى..

ولما عادت الكرسيونة بالطلب، بادر الى ممارسة لياقة تتجاهل خشونة أنامل ما تزال تحت الطولة. قال:

- بصحة الأنسة..

وقالت بيروشكا معرفة:

- ماكداء..

- بصحة الأنسة ماكداء..

فأجابت بفتور:

- بصحة السيد:

- كرم..

وشربت جرعة كبيرة، فتنفّست عضلات وجهها ليس إلا..

- ٤ -

عند الغروب اقترحت بيروشكا أن يتزهوا قليلاً، باتجاه ساحة الأبطال. كانت قد شربت من النبيذ ما يكفي لكي تبدو مريحة قليلاً. زابلها التحفظ الذي لازمها في أول التعارف. أخذت تنصرف بوقظ ظاهر. رغبت، أمام صديقتها، أن تعطي هذا الانطباع: «كرم صديقي» صارت الأقرب إليه. قامت بدور المترجمة بينه وبين صديقتها، وبدلاً من استعمار الهزء في كلام صديقتها، راحت تعقه لأنها نكته ترد، ولو بشكل عابر. لقد تحفظت لحظات التعارف زمنها. اختصرته، جعلته مسكوناً بحب ولّد في نفسها على الأقل، عملاقاً كأنها تعرف كرم منذ دهر، أو كأن قدرأ يُعدها له، ولم تفعل هي، سوى الامتثال لهذا القدر.

ساروا على امتداد شارع لينين، انعطفوا يميناً الى شارع الجمهورية المفضي الى ساحة الأبطال. كان المساء هيباً، والساحة ملأى بالمتزهبين، وعلى جانبيها المتحف الوطني ومتحف الفن التشكيلي. بيروشكا كانت تتكلم أكثر الوقت. قامت بجملة الدليل. كانت تعتصر ذاكرتها لتجد الكلمات الفرنسية المعبرة. وحين تعوزها، كانت تقول الأشياء بالجرية. وتضحك وهي تقول: شايوش (أسفة) وتتابع الكلام على ساحة الأبطال، بتأثيلها البرونزية، وأسطورتها التاريخية، حيث القائد الأكبر أرباد، الذي قاد القبائل

الجرية في هجرتها الى المجر . كانت مقعمة فخراً وحاسة ، وكرم يحيد
كي يجارها ، متذكراً صديقه هيدجي ، بعينيه الزجاجيتين
الزرقاوين ، ويديه وأصابه وحركاته ، حين يكون قد شرب ، وطقق
السكر بغليه ، ووقف كمن يحطّ صائحاً : « نحن المجرين يا كرم ، من
أوقف زحف المغول على أوروبا . هذه الأمة الصغيرة هذا البلد
الصغير ، بلد الشجعان ، هو الذي ردّ المغول على أعقابهم ، بعد أن
اجتاحوا روسيا نفسها .. لقد انقذنا أوروبا من التتار » لوحة
حربية بانورامية ، سيوف وخيول ، أرهاد العظم ، والذرازي .. من نسل
أرهاد انت يا بيروشكا ؟

سألت بيروشكا ، فجأة :

- قل لي ، سيد كرم ، هل تحب المتاحف ؟

- أنا من هواة الآثار .. يكاد البحث عن التحف يأخذ وقت
فراغي كله .. هذا ما كنته في الصين على الأقل .. هنا في بودابست ،
لم أبحث بعد .. لا بد أن أفعل ..

- ابحث وستجد .. نحن أيضاً لدينا آثارنا القديمة .. ولدينا أشياء

حديثة بالطبع ..

قالت الصديقة :

- بأي نوع من التحف تهتم ؟ هنا لدينا أيقونات أثرية شهيرة ..

ولكن انتبه ، ممنوع إخراجها من المجر ..

- وملكيتها .. داخل المجر ؟

- لا أدري .. يجب أن تسأل عن هذا ..

- سأفعل .. لست مستعجلاً ..

قالت بيروشكا :

- أتمنى لك التوفيق .. أنا واثقة أنك ستعثر على تحفة نادرة .

- هذه عثرت عليها ..

- أين ؟

- في مقهى « أم كي » ..

- أنت تفرح يا سيد كرم .. أليس كذلك ؟

- أنا جادّ في ما أقول .. لقد عثرت على تحفتي مصادفة ..

- متى ؟ سألت الصديقة .

- اليوم .. في حوالي الرابعة بعد الظهر ..

اتّسنت بيروشكا .. ضغطت على يده ، بدت مزهوّة لهذا

الإطراء أمام صديقتها . قالت :

- شكراً يا سيد كرم .. هذا لطف كثير منك .. لكننا كنا نقصد

التحف الحقيقية ..

- وأنا كنت أقصد تحفة حقيقية ..

- لكنك بدأت تبالع ..

قال جادّاً :

- ربما اكون مبالغاً .. لكنني أعتبر الإنسان أعظم تحفة في

دنيانا ..

- هذا في المطلق (قالت الصديقة جادّة وبهجة مسمومة) .

- ويمكن أن يكون في التخصص أيضاً .. بيروشكا كانت لطيفة

الى أبعد الحدود .. وأنا مسرور بالتعرف اليها ، وسروري اكبر بما لو

عثرت على أيّا تحفة ..

تصاحكت الفتاتان ، تكلمتا المجرية . قالت الصديقة شيئاً لم نشأ

بيروشكا ترجمته . دخلا في حوار قصير ، انصرف خلاله الى تأمل

بيروشكا ، جانب وجهها ، عنقها ، شعرها ، ضحكاتها ، وحتى عبوسها .

لاحظ أن وجهها حيّ الى درجة أن أيّ تأثير يرفّ عليه . لم يكن

وجهاً جامداً ، متخفياً وراء قناع ، بخلاف صديقتها . كانت هذه

مهمّة . تروزه خفية . تريد أن تكتشفه بأكثر مما يعينها . قال في نفسه

« أكاد أحرز ما تقول. تظنني متملقاً. قد أكون قلت ما لا ينبغي، ما يقوله الرجال كلهم. لقد أردتها، في البدء، نوعاً محبباً من نكتة. أنا لست سريع البديهة. مع ذلك جربت لعبة ذكاء فاشلة. أردت التعبير عن سعادة. قلت ذلك صادقاً. الإنسان أعظم تحفة في هذا الوجود. هذا ما أؤمن به. لكن بعض الإيمان يحسن أن يُكتم في النفس. أن يتسرّع المرء، حتى في إظهار إيمانه بشيء، يجعله موضع شك.. ما أحسبني مخطئاً.. هذه الساحة. هذا الاعتداد، هذا اللقاء، كل ذلك، مع الطيبة التي أظهرتها بيروشكا، جعلني أعطي حكم قيمة. قلت عنها تحفة. تحفتي النادرة.. أكون مخطئاً؟ قد لا أكون لكن ما هو أشد خطأ، أن تظن الصديقة أنني أتملق.. وفي الحقيقة، ورغم كل شيء، هل كنت متملقاً دون أن أدري؟ لماذا؟ ما دافعي إلى ذلك؟ »

اغتم قليلاً، حاول ألا يدع ذلك يبين. تظاهر أنه معنى بما حوله من مناظر، وجد نفسه يقول:

- ما أروع بودابست يا عزيزتي بيروشكا!

كان الليل قد هبط. كان ليلاً صيفياً. وكان القمر بدرآ، والأنوار، من على طرقي الشارع، ومن وسطه أيضاً، تسطع بألوان بهيجة. حلا له أن يسأل الفتاتين نزهة في الغابة المجاورة، بيد أنه وجد السؤال محرجاً. في الصين لم يعرف الغابة حتى في النهار. لم تكن له صديقة هناك. وما كان قادراً أن يجلس إلى فتاة في مقهى، أو أن يدعوها إلى نزهة. هنا، كما قال هيدجي، الأشياء تختلف، «عندنا مثلاً هذا صحيح يا صديقي، عندكم، مثلاً، بيروشكا. عندكم «ام كي»، ساحة الأبطال، البارمان فرانتس، روزيكا وخطيبها، المجتمع هنا مفتوح. الغريب لا يبقى غريباً، الحياة

الاجتماعية تشده إليها قادر أن يجد صداقات من الأسبوع الأول، بل من اليوم الأول. لكن الحذر ضروري.. أنت لن تخرج الفتاتين يا كرم بهذه السرعة. بطلب كهذا. دخول الغابة في الليل، قد لا يعمل معنى طيباً. كفت عن نزواتك. تمنع بأمنية صيف حلوة. تمنع بالفقر، بالسوء الصافية، بالنجوم القليلة المتناثرة.. الأفضل لو تجلس مع الفتاتين على مقعد من هذه المقاعد الكثيرة التي يتقاسمها المتزهبون. يتناهبها العشاق. أنت لست عاشقاً. لا تصلح أن تكون كذلك. أنت في الأربعين. أنت مشروع عجوز في الأربعين.. بيروشكا في العشرين. ربما أقل.. ليست المسألة مسألة عمر. لكنك لن تستطيع أن تجلس معها، وأن تحتضنها وتقبلها كما يفعل الآخرون. لا أحد يلومك إن فعلت. لا أحد يلتفت إليك، أنت وشأنك، لكنك. أنت، تلتفت إلى نفسك، تمارس إحساساً ذاتياً بعدم الرضى. أنت لن تكون عجرباً كما أوصاك فرانتس.. لن تستغل جلوسك، لبعض الوقت، مع بيروشكا. دغ الغابة وشأنها، دغ العشاق وشأنهم.. ستفعل حسناً لو دعوت صديقتك إلى أحد المطاعم.. هذا أفضل أكثر مدعاة للراحة والأطمئنان.. أجلب للثقة.

- عزيزتي بيروشكا!

قال فجأة، كأنه انتبه لتوّه إلى وجودها بجانبه.

- ماذا يا سيد كرم؟

- ما رأيك، أنت وصديقتك، لو تقبلان دعوتي إلى العشاء في

أحد المطاعم؟

اعتذرت الصديقة:

- لا أستطيع.. علي، الليلة، أن أعود باكراً.. أمس سهرت إلى

الصباح.. كانت ليلة السبت كما تعلم. ترجعت بيروشكا.. شرحت:

ليلة الأحد، في الجمر، تكون هادئة غالباً، بعد صخب ليلة السبت.
يمود الجريون، ليلة الأحد، الى بيوتهم في وقت مبكر.. يترجمون،
استعداداً للدراسة او العمل.

- فهمت، قال كرم، أنتبّل الاعتذار في هذه الحالة.. أنا أيضاً
سهرت ليلة اس..

- اين، سألت بيروشكا.

- في مرقص «أم كي»..

قصص ما وقع له.. كان مسروراً باستعادة قصته، روزيكا كانت
ذكية.. وكان البارمان فرانتس لطيفاً، لقد قضى وقتاً طيباً.. وهو
تعب قليلاً، لكن لا بأس بكأس بعد هذه النزهة، مع عشاء خفيف..
غير أنه لا يصر.. ليدع بيروشكا تتصرف..

قالت بيروشكا:

- كان بودنا، صديقتي وأنا، أن نقبل دعوتك.. لكنها ليلة
الأحد، كما قالت صديقتي، وأنت أألت نعباً بعد سهرة الليلة
الماضية؟

- لم أرقص كثيراً.. ثم إنني نمت الى ما بعد الظهر، هذا اليوم..

- ولو لم نكن معك.. أين كنت تقضي سهرتك الليلة؟

- في البيت..

- أين بيتك؟

- في شارع.. كيف تقولون: بنشور اوتسا..

هتفت:

- ولكنه قريب جداً..

- اجل.. نحن في الحي، تقريباً..

- هل تسكن وحيداً؟

- تماماً..

- وكيف تقضي أوقاتك؟

- بالقراءة.. وسماع الموسيقى..

سألت الصديقة:

- لديك موسيقى شرقية؟

- صينية مثلاً؟

- بل يونانية.. هل تحب موسيقى نيودوراكس؟

قال كرم:

- أحب موسيقى فيلم زوربا.. أحبها جداً.. لدي موسيقى
عربية أيضاً.. مقطوعات قليلة..

قالت بيروشكا:

- صديقتي تهم بالموسيقى..

- لو كان لديكما بعض الوقت، لكنت سعيداً بسماع بعض
الموسيقى معكم في بيتي..

- وهل هذا ممكن؟

- لماذا لا؟

- أعني هل تستقبلنا في بيتك؟

- بل أرحب..

قالت الصديقة:

- على أن تكون الزيارة قصيرة..

- كما تريد.. وسأكون سعيداً بتقديم القهوة العربية لكما..
قالت بيروشكا:

- عظيم.. موسيقى شرقية، وقهوة عربية.. هذا إغراء لا
يقاوم..

انعطفوا من ساحة الأبطال الى ينتزور اوتسا. ساروا تحت أشجاره الوارفة. كان الطريق قصيراً، مرجحاً، فيه عبق من تلك الليلة الصيفية. كانت بيروشكا وصديقتها يتحدثان بما يشبه المحسن. بدا عليها توقع ما. إنها مفامرتان في زيارة مرتجلة، وكرم مرتبك لاستقبال فتاتين بحريتين للمرة الأولى في بيته يفكر بقطعة الموسيقى، وفنجان القهوة، وكل ما يرضي ضيقه، ويدخل السرور الى قلبيهما.

توقفوا عند البناية ١٩ في ذات الشارع، كانت تليه السفارة الصينية، وامامه السفارة الفيتنامية، فقالت بيروشكا:

- أهذا حي للسفارات؟

قال كرم:

- لا أدري.. كل ما اعرفه ان السفارات كثيرة هنا.. إنه حي ارستقراطي على ما يبدو..

- والسكنى فيه ممتعة.. انت الذي استأجرت البيت؟

- بل الإذاعة.. هذا بناء يعود للإذاعة، فأنا اقدم برامج أدبية باللغة العربية إضافة الى عملي في الجامعة.

دخلوا البناء الكبير.. رأته حارسة البناء لم تقل شيئاً. كانت امرأة ربة، نشطة، متيقظة، وكانت تعرف ان كرم ما يزال غريباً، وبجمل اللغة المجرية. وهذا مبعث استغرابها. توقفت وحياتها. رفض أن يدخل متسللاً. هذا أرضاها ولا شك. سمعها تقول: «تفضلوا» بالمجرية، فعضوا الى المصعد ومنه الى الطابق الرابع حيث تقع شقته في أقصى البناء وتطل على حديقته الواسعة من جهة الشرق.

فتح الباب ودخل امامهما. كانت شقته صغيرة، تتألف من غرفتين، تقضي احدها الى الأخرى وبينها باب خشبي عريض اذا

فتح، صارت الغرفتان غرفة واحدة مستطيلة، وكانت الشقة، كما تسلمها مفروشة. فيها خوانان عريضان، يفتحان ليلاً قبضحيان سريرين مزدوجين، ويطلقان نهاراً قيعودان الى وضعهما السابق: مقعدين طويلين للجلوس، مع ثلاثة مقاعد أخرى، في زاوية الغرفة الداخلية. التي تطل نافذتها على الحديقة، ومكتب صغير، في الزاوية المقابلة، وخزانة زجاجية على طول الجدار، وخزانة ملابس، وكل ما يلزم لعائلة صغيرة.

كان كرم، الذي حل معه من الصين صديق من التحف، قد استطاع، خلال ايام، أن يرتب بيته وفق ذوق خاص، يتلاءم مع عرض يبرز بعض مقتنياته الأثرية الثمينة والنادرة. وضع على مكتبه قناراً كبيراً من خشب، يمثل طبيباً شعبياً، وعلى قاعدة من جذع شجرة، ترك على طبيعته، فبدا التمثال المهيور، الجسم، كأنه ينهض فوق أرومة شجرية رائحة. وفوق التمثال كلة من ورق مقوى، كقطاء لمصباح كبير، مزدانة برسوم نساء صينيات، وداخلها مصباح ملون. وإلى جانب التمثال وضع مجلة جديدة، من أحدث ما انتجته شركة فيليبس، استوردها من هونغ كونغ، مع أشرطة جديدة، فيها كل أنواع الموسيقى. وقام في الزاوية المقابلة برفاقان من خشب البابو، محفور حفرأ ناعراً، عليه طيور وزهور ونقوش فائقة. وفي الطبقة السفلى، الخشبية، من الخزانة الزجاجية، أنشأ ما يشبه «البار».. فيه كثير من أنواع المشروبات، وبينها مشروبه الصيني المفضل «الوتاي»، وعلى رف الخزانة الطويل، قنايل خشبية، وخزفيات من البورسلين الصيني القديم الفاخر، وعلى الجدران لوحات صينية غريبة بصورها، عجيبة بزيجها اللوني، وفي كل زوايا الغرفة، لوحات من عاج، تمثل اعراساً وافراحاً شعبية

صينية، مع لوحات خشبية محفورة، فيها حروف صينية، تشكل منها كلمات مثل السعادة، العمر الطويل، الفصول الأربعة.

أما الغرفة الخارجية، التي تلي المدخل. فقد وضع على سطح خزانتها أسداً خرافياً صينياً، من خشب محفور ونحسرين بنغالين، في حالة توثب للانقضاض من خشب أيضاً، وفي كل أطراف الغرفة، عند قدم الجدران، نثرت الخواوي والدنان والأصص الخزفية الصينية، وفوقها، على الجدران، لوحات كبيرة رتبها على نحو ما شاهد في حوانيت باعة الأنتيكات في أحياء بكين القديمة، وما تبقى، وهو كثير، احتفظ به في الصناديق. وهكذا قلب بيته الى متحف شرقي، يبهز الراي، ويجعله مذهولاً، متأملاً، رافضاً الدخول، رافضاً الجلوس، قيل أن يشاهد ويتملى، كل هذه الروائع من حوالبه، تحت شبكة بسيطة من الأنوار البيضاء والملونة، مدّدها بنفسه، وراعى في توزيعها جواً رومانتيكياً يساعده على الكتابة، على صوت موسيقى ناعمة، تجعله يعيش جو الشرق الأقصى الذي عاشه يوماً، وظل مولعاً به، يحنّ اليه، ويستعيد في متحفه الصغير.

لقد علّمته التجربة، وخبرته الثقافية الصينية، أن العين، إذا وقعت على الأشياء مباشرة، دهشت للحظات ثم كفت. الأفضل، في عرض التحف، أن تتكشف للنظر تدريجياً، وأن تبدل كل مدة، وتعلّق عليها، كما في المتاحف، بطاقات تحمل أسماء أو شروح التحف، وأن يوضع، عند المدخل، حاجز كما الجدران الأمامية، ذات الزخارف البسيطة، في المعابد البوذية، كي تحجب ما في الداخل، وتسمح للزائر أن يتدرّج من الرؤى البسيطة، الى الفاتنة، الى الرائعة في فنتها، وكان قد قرّر، أن يأتي بمصور، وأفلام ملونة، فيصور تحفه وينشرها في كتاب، مع شروح عنها،

وقصص تحكي حكايتها، وحكاية العنور عليها، وما رافق كل ذلك من طرائف، بحيث يأتي الكتاب أدبياً أثرياً، مصوراً.

باختصار، كان مجل أحلاماً غريبة، وفي حنينه الى الجهول، وإصغائه، في جو المتحف، الى نداء بعيد، كان قد صار الى ما يشبه اللوثة، فهو يأمل، كل ليلة، أن تخرج اليه، من إحدى اللوحات، جنية ما، او يتجسّد، على نحو مفاجئ، أسد أو نمر أو تنين، وأن تقارق العنقاء ملكة الطيور، رسمها المنقوش على خابية خزفية زرقاء وتطير في جو بيته. لقد قرأ وسمع، في الصين، أن رجلاً كان يحبّ التنين، وكانت صور التنين تملأ غرف بيته، وحين عاد، ذات يوم، الى هذا البيت، وجد التنين قد تجسّد، ونزل من الصورة، وأصبح تنيناً حقيقياً، فراح يصرخ، خوفاً، ويستنجد بالمجيران، طالباً قتل التنين الذي في بيته، وحين سأله عن سبب هذا الرعب، وهو الذي يحبّ التنين الى درجة العبادة، قال لهم: «أنا أحبّ التنين في الصورة، لكني لأحبه في الحقيقة» وعندها قال له أحد المجيران: «انت، يا سيدي، كالبورجوازي الذي يحب الثورة في الكتب، فإذا استيقظت وخرجت منها، وصارت ثورة حقيقية في الواقع، دعر منها وطالب بالقضاء عليها».

وكان كرم بكتر، في لوحاته وتحفه، من الأشياء التي تحمل صور التنين، والعنقاوات، والغيوم، والأشجار، والطيور والأزهار، والنساء.. وكان التنين هو المفضل لأنه رمز القوة وفي الصين القديمة كان رمز الامبراطور، وكانت العنقاء، رمز الرشاقة، وهي رمز الأمبراطورة، وكان يعيش في وسط كل هذه الرسوم والتأثيل، ذاكرة صديقه «هيدجي» ضاحكاً في سره من ولعه بالتحف الصينية، التحف التي كانت تنقصه الخبرة حولها، فيشتري كل ما

يصادفه ظناً منه انه اثري. ولم يكن، في حقيقته، إلا حديثاً كسر من أحد جوانبه، أو لُطِّح بمادة غبارية، فتبدى كأنه قديم موغل في القدم.

دخل كرم بيته. أنار الضوء. دعا صيفتيه الى الدخول. تحي وهو يرحب، تقدمت بيروشكا وبعدها صديقتها، لكنها منذ صارتا في المدخل، وتجلّى لها المنظر الباهر، صاحتا:

- يو، جونيري.. (آه رائع!).

ابتسم كرم. لم يقل شيئاً. ما كان معنياً بشيء. لم يأت بها بقصد إدهاشها. لقد عرف، في حياته نساء كثيرات، عرف أكثر مما يرغب ان يعرف. ظل حيال كل شيء، لامبالياً. ظل مصمتاً من الداخل، كأنه لا يملك عاطفة، وكأن الحب إحساس غريب عنه. وكان يعجب لهذه الحالة، ويستشعر فراغاً ويتعذب. ويأمل أن يرتوي يوماً، ظمؤه الداخلي، وأن يكفّ الحنين الساعب في ذاته عن شدة الى ما لا يدري، وأن ينتهي قلقه النفسي، فيعرف ما يريد، ويحصل على ما يريد، ويصير له زوجة وأولاد، ويدعه شيطان يسكن جسده ويضنيه. وكان يهرب من واقعه المؤلم هذا الى الكتابة، محاولاً جعلها خلاصة، لكن الكتابة كانت تعذبه بدورها، فيهرع الى الحمرة، والموسيقى، والبغايا، ويخرج عن مواضع البيت، ويلوذ بنوع من حياة بوهيمية، دون ان يجد دوام لما كان يسميه جنونه المضر، الجنون الذي يفتت أعصابه ويفسد أيامه ولياليه.

ترك بيروشكا وصديقتها تدهشان كما يلذّ لها. تقدمها الى الغرفة الأولى وأضاءها ثم دخل الغرفة الثانية وجلس بانتظار أن توافيا، لكن بيروشكا توقفت. جاءه صوتها:

- سيب (جبل) شك سيب (جبل جداً)

وقال لها:

- ادخلا.. لديكما الوقت للفرجة..

قالت بيروشكا:

- لا نستطيع.. دعنا.. أية مفاجأة هذه؟ أية مفاجأة؟

وحين وصلت اليه، كان في عينيها عتب ودهش، كانت، على نحو ما، خائفة، ومن جديد، أنبعت في خاطرها هذا السؤال: «أليس هذا فخاً لاصطيادنا؟» قالت وقد اقتربت منه:

- وبعد؟ قل لنا من أنت؟

كانت الصديقة في الغرفة الأولى ما تزال. كانت تقارس إحساساً بالغربة.. كرم صديق بيروشكا وليس صديقها. قرّرت في ذاتها ان تسمع شيئاً من الموسيقى وتساؤن بالانصراف. إنها، بعد كل شيء، ضيفة. وليس لها صديق هنا. وليس من المستحسن، أن تحاول التقرب من كرم، لكنها، في ذاتها أيضاً، كانت تحنى على صديقتها من الانجراف بدهشتها، قالت في نفسها: «هذا الإنسان خطر بأكثر مما تصوّرت، إنه يتخذ متحفه هذا وسيلة لاصطياد المعجبات.. إن امرأة تدخل الى هنا لا تخرج سالمة.. هذا المجهول، الذي يهيط نفسه بالغموض، وينفق عن سعة، ويملك مثل هذا البيت، ومثل هذه التحف النادرة، ثم لا يتحدث عنها، ويدع للزائر ان يرى ويندهش، ليس إنساناً عادياً، وتصرفه ينطوي على هدف، بل على أهداف.. إنه يفهم نفسية الآخرين، له حساباته.. وهذه البيروشكا، في معنى «أم كي» حسبته سائحاً أو زائراً عابراً، وصدقت انه استاذ اللغة العربية، وان مهمته في المجر تقتصر على التعليم في الجامعة.. لا.. أنا لا اصدق.. لا بد من تحذير بيروشكا ولا بد، من جهة اخرى، ان اكتشف غايته المستترة..»

جلست الصديقتان أخيراً. كانت موسيقى صينية ناعمة تنبعث من المسجل. وكانت الأضواء الملونة تضفي على الغرفة، يتحفها وتماثلها، جواً فخماً، مخدراً، وعلى الطاولة الواطنة، المستديرة صنوف من السكاير الاجنبية، وعليها بعض الموالح، وعلبة من عيدان الخبز المالح. التي تؤكل مع الويسكي، وكل ما يتسق مع الجو، ويعطي إحساساً بالراحة، وإغراء بتذوق الأشياء، ودعوة الى الشراب..

قال كرم وهو ينهض:

- استأذن لحظة سأعد لكما قهوة تركية..

وقالت بيروشكا بصوت خفيض، بعد ان صار كرم في المطبخ:

- إنه أمير.. هذا أمير شرقي.. ما رأيك؟

- لست ادري.. لكنني أخاف أن يكون اميراً زائفاً.. أنا لا أصدق أن انساناً يملك كل هذه الأشياء يأتي ليشغل في البحر. وما حاجته الى الشغل؟

قالت بيروشكا:

- وكيف وصل الى البحر، وبأية صفة؟

قالت الصديقة:

- لعله يمثل دوراً.. قد لا يكون أستاذاً في الجامعة، ولا علاقة له بالإذاعة..

- وهذا البيت.. أما قال إن البناء يعود الى الإذاعة؟

- من يدري.. بوذي لو ألقي نظرة على هذه الكتب فوق مكتبه..

قالتا ونهضت.. وفجأة رفعت كتاباً في يدها وصاحت:

- انظري.. هذا الكتاب يحمل صورته.. إنه مؤلفه ولا شك..

في هذه اللحظة عاد كرم بالقهوة. كانت قهوة مركزة. كانت كثيفة بالنسبة للقهوة المجرية، وكان مذاقها طيباً وكان التبغ فاخراً وساد جو من الصمت، ترشّفوا القهوة خلاله، وتعالق حلقات الدخان، وكل يفكر في شيء ما، متصل ومنفصل، وكل ينتظر أن يقول الآخر شيئاً، أو يقصص عما يدور في خاطره.

قال كرم وهو يفتح البار:

- لديّ ههنا ما يشرب.. ليختر كل منا ما يريد.. أنا أفضل الموناي الصيني.. لكنني لا أنصحكم به.. هذا قليلاً من الويسكي مع الصودا.. وبعد ذلك نأكل شيئاً بما في البراد.. إنه عشاء خفيف.. أنا، في العادة، أشرب مساء ولا أنعش..

أحضرت ثلاث كؤوس وملأها، وعندئذ قالت بيروشكا:

- الآن مشرب نحب صداقتنا.

شرحت له ما يعني كأس الصداقة الأول عند المجرين: يقبل الشاربون بعضهم بعضاً، ويتخاطبون، بعدئذ بصفة المفرد.

رفع كرم كأسه ودق الكأسين المقابلتين. وشرب ثلاثهم، ثم تبادلوا القبلات، ونادته بيروشكا، للمرة الاولى:

- كرم!

وكان في صوتها دفء خاص، وتأثير خاص أيضاً، والتمعت في عينيها، نظرة مودة، وأدرك كرم، أن عاطفة جديدة، حارة، توشك ان تولد في نفسه، هو أيضاً.

قالت الصديقة:

- بالنسبة لي، أرغب في ذلك، لكنني منجمة مع هذه الموسيقى، وهذا الويسكي الفاخر، فلا تطلبني مساعدة..

قال كرم:

- في هذه الحال، نعدّ العشاء، بيروشكا وأنا.

قالت بيروشكا:

- بل أنت تفي مستريحاً.. دعني أنصرف كما لو أنني في بيتي.
كرة أخرى، اتخذت عبارة «كما لو أنني في بيتي» منحى ودياً جداً في التعبير. طريقة وقوفها، انفلاش الشعر على الجانب الأيسر للوجه، اهتزاز الصدر تحت القميص الرياضي، غنة الصوت، طريقتها في الكلام، ابتسامتها المدلّة بالاعتداد، المتساعمة مع ذلك إلى درجة الاستئذان في أن تكون كما في بيتها، أبهجته. كان قلبها ينض في عينيها، في شعرها، وطفولة محبة، تُردُّ إلى البراءة، تضفي على كل ما فيها عذوبة يامة، من تلك البهائم التي في أشجار الحديقة، وأحياناً على حافة نافذته. كانت امرأة في إهاب فتاة، لولا أن المرأة نضجت على نحو ما في الحكايات، نضوجاً يسبق العمر، ويتسبج بالحفر والإثارة معاً.

قال لها:

- بيروشكا!

نظرت إليه، في عينيهِ مباشرة، وأجابت بلهجة مجرية آسرة:

- ايكن.. (نعم) (ثم استدركت بالفرنسية): oui..

ابنسم. لم يقل شيئاً. كان يستمتع، هو نفسه، بصوته هذه المرة، صوته الذي حل كلمة بيروشكا دون أي لقب، واجداً لفظه بموسقاً على غير عادته..

- ٥ -

أكثر ما أعجبه فيها شعرها، كان من محي الشعر الخليل المسبل على الكتفين المتعرج على صفحة الحد، ذي اللثاعة الخاصة، كأنه شلال حرير ينهمر من قمة الرأس، وينفرد على جانبي الوجه، معطياً للصباء، للقامة الفارعة، للوجه البضاوي، فتنة تعري بأن يده يده ويمد، يداعب، يلهو، يحلم بدنياً من غير دنيا.

منذ رآها، في مقهى «ام كي»، قال في نفسه: «يا لروعة هذا الشعر» كان صباها الريان، قامتها المشوقة، عيناها، كل جسمها المنسق، في تكوينه البديع، لفناء ساعفت الرياضة في هارمونيها البدنية، وأبرزت، على نحو مشير، مفاتها، في الصدر، في الردف، في الخصر، كان كل ذلك، جديراً بأن يلفته إلى جمالها، وأن يحمره أيضاً، لكنه من دون كل تلك الملاحظة، أغرم بالشعر، وتمسّ في غير دخلة، أن يتخلّله بأصابعه، وهو ينظر في عينيها طويلاً. وعندما اقترحت بعفوية فتاة بريئة أن يشربوا نخب الصداقة الجديدة، لامس الشعر الحريري صفحة خده وهي تقبله، فاستثمر نشوة ناعمة مريحة، ثنائها لو تدوم طويلاً.

قال في رغبة تتبع من القلب:

- أستطيع، بقليل من الجهد أن أعدّ لكما عشاء خفيفاً.

وضحكت بيروشكا:

- ماذا يا كرم؟

- نسيت ماذا أريد أن أقول..

- إذن تذكر على مهل.. هل أستطيع التصرف بحرية؟

- بكامل الحرية.. اكتشفي الأشياء دون مساعدة مني.. المطبخ

الى بين المدخل، والى اليسار غرفة المؤونة... لن تجدي فيها سوى

بعض المعلبات.. لكنها تكفي.. هيا يا صغيرتي..

قال «صغيرتي» بقصد هذه المرة. وجدها معبرة عن حقيقة ما

بينها من فارق العمر. كان يشعر، وهو في الأربعين، أن بيروشكا،

التي لا تتجاوز العشرين، مثل ابنته لو كان متزوجاً، وهذا الشعور

الذي كبح اندفاعاته نحوها، كان صادقاً، فهو يذكرها بذكر نفسه

أيضاً، أن ثمة هوة، وأن استغلال عاطفة بريئة، من طرفها على

الأقل، بجانب استقامته الخلقية. وفي مطلق حال، من الضروري

تنبيهها الى هذه الحقيقة كيلا يخالجها أمل صعب التحقق، ولا يخالج

روغ، مصدره شهوة مضرة.

كانت التلاجة، في المطبخ، ملاءى باللحوم والألبان والفاكهة

والخضروات. وثمة، في طرف من المطبخ، مائدة وأربعة مقاعد،

وهناك خزانة للأواني، وزجاجات مبردة وكل ما يلزم. إنه، من

هذه الناحية يحرص على أن تكون الأشياء موفورة، برغم أنه

يتناول وجبة الغداء في نادي الصحفيين القريب وفي الصباح

يكتفي بفنجان من القهوة وقطعة من البسكويت. أما في المساء فلا

يأخذ مع الويسكي إلا بعض الموالح. كان الطعام، بالنسبة اليه،

مادة لحفظ الحياة، والشروب إكسيراً للنشوة، أما فهمه الحقيقي

فكان محصوراً بالقهوة والسيكارة.. لذلك كانت هاتان من
الضروريات، وموقورتان بكثرة عنده.

قالت الصديقة التي ابتعدت الآن، بأحاسيس أنثوي رهيف، عن
عجال التفكير بأي صلة معه:

- بيروشكا صديقة ممتازة.

قال كرم:

- وأنت صديقة ممتازة أيضاً.

- أنا؟ (ابتسمت) أنا شيء آخر..

- كيف؟

- هكذا.. أنت تفهم ما أعني..

قالت بيروشكا التي جاءت من المطبخ وعلى صدرها مريطة
ليلكية وقامت بالترجمة بينهما:

- صديقتي مولعة بالرمز.. لها محاولات في الأدب الرمزي..

قالت الصديقة:

- في الموضوع الذي نحن فيه، لا يحتاج الأمر الى رمز.. كونا

صديقين طيبين، وهذا يسرني..

قال كرم:

- لكن، ثلاثتنا اصدقاء..

قالت الصديقة متابعه فكرتها:

- أنا خارج اللعبة..

- لماذا؟

- لأنه لا يمكن أن أفرض نفسي عليكما.. أنا أيضاً، لي صديق..

قال كرم:

- وليروشكا أيضاً صديق.. أليس كذلك؟

- وانت؟ (سألت بيروشكا) ستقول لي إنه لا صديقة لك!
- فني الوقت الحاضر، لا صديقة ولا صديق.. ما أزال غريباً..

- وقبل ذلك؟ في الصين مثلاً؟ في دمشق؟ في سورية؟
- كانت لي صداقات عابرة..

قالت بيروشكا:

- أفهم أنه ليس لك صديقة خاصة؟ حبيبة مثلاً؟
- هل هذا تحقيق عاطفي؟

صاحت بيروشكا:

ابداً.. ولماذا؟ ما شأنا نحن.. هذه من خصوصياتك..

قالت الصديقة:

- سأكون صريحة أنا.. لنفرض أنه نوع من التحقيق.. ألسنا

اصدقاء؟

وقالت بيروشكا:

- المائدة جاهزة..

نهضوا بعد أن أفرغوا كؤوسهم.. كذلك اقترح كرم، قال إن لديه زجاجة مشلوجة من النبيذ الصيني، وأنه سيكون سعيداً بأن يتناولها معها.. فقالت بيروشكا:

- يا لكثرة ما شربنا اليوم.. في المقهى، وقبل الطعام، وخلال..

قال كرم:

- وبعده أيضاً.. تخافين السكر؟

- لنفرض أنني سكرت.. ماذا تفعل في هذه الحالة؟

قالت الصديقة:

- ما أظن كرم يقصد إلى اسكارنا.. أليس كذلك؟

قال كرم:

- أنا لا أقصد شيئاً.. قد لا تصدّقان.. هذا لا يهم.. إذا كان الشروب يشغل عليكما فلنتوقف..

قالت الصديقة:

- بالنسبة لي، لا خطر.. ثم إنني لا أسكر.. وبودّي أن أذوق النبيذ الصيني..

قال كرم:

- وبالنسبة لبيروشكا، لا خطر أيضاً.. نحن الآن لا نتكلم في الرمز.. أليس كذلك؟

قالت بيروشكا بشيء من استياء:

- لست طفلة على كل حال.. وما دار موضوع الخطر في بالي.. هيا.. ستذوق النبيذ الصيني.. قد لا أعود إلى كليتي الليلة..

قال كرم:

- بل ستعودين.. وهذه لغة واقعية تماماً.

- لا تفهميني خطأ.. لا أقصد المبيت عندك..

قال كرم:

- أن ترغب في المبيت عندي فليست أمانع.. ستكون لك غرفتك الخاصة.. وثفي ألا خطر.. هذا وعد.. لكنني أريدك أن تعودتي إلى الجامعة.. ثم نحن نستعجل الأمور.. لنتناول طعامنا أولاً..

على المائدة تذوّقوا النبيذ الصيني.. كان لاذعاً قليلاً، وكانت ثمة أشياء مقبلة.. أثنى كرم على ذوق بيروشكا في إعداد وجبة العشاء وترتيب المائدة، لكن الصديقة استأنفت استفساراتها:

- قل لي، يا كرم، أليس لك صديقة أو زوجة، في بلادكم؟

- لا صديقة ولا زوجة...

- كم زوجة يأخذ الرجل في بلادكم؟

- الشرع يسمح بأربع زوجات.. لكن الناس، في وقتنا الحاضر..

لا يتزوجون بهذه الكثرة.. المثقفون يكتبون بوحدة..

أضاف:

- هذا سؤال تقليدي، يطيب للمرأة العربية أن تطرحه على

الرجل الشرقي دائماً. الصورة تغيرت الآن، لم تتغير كلياً، لكن

الرجل الشرقي ليس في عبادة الرجل البدوي المعروفة عنه.. إنه لا

يتزوج كما كان يفعل السلطان عبد الحميد..

- وانت؟

- أنا لم أتزوج بعد..

- لماذا؟

- هكذا.. لأسباب خاصة..

- ولا تريد أن تفعل؟

- لا أفكر بهذا الآن..

- هل ثمة موانع؟

- قالت بيروشكا بالجرية:

- كفى! لماذا الإحراج؟

قال كرم وقد فهم من عبوس وجه بيروشكا أنها غير راضية

باللحاح صديقتها:

- دعها يا بيروشكا.. أسئلة كهذه لا تضايقي.. اعتدت

عليها.. ليس لدي أهداف تحت الثياب..

أضاف:

- لم أتزوج لأنني لم أحب.. قد يبدو هذا غريباً.. لكنها الحقيقة.. ربما كنت أنغر من قيود الزوجية.

- هذا لأنك كاتب؟

- أنا؟ كاتب؟.. من قال هذا؟

قالت الصديقة:

- رأيت كتابك على المكتب.. عرفت ذلك من صورتك على

الغلاف.. لماذا تتكلم؟ أم تراك تحب الغموض، ككل شيء في

متحفك هذا؟

- قد أكون غامضاً. هذا طبع أكثر منه دهاء.. لي محاولات في

الكتابة، لكنني، حتى الآن، لا أعتبر نفسي كاتباً..

- ماذا تكتب؟

- الرواية.. والقصة القصيرة..

- كم رواية نشرت حتى الآن؟

- روايتين.. وبعض القصص..

- ولا تعتبر نفسك كاتباً؟

- لم أكتب ما يخرق جدار الصوت..

- وهل هذا شرط..؟

- أنا أراه شرطاً..

قالت بيروشكا:

- بودي أن أقرأ يوماً ما تكتب يا كرم..

- لا شيء متميزاً.. ولا شيء يغري..

قالت الصديقة:

- الآن صار الأمر واضحاً.. أنت كاتب، ولأنك كذلك تريد أن

تبقى حراً.. أن تسافر، ترى، تجرب.. وإقامتك.. في الجبل، نوع

من التجربة .. وهذا اللقاء ، اليوم ، جزء من التجربة .. أليس كذلك ؟ إنك تعتبرنا ، صديقي وأنا ، فأرتين في غرفة تشریح .. قريباً تسرنا على قطعة خشية . وفي قميص ابيض وشرط حاد ، تقوم بالاختيار اللازم على جسدنا .. هل انا مصيبة .

- ليس غاما ..

- كن صريحاً ..

- انت تخومين ، كتحلة في الربيع ، حول زهرة بعينها .. أنا سأقدم لك هذه الزهرة .. سأشفي غليلك إذا استطعت التعبير عن نفسي .. لست صياد تجارب ولن أكون .. أدع التجربة تحدث لذاتها . أترك المعجزة تفرض نفسها على الواقع .. حتى الآن ، لا تجربة ولا معجزة .. لا أركض وراء قصة حب ، ولا أخفي نية مبيتة .. يمكنك ، من هذه الناحية ، أن تكوني على غاية الاطمئنان ..

قالت بيروشكا :

- أنا لا أهالي . في علاقتي بالناس ، بالمقدار الذي فيه تجربة ، أو فيه نفع خاص . وسأكون سعيدة ، لو جاءني يوماً رسام وقال لي : « أريدك موضوعاً للوحة » . إذا كان لدي ما يفيد لوحته فهذا شيء جيد ، إذا كنت قادرة على إلهامه صورة ما فهذا حسن .. لا أعتبر ذلك قنصاً ولا خديعة .. كل تجربة ، فيها فائدة لطرفين ، شريطة ألا تكون مفتعلة .. من جهتي أحب التجارب ..

قالت الصديقة :

- هل هذا لأنك تحاولين ان تكوني شاعرة ؟

- لا .. لأنني إنسانة وكفى ..

- لاحظي أنك تقدمين نفسك كفتاة بالغة الاعتدال ..

- وما المانع ؟

- في هذه الحال أشرب نخب ثقتك الكبيرة بنفسك ..
قالت بيروشكا ضاحكة :

- لكن دون غرور . أنا قادرة أن أحدد ما أريد وأن أطلبه أيضاً ..

- وماذا تريدن ؟

- لا اعرف بعد .. لدي إحساس .. لكنه ككرة ما زالت تحت تلج رأسي ..

- هذا تعبير شاعري ..

- ربما .. ما تقصدين ذلك .. وأحسب أن كرم يوافقني ..
قال كرم :

- كل رغبة مضرة ، يسبقها إحساس يكون مبهماً في البدء .. الإنسان المجري ، النطقي مع نفسه ، هو القادر على اتخاذ موقف من إحساسه حين يعلن عن ذاته في صورة رغبة محددة .. بيروشكا صريحة ، وعلى حق ..

قالت الصديقة في غير جهد لإخفاء انزعاجها :

- هذه مجاملة ..

قال كرم :

- بل تعبير عن إعجاب ..

- لكل شيء ثمنه ..

- وإذا قلت لك إنني لا أتطلع الى أي ثمن ..

- أصدقك .. لكنك ، عندئذ ، تكون في النادرين .. أو لديك مانع ما ..

- قصة « مانع ما » هذه قلتها سابقاً .. حين سألتني عن السبب

في عدم زواجي حتى الآن.. لست ملزماً بالنفي.. قد يكون هناك مانع ما.. لكنه يختلف عما تتظن..

- بوهيمية فنان إذن.. إذا لم أقل أكثر.. هل لي أن أطلب كأساً أخرى من هذا النبيذ الصيني؟
قالت بيروشكا:

- لا تسرفي في الشرب.. إننا في جو بهيج.. ولنا طرفين متقابلين.. نحن أصدقاء.. لنشرب، مرة أخرى كأس صداقتنا..

فكر كرم في نفسه: «هل أثرت غيرتها.. بجلي الزائد الى بيروشكا؟ في هذه الحال أكون غطشاً.. أسوأ ما يصادف الرجل أن يكون، في جلسة كهذه، بين امرأتين.. لو كان لها، هي أيضاً، صديق هنا.. كان تؤثرها الداخلي أقل.. بيروشكا قالت لها: «لا تسرفي في الشرب» هذا سيؤدي بها الى مزيد من العدوانية، أو إلى السكر السريع.. فمة شيء غير مريح لها.. يترجم عن نفسه في هذه المناكدة المستمرة».

شربوا كؤوسهم بشهية ونشاط، هم كرم ان يقول شيئاً.. روت بيروشكا طرفة ضحك لها كرم وحده، اما الصديقة فقد استأنفت ما حسبوا ان الكأس قد صرفتها عنه. قالت:

- اسمعي يا عزيزتي بيروشكا: اشكرك على تنبيهي إلى عدم الإسراف في الشرب، إنني، في الحقيقة، أحس بالانسجام مع نفسي.. أرغب أن أشرب ما دام صديقنا كرم قد تملّط ودعانا. وحتى لو سكرت، ماذا يعني هذا، أنا أيضاً كما قلت أنت، أنا هنا ما دام لا خطر.. قد لا أكون شاعرة، وبعبدة عن دراسة الادب بحكم ميلي العلمي، لكنني أستمع بصحبة روائي.. وشاعرة!

قال كرم مدارياً الموقف:

- أشكرك، يا عزيزتي، على هذه الالتفاتة.. من جهتي أكون مسؤولاً لو تذوقنا أنواعاً أخرى من الشراب.. لا أحب أن نتذكر بأنني مضيف وأنكم ضيفتان.. أحب أن الصداقة التي شربنا كأسها منذ قليل، قد ألغت هذه الشكليات بيننا.. أنا صديقك، مثلما صديق بيروشكا...

سمعت تعاريفي بأكثر مما يجب.. ما أردته هو التالي: بيروشكا، وبصداقة محنة، تعرّفت اليك في المقهى، منذئذ ومني تنصرف بحق هذه المصادفة.. هي تعرف أن لي صديقاً، ولا أفكر، حتى مجرد تكبير عابر، أن أصرفك عنها الى نفسي.. كن من شئت أن تكون، فلتست معنية بأمرك، لكنك وأعدرتني على صراحتي، لست من النوع الذي أفهمه.. انت غامض، غامض، غامض.. هذا المنحرف ليس إلا فخاً.. أعرف أنك لم تنصب هذا الفخ، لكن هناك طيوراً كثيرة مهياة لأن تقع فيه، وبيروشكا تجازف إذ تثقك ثقتها من اللقاء الاول. لا أريدها أن تكون صيداً سهلاً الى هذا الحد..

قالتها وأضافت:

- أشكرك يا بيروشكا، على ترجمة كل أقوالي بأمانة..

ساد صمت بعد هذه الكلمات.. انسحبت بيروشكا عن المائدة. ظل كرم جالساً.. راح ينقر بأصابعه على الخشب.. قال في نفسه: «هذه الفتاة ذكية بعد كل شيء.. ذكاؤها من النوع المحسوس أفدت الجو بغير مبرر.. حققت ما أردت، لكن ما ذنب بيروشكا؟ على ناغذقي، تحط كل يوم بامامات صغيرة، جميلة.. أنثر لها الحب، وأضع لها الماء.. بيروشكا ليست بعامية. أنا لم أضع لها طعاماً.. لست صياداً على النحو الذي فكرت فيه.. لست غامضاً الى الحد اللعين الذي

تصورته . أنا لست في الغربة لاصطياد بمات من أي نوع .. صديقي البارمان فرانتس ، قال لي : « لا تكن غريباً مع النساء المجرىات » حسناً هاهي غجرية مجرية مع رجل عربي .. تهاجني ، تهمني ، وتصدر حكماً علي .. بينا كان ذلك بفعل السكر ، لكنها لم تفقد الوعي .. أنا لا أستطيع ان امنع عنها الشراب .. ولا أستطيع أيضاً ، أن اقف الى جانب بيروشكا ضدها .. لا أريد ، منذ اسوعي الاول ، خصاماً من هذا النوع .. علي أن أحمل .. أن أداري الموقف ، وحين تنصرفان ، أكتب صفحة في يومياتي أقول فيها : إني علي زعمي بمعرفة المرأة ، لم أعرفها كما يجب بعد .. لكنني ، بعد هذا ، لست هنالك أدرس المرأة .. أنا طير مشرد .. طير مهاجر ، وغداً عندما يبدأ موسم العودة عندما تسمح الظروف ، اعود الى وطني .. لا أريد البقاء ولا الارتباط ولا أية علاقة عاطفية .. لقد عجزت عن هذا طوال سنوات مضت .. المعجزة بالنسبة لي ، لم تحدث بعد .. الحنين للعين المجنون يعيش في داخلي ، يؤرقني ، يعذبني ، ولكن لمن ؟ بيروشكا ، مها كانت العلاقة المقبلة بها ، لن تكون إلا علاقة عابرة .. علاقة قد تكون كبيرة ، حميمة ، لكنها ليست هي المرأة التي تلاءم كياني ، تعطيه شطره الآخر الضائع ، الذي لا أعرف أين .. ثم فارق العمر ؟ أحب ؟ أخادع ؟ أنلعب بقلب بفتاة صغيرة ؟ وماذا نكون النتيجة ؟ الزواج ؟ كيف ؟ العشرون عاماً بيننا ؟ إني أدخل مناهة .. علي أن أتوقف قبل أن أوغل فيها ، وقبل أن التزم بعهد لا سبيل الى الوفاء به .. »

نهضت الصديقة وذهبت الى بيروشكا في غرفة المكتب ، لم يلحق بها ، تركها وحيدتين .. صب ما تبقى في زجاجة النبيذ وراح يترشفها على مهل .. وحين نادته بيروشكا ، وقد صالحتها رفيقتها ،

وعادت الابتسامة الى وجهها ، كان أثر الدمع ما يزال في عينيها .. طلبت عليه سكاير « كنت » فتح الخزانة وقدم لها علبة ، وأخرج « كروسين » اهدى كلاً منها واحداً جلس بدخن دون أن يقول أية كلمة ..

قالت الصديقة وقد نهضت :

- الآن أستطيع أن أودعكها .. لقد تأخرت ..

قال كرميو

- سأتي معك ..

وافقت بيروشكا :

- نقوم بنزهة صغيرة .. أشعر بحاجة الى الخروج .

ركبوا سيارة أجرة من أمام نادي الصحافة ، انطلقت بهم الى العنوان الذي أعطته الصديقة فلما ودعت وانصرفت قالت بيروشكا :

- كرم ! انت لست غاضباً من تصرف صديقي ؟

- أبداً ..

- قالت أشياء سيئة ..

- هذا لا يهم ..

- كنت طيباً معها على كل حال ..

- وهذا ما يجب ..

- وكنت طيباً جداً معي ..

- لا تقولي هذا .. انت صديقة عزيزة ..

- أنت لا تريد شيئاً مني ؟

- لا شيء ..

- لماذا كل هذه الوليمة إذن ؟

- بمناسبة تعارفنا ..

- لا أشعر بحاجة الى النوم..

- ولا أنا..

- لنعد الى بيتك إذن..

- بل الى الكلية..

- أنت لا تريدني إذن..؟

- أريدك جداً.. ولكن بالنسبة الى اليوم يكفي.. عودي الى

كلبك.. أعطي العنوان للسائق..

- هذا قرارك الأخير..؟

- نعم.. بالنسبة لهذه الليلة..

- قبلي إذن..

- سأفعل عندما تصل..

ترجلاً امام باب الكلية.. وحين ألقت بنفسها بين ذراعيه،

كانت سعادته بالغة، لقد داعبت يده ذلك الشعر الذي افتنن به،

ويكثر من الحنان قبلها في خدعها قائلاً:

- ليلة سعيدة يا عزيزتي!

- ٦ -

كلها الفضيلة، حين لا تشد ذاتها، وتكون الرذيلة مرفوضة بعقل
بارد، يكون العفاف، حين تفرضه على انفسنا، مدعاة لألم شديد..

كرم رفض اقتراح بيروشكا أن تأتي معه الى البيت، لاذ بشفقة
من التسامي، وأثر أن يتألم هو، على أن تتألم هي، حين تكتشف،
في الأيام التالية، أنها تسرعت، وأسلمت نفسها إليه من اليوم الأول
للتعارف..

هذا منطق عقل لا منطق قلب، تحليل لإرادة لا عاطفة. لقد
كبت عاطفته وعليه أن يتحمل عذاباً بغير ضرورة.

بعد أن عاد الى البيت شعر، فجأة، بفراغ.. هل ندم لأنه لم
يرض ببقاء بيروشكا؟ ربما.. كان يمكن أن تبقى، وأن يحيطها
بالاحترام، ويصونها، ويحافظ على مسافة الصداقة البريئة بينها..
لكنه، في نزوة كبرياء، رفض، الأصح خاف التجربة..

وقف الى النافذة، كان القمر في ليلاليه التي يكتمل فيها ضوءه
المنتشر في سماء صافية، يعطيه رحابة كون، يزيد بهاؤه على نحو غير
معهود. وكان إحساسه، بهذا الضوء، ينبع، ويمتزج، بإحساس آخر،
بهيج، بسبب من أنه استشف الليلة، في نظرات امرأة، معنى وجود
جديد، موقر..

وعندما ارتدَّ عن النافذة، وضع شريطاً جديداً لفيروز. أصغى طابت نفسه، صباً كأساً من السينزانو، برَّده بقطعة ثلج، استشر رغبة في الكتابة، مقرونة بحماسة غير معهودة، ومشاعر غير معهودة أيضاً، لكنه، في محاولة لاكتشاء الانطباع الذي خلفه في يروشكا افترض أنها تستلقي على سريرها الآن، حاملة بما لا يدري، وهذا السؤال يراودها «من هو كرم المجاهدي هذا؟ وأية يد مجهولة دفعت به من الشرق الأقصى، بأنجاه بودابست، وجمعت، على غير ميعاد، في مقهى «ام كي»؟ وقال في نفسه: «إنها تجهل من أنا، وهذا ما يجبرها ويثيرها في أن».

كان سعيداً كما لم يكن في أي ليلة سابقة، ومرتبكاً، لعجزه عن تحرير قراره عاطفياً، وكان جديراً وراغباً في أن يعود الى يروشكا ويدعوها للسهر الى جانبه. لكنه، لأمر ما لعلها الرغبة في تعذيب النفس، رفض مقايضةً تجعله غجرباً كما قال له البارمان فيراتس. قال في نفسه: وليمة مقابل ضجعة؟ لا هذا سلوك خبيث.. قد تأتي الضجعة، لكنني لا أريدها بدلا، بل نكرمة، خلعة إمامة. منحة أميرة من بلاد الدانوب، غير أن شيئاً، مقابل شيء، يحيلني الى تاجر مبتذل.. إنه، هنا، ليس للتجارة. ومنحفه لن يكون فخاً، وسلوكه لن ينحط الى درجة التفرير بأبما فتاة.

صاحب مبدأ هو، ومن أجله، ذات يوم نشرده عن وطنه البعيد: عرف الجوع، نام في محطات المترو اختبأ تحت جسر ليشتي البرد والعيون، رحل، لا مال، لا عمل، لا بيت، لا حقيبة سفر.. خمس من السنوات مضت، خمس طوال، سنوات منفي، والوطن صرة مشاعر، والآه في القلب، حسرة، والشمس تعرف، والقمر يعرف، وهو ينسم، لأنه مكتوب، من شاء الارتفاع على الشدائد، عليه أن

ينسم، إلا أن الاسى نهر، ومن يمنع النهر، أن يشق مسيلاً في الصدر؟ وكان المسيل سؤالاً معلقاً في فضاء الأيام: لماذا؟ وفي الجواب بيت من الشعر: من الذي، في الحب كسا اديم الوطن؟ والمكافأة منع وحرمان.. «أيها الوطن، ياصرة مشاعر ندية كالنجر، صافية كدموع الطفل، ماذا جنيت أنا؟».

في الصين مات إسباني مهاجر.. ثلاثون عاماً من الغربة والتشرد ثلاثون عاماً من الكفاح ضد قاشية فرانكو وأخيراً توقف القلب. التابوت على طاولة خشبية والعلم الإسباني على التابوت. ومهاجرون مثله منقبون مثله، تجمعوا حول النمش، وبهاية عزف النشيد الأممي، ردده الذين احترقت قلوبهم على شفاههم، ثم تقدمت الزوجة، رفيقة النضال والغربة، وتناولت وردة عن التابوت.. هذا كل ما بقي، وهذا ما سوف تحمله يوماً، الى الوطن.

لقد اعتزم كرم ان يسهر الليلة وحيداً. فيروز غنت له في وحدته.. ومن فضاء الغرفة أطل وجه المناضل الإسباني: «أنا لم أمت يا رفيقي. أنت، وهو والآخر، والآخرون.. وشعبي، هناك، ووطني، والدنيا، والرفاق» وقال في نفسه: «من أجلهم، هؤلاء الشهداء، ومن أجل الأحياء، يجب أن نمضي، وأن نعمل».

في الصين لم يستطع أن يكتب، النبذة لا تعطى إلا في أرضها. صحيح أنه تسلى جمع تحفاً، اختزن حنيناً.. لكنه لم يكتب، وهذا ما أرقه، ثم مشى به الشوق في طريق العودة. طريق الاقتراب من الوطن أكثر.. وهاهو في بودابست.. لا يتقصه عمل، ولا بيت، ولا مال.. بل شيء اثمن، لكنه مجهول، يغير اسم وهو يريد أن يجد له اسماً، أن يعرف ما هو، وما سرُّ هذا النزوع الاكتشافي، الذي يفسد عليه سعادته، كلها أصبح وحيداً.

فَكَرَ: «هل العربة هي مصدر هذا الإحساس بالقلق، أم أنني قلق بطيحي؟ لم أعرف الهدوء في الصين، وظنيت أنني لن أعرفها في البحر، برغم هذا الجو من الحياة الاجتماعية الغنية التي أنا مقبل عليها، وهذه العاطفة التي تبدت اليوم في عيني يبروشكا».

ظلّ يروح ويحيي في الغرفة، بين المدخل والتافذة. كانت الحديقة تلي ذلك. كانت مستطيلة، مسيجة بشبكة حديدية، ذات أشجار باسقة، وفيها زهور، وخضرة وملعب للكرة الطائرة، وعشب، وفيه، وفي ضوء القمر، كانت ظلال أشجار تعطيلها جواً من المهابة، وسط الصمت وانعكاسات الأضواء من النوافذ، وورقة الحديقة التي تتنفس عبثاً صيفاً خاصاً وفاغماً.

هنا، في هذا البناء المؤلف من ستة طوابق، كان عليه أن يعيش، أن يكتب، مكثراً روايته التي بدأها في الصين وأكملها. منذ الأيام الأولى لوصوله، لفته أن سكان البناء خليط من أجناس جمعهم العمل في الإذاعة أو الجامعة. وكان في الطابق الأول والطابق الأرضي، ثلاث أو أربع من العائلات العربية، زارها عائلة عائلة، بعد أن جاء الرجال، ليلة وصوله، وسلموا عليه. وكان جاره، في الطابق الرابع، إيطالياً موفداً للعمل في القسم الإيطالي من الإذاعة. ومقابلته، على طرف القوس المستطيل للباحة، يسكن رجل إنكليزي وزوجته، وثمة، في الطابق نفسه، عائلتان، إسبانية وتركيا، وكان رب العائلة التركية مهاجراً مثله، فُرض المنفى عليه فرضاً، فهو يعمل في القسم التركي، ويشكو الربو، ويكتب قصصاً قصيرة، وقد احتفى به حفاوة غير قليلة، لأنه يعرف التركية، وتجمع بينهما صلات الفكر واللغة.

لهذا حين طرق الباب، في نحو العاشرة، حسب أن الطارق هو

صديقه ضياء التركي. ولقد سرّ بذلك، فهذا الإنسان، رقيق الحاشية، المريض. كان فيه شيء من الأبوة. كانت طبيسته، بوجهه المريح، وشاربيه المتهلكن على فمه، تمنح صداقة صدوقة من الوهلة الأولى، وقد اعتزم كرم أن يقصّ عليه ما جرى معه الليلة، غير أن الطارق لم يكن ضياء التركي، بل حسن الإيراني، وكان حسن هذا شاباً في نحو الأربعين، رياضياً، خلوقاً، تعرّف عليه في الصين، ثم هاجر قبله إلى البحر بعد أن تزوج صينية، وله منها ولدان، كان حسن من تبريز. ومن ضباط الجيش، وقد هرب من إيران، إثر الانقلاب الذي وقع على مصدق، وذبح فيه الشام مناضلين تقدميين كثيرين، وبينهم ما لا يقل عن ١٥٠ ضابطاً في الجيش، حسن غما بأعجوبة، استطاع الوصول عبر الجبال، إلى أذربيجان السوفياتية، ومنها إلى موسكو حيث درس وحصل على الدكتوراه، لكنه، لإجاداته التركية، كان يدرس لغتها في الصين، ثم في بودابست بعد ذلك.

دخل حسن دخولاً صاعباً كعادته. وبلغة عربية، ذات لكمة فارسية، صاح وهو على الباب:

- السلام على أمة العرب..

ردّ كرم:

- وعلى أمة المعجم السلام..

قال حسن:

- ليس هكذا يا صديقي.. لا تقل أمة المعجم... هذه كلمة

سيئة.. قل أمة الفرس..

قال كرم مازحاً:

- طيب.. ولكنك من المعجم يا حسن.. لماذا تنكر؟ لغتك

العربية تفضحك..

- أنا أتكلم العربية على طريقة سعدي الشيرازي..

- سعدي كان يفتن العربية، ونصف أشعاره فيها..

- هذا دليل على أننا أمة ذات حضارة..

- لكنك أنت تترى لا أكثر..

- وهذا التري جاء لدعوتك الى سهرة في جزيرة مارغريت..

وصاح كرم دهشاً:

- في مثل هذا الوقت؟ الساعة تجاوزت العاشرة يا حسن!

- وفي مثل هذا الوقت تبدأ السهرة.. ألا تتمدّن أنها البدوي؟

هيا.. ستكون سهرة ممتعة.

لم يستطع كرم التملّص، فانتقاد الى صديقه وخرجا..

كان الليل قد ابتدأ اكثر.. أضواء المدينة ما زالت تشع.

حافلات الترام تأتي من عدة جهات، تدور في ساحة تمتد منها طريق

الى جسر على الدانوب. صعدا الحافلة. كانت غاصة بالناس،

بودابست لا تنام. هذه ليلة الاحد، المفترض أن الذين سهروا ليلة

السبت، وهم الكثيرة، قد عادوا الى بيوتهم للراحة، مع ذلك المدينة

مزدهجة، نشطة، فرحة، انيقة. قال كرم في نفسه: «هذه باريس

أخرى» أضاف: «هذه باريس دون شانزليزيه، دون موفارتر، دون

حي لايتي، لكن لها، هي ايضاً، شوارعها، واحياؤها التي لا تقل

روعة. فوق ذلك فيها الدانوب. الدانوب الازرق.. هذا الذي لا

يعرفه إلا من وقف عليه. شاهده ليلاً.. أدرك سره في وقفة طويلة

يتكشف خلالها جماله شيئاً فشيئاً.. كانت هناك الجسور، السفن،

الأبنية، الأضواء.. والمياه تساب هادئة، تكاد لا تحس بانسابها،

لا تفهم لغتها لكنها تتكلم. مياه الدانوب تتكلم، ولغتها زرقاء، وفيها

موسيقى خاصة، مرحة، فالية، وفيها ينعكس القمر، وتشكل

تأويل لونية.. وعلى الضفتين عشاق.. بودابست مدينة العشاق وقال

في نفسه: «آه يا مدينة العشاق ما أروعك».

نزلا على الجسر. مرقاً، في الزحام، خلل الجسوم، شيئاً صنوفاً من

العطور.. وحين صاروا على الرصيف.. وجد حسن من واجبه ان

يشرح قصة الجزيرة:

- هذه الأرض، التي تشطر النهر الى شطرين، اصطناعية، أعني

لم تكن كذلك في الأصل، لم تنشئها الطبيعة.. بناها الإنسان.

مارغريت، ابنة احد ملوك المجر، رغبت ان تكون لها جزيرة.

والدها حقق رغبتها. انشأ هذه الجزيرة، وأطلق عليها اسمها..

- يا للروعة! هتف كرم..

قال حسن:

- الجزيرة في النهار، منتزه.. هنا ينتزه الناس. فيها مسبح

كبير.. وعلى العشب، من حواليه، ولمسافات بعيدة، تسلفي آلاف

الإجسام.. تسبح في الشمس.. تسترخي، عارضة اشكالاً جميلة

لنساء فائزات.. يجلب اليك أنك في الجنة.. هنا الخوريات التي

وعدنا بها.. اما في الليل، وبين الورود والأزهار، وعلى مقاعد

مشتاتة في كل أنحاء الحديقة، فلا تجد مكاناً الا بصعوبة.. حين

ترى شابين متحابين، متخاصمين يتناجيان، يتعانقان، تحشى ان

تعكر صفوها.. لا أحد يسأل الآخر ماذا تفعل.. كل زائر ينتزه

على هواء، يمشي، يجلس، يقبل حبيبته، يمارس حريره، كأنه وحيد

في الجزيرة..

قال كرم في نفسه: «لا بد أن أزور هذه الجزيرة مع بيروشكا..

ترى تحب بيروشكا جزيرة مارغريت هذه؟»

سأل:

- وهذه الأضواء ، والأبنية ..؟

- هذه مقاهي ، مراقص .. مقاصف .. الناس ، هنا ، ليسوا كما في الصين .. في صدورهم قلوب .. يعملون ، يكسبون ، ينفقون .. لا يارسون الحب على الناشف .. يبدؤون بالشرب ، والرقص ، الغناء ، ثم ، في نهاية الليل ، يذهبون إلى الفراش .. يحتمون ليهم ختاماً سعيداً ..

دخلا احد المراقص .. شرباً نبيذاً .. رقصاً أيضاً .. لا يهم أن تكون معك امرأة ترافقها ، تستطيع ان تطلب بتهذيب ، أية فتاة او سيدة الى الرقص .. ولن يزعجك أن تعتذر .. هذا مألوف .. لكن النساء لا يعتذرن .. خاصة إذا حدث تعارف .. يرقصن .. يهرن .. والمجتمع مفتوح ، لا أحد يبقى وحيداً أو غريباً .. صدق البارمان فرانتس .. سيكون جيلاً ان يتعرف الى الحياة في المهر ، أن يدخل المجتمع المهرى ، أن ينسى وحدته في المجتمع الصيني المغلق ..

حوالي الساعة الواحدة غادرا الجزيرة ، دارا حولها دورة كبيرة .. انتظرا سيارة أجرة فوق الجسر .. مرّت بها عدة سيارات ولم تتوقف .. كانت مشغولة .. المواصلات الأخرى ، الترام والباصات ، توقفت .. المترو وحده يبقى الى الصباح .. محطة المترو كانت بعيدة .. اقترح حسن ان يسيرا .. راحا يسيران ويتوقفان .. يلوّحان للتكسيات .. لكن هذه كانت غرق كالسهم .. إنها ملأى دائماً ..

قال حسن :

- ظني أننا سنعود ماشيين ..

قال كرم :

- هذا أفضل .. الليلة للسهر .. لدينا ، غداً وبعده ، وقت طويل

للتنوم ..

قال حسن :

- أنا لا أستطيع أن أتأخر أكثر .. ستقلق عائلتي .. لا بدّ من العثور على تكسي ..

منعت ساعة أخرى ولم يتوزا بأياً واسطة نقل .. كان حسن قد اقترب من بيته .. ذكر ذلك عرضاً ، عندئذ أصرّ عليه كرم ان يفترقا .. قال :

- اذهب أنت الى بيتك ..

- وأنت ؟

- اتسكع حتى أفوز بواحد من هذه التكسيات ..

- وإذا لم يخالفك الحظ ..؟

- أصل الى بيتي ماشياً ..

- لكنك لا تعرف الطريق ..

- أنا أحفظ اسم الشارع .. دُلّني على الجهة التي علي أن أسير فيها ..

- ولماذا لا تنام عندي ؟

- أريد العودة الى بيتي .. لدي شغلٌ بعد ..

لم يجد حسن ، أمام إصرار صديقه ، سوى الإذعان .. أوصله الى شارع رئيسي ، شارع الجمهورية ، وقال له تذهب بصورة مستقيمة ، وعند نادي الصحفيين تعطف الى اليمين .. هل تستطيع ذلك ؟

قال كرم

- تماماً .. الى اللقاء .. لا تنلق علي .. لن أصل الطريق ، ولن

أضيع ..

لكنه ، بعد قليل ، ضلّ الطريق وضاع .. لم يصل الى نادي الصحفيين ، ولا ميّز بين الأبنية ، فقرر أن يسأل .. أوقف اول رجل

صادقه في الطريق وسأله. كان هذا كهلاً، وبجهد أي لغة سوى
المجرية، لعل كرم لفظ عبارة «بنتزور اوتسا» بشكل غير واضح،
أو أن الرجل لا يعرف هذا الشارع الفرعي، وهكذا قُلت محاولتهما
للتفاهم..

كانا يقفان على الرصيف. ومن روائها فتح باب، خرجت منه
سيدة أنيقة، على كتفها شال، وفي قدميها حذاء عالي الكعب،
كان وقعه، في صمت الليل، يعطي إيقاعاً طروبياً.. وعندما اقتربت
منها، أوقفها الرجل الكهل وطلب منها أن تتفاهم مع كرم، وتعرف
ما يريد.. لسوء الحظ كانت تجهل الفرنسية. سألت كرم إذا كان
يعرف الروسية، فظن أن الفرع قد جاء، كان يعرف بعض كلمات
روسية.. قال لها:

- ضوما (بيت) ..

- قالت السيدة:

- دا.. (نعم) ..

قال كرم، بعد تفكير..

- نبيت (لا يوجد) كان يريد أن يقول لا اعرف.. حسب ان
كلمة «نيت» تفي بالغرض، لكن السيدة دهشت.. كيف يكون
رجل لا بيت له في هذا الليل؟.. ابتست، كان الموقف غريباً وطريفاً،
وكان الرجل الكهل قد مضى في سبيله، تاركاً كرم والسيدة
يتحاوران..

قالت السيدة وهي تضحك:

- ضوما (بيت)؟

أجاب كرم:

- نبيت (لا يوجد) ..

ضحكت السيدة من جديد، وقالت وهي تعطيها ذراعها:

- دا (طيب) ..

سارا دون أن يعرف إلى أين تقوده.. كان يحسب أنها ستوصله
إلى أحد الفنادق.. وقال في نفسه «لا بأس، أنام في الفندق.. لقد
قضيت يوماً لا تنفصه المفاجآت.. لكنه يوم لذيق على كل حال..
ضياحي، في هذا الليل ليس مشكلة.. أنا لن أخلبه إلى مأساة.. غداً
سأخبر ضياء وحسن وكل المجران بما وقع لي.. ومن يدري.. فقد
اكتشف، في بقية ليلي هذا، شيئاً جديداً، شيئاً مثيراً نموذجياً،
وهذا ما أتمنشه.. لا بأس من الضياح قليلاً.. لماذا يجب أن نعيش
حياتنا كلها ونحن نعرف سلفاً أين نمضي؟ وماذا سنلقى؟ وكيف
سنصرف؟.. اللعنة على حياة معروفة، ومحسوبة كهذه.. امض يا
كرم.. امض يا بني.. لا بد أن تجد غرفة تؤويك في آخر هذا
الليل».

توقفت السيدة بعد مسافة قصيرة. حاول أن يكلمها بالفرنسية
فلم ينجح. هزت برأسها نغيماً، إنها تجهل هذه اللغة، لكنها حسنة
فرنسياً.. وكانت تنظر في وجهه وتضحك، ومن جديد ألقت عليها
سؤالها المعبود:

- ضوما؟

وأجابها:

- نبيت..

وتضاحكت وقالت:

- دا..

وسارا من جديد..

المفاجأة كانت أنها وقفت على باب مرقص.. مردان مدخله
بأنوار ملونة، وقالت له، بإشارة من رأسها:
- ادخل..

لم يمانع كرم، تركها تتمعهده.. هنا، أيضاً، يمكن أن يسهر..
سيظل ساهراً الى أن يغلق المرقص أبوابه، وعندئذ يواجه ما
يستجد باستعداد طيب لتقبل الجهول.. سيذهب إلى الفندق، إلى
البيت، وإذا رضيت السيدة أن تصطحبه إلى بيتها ستصنع له
بهجة.. ستضع بذلك خاتمة طيبة ليلته..

تكلمت السيدة مع البواب. قالت له شيئاً بالجزيرية. كان في
المدخل كشك صغير لقطع التذاكر وبيع الدخان. أخرج من جيوبه
نقوداً أجنبية. دولار. استرليني، فرنك فرنسي، لكن قاطع التذاكر
هز برأسه سلباً. قال:

- فورنت (عملة جزيرية).

تذكر كرم أنه يحمل مبلغاً من العملة الجزيرية في الجيب الداخلي
لسترنه، أخرجها وعرضها، فتولت السيدة اختيار ورقة من فئة المئة
فورنت، وتسلم تذكرته ودخل وراءها انتفت مائدة قريبة إلى حلبة
الرقص، وأشارت له فجلسا.. قالت له ان اسمها «ارجي» لفظتها
مرة أخرى «ابرجكا».. كان هذا اسم التصغير، للتحجب، على
عادة الجزيريين، وقال ان اسمه كرم.. ورددت «ارجي» الاسم عدة
مرات حتى حفظته.

جاء النادل يسألها ماذا يشربان.. طلبت «ارجي» كونيالك..
وقال كرم «بونابرت» وفهم النادل وانصرف لإحضار الطلب،
وعندئذ سحت الفرصة لكل منهما ان يتأمل الآخر.. كانت ارجي
في نحو الثلاثين.. كانت سيدة كاملة. انيقة، ترتدي ثوباً فاخراً.

وكانت، كما لاحظت معروفة جيداً في المرقص، بدليل ما لقيت من
حقاوة واهتمام، فقد حياها كثير من الحاضرين.. وبعد وقت قصير
تقدم رجل نصف وطلب مراقبتها فرفضت.. أشارت إلى ساعتها
وقالت شيئاً ما بالجزيرية.. فانحنى الرجل وعاد إلى مائدته..

وحين أحضر النادل الكونيالك، طلبت منه شيئاً، فانحنى
أمامها، وبعد قليل اقبل البتر، وكان يتكلم الفرنسية، فدعته إلى
الجلوس، وقصت عليه كيف لقيت كرم، طالبة منه أن يسأله: «هل
حقيقة ليس له بيت؟».. وكان جواب كرم ضحكة.. لقد اكتشف
غيباءه باللغة الروسية، وأوضح ان له بيتاً، في شارع
«بيسنزور اوتسا» قرب نادي الصحفيين، وأنه أضاع الطريق إليه،
ولم يعثر على سيارة توصله أو أحد يفهم عليه..

قال كرم:

- إنني اعتذر للسيدة ارجي.. لقد كان سوء تفاهم لعين..

قالت ارجي:

- إنه لطيف بقدر ما هو لعين.. هل أنت فرنسي؟

قال كرم:

- أنا عربي.. ولي أسبوع في بودابست.. وأنا غي في شيئين:

الجغرافيا والحساب..

قال المتر:

- ولكنها مصادفة سعيدة.. نرحب بك في بلادنا.. وسنرسل من

يوصلك إلى بيتك في أي وقت تريد..

إنه قريب من هنا.. ولكنه في شارع خلفي..

طلب كرم قدحاً من الكونيالك للمير فاعتذر هذا.. لكن

السيدة «ارجي» حملته على القبول، وشربوا حين جاء الطلب،

نحب المصادقة، والتعارف.. وقال الميتر، بعد ان تكلمت ارجي،
وقام هو بالترجمة:

- انت يا سيدي، محظوظ.. السيدة ارجي فتاة.. انها كبيرة
الغنيات في مرقص مكسي هذا، وهي تعتذر منك، فقد حان دورها
للغناء.. لكنها ستعود اليك... لا تغادر المائدة..

مدّ كرم يده وصافح ارجي.. قبل يدها أيضاً.. قال إنه سعيد..
وسيكون مسروراً ان يسمع اليها، وان ينتظرها، حتى مطلع
الفجر.. لكنه رجا الميتر، ان يعينه في الحصول على باقة ورد، فقال
الميتر:

- هذا مستحيل.. نحن في ساعة متأخرة..

- بماذا أستطيع، إذن، أن أحببها..؟

ترجم الميتر، لكن السيدة قالت:

- أرجوك يا سيد كرم، أجل التحية، اذا كان لا بد منها، الى
ليلة قادمة.. (في لأشكرك سلفاً..

غير أن كرم طلب من الميتر:

- زجاجة ويسكي فاخرة، الى الاوركسترا.. تحية للسيدة
ارجي..

وحين صعدت الى المسرح، وهو عبارة عن مصطبة حنية
الديكور، غنت وهي تتجه اليه.. أصغى الى الغناء وأعجب به،
دون أن يفهم كلمات الأغنية.. كانت ارجي، الآن، في ثوب سهرة
طويل، مكشوفة الصدر، والساعدين، وعلى صدرها وردة، وكان في
صوتها شجوة، وأعلنت في ختام وصلتها، أنها ستغني أغنية أخرى،
هدية لضيف زائر في القاعة..

صقّ كرم دون أن يفهم ما تقول، لقد أشارت اليه وهذا يكفي،
وجاء الميتر فشرح له، وعندئذ شعر بسرور مضاعف، وجدّد طلب
الكوتياك، مستغنياً كيف لم يسكر، وقد تذوّق، في نهاره وليلته،
صنوفاً من الشراب.

أخيراً عزفت الموسيقى الراقصة. انتهى دور «ارجي». بذلك
ثيابها وجاءت اليه. كانت سيدة كاملة. كانت جميلة. أجل ما فيها
كان صدرها وساعديها. وحين مرّت، بين الصفوف، تلفت
الحاضرون. كانت ذات حظوة كبيرة. تتمتع باحترام ملحوظ.. وقد
أقبلت بخطو هادئ، تستعد كأيها أميرة، وحين قاربها كرم
بيروشكا، وجد هذه فتاة صغيرة، طالبة، لا تستطيع، في أية حال،
أن تصمد أمام أي مقارنة بينها.. قال في نفسه: «لقد وفقت يا
كرم.. يا لحظك الطيب! انت مولود في ليلة القدر.. ولك، في هذه
المدينة، مستقبل باهر.. أنت لن تكون، أيها الفجري، وحيداً
وعزيباً بعد اليوم.. أنت خليك بأن تتفق كل ما ادخرته في الصين،
هناك حيث لم تستطع، لا في بكين ولا مدينة الخبراء، ان تتفق
شيئاً، لأنه لم يكن مجال للإنفاقها..»

وقف عندما وصلت الى مائدته.. أي دلال في مشيتها، لغتها،
اهتمامها! وأي مجاملة هذه التي خصّه بها! هتف في ذاته: «يا
للذوق الأرستقراطي! دخلت معي الى المرقص، عدت نفسها رفيقتي،
منحتني صداقتها، رغبت ألا أكون وحيداً. هذا هو التصرف
الحضاري.. بيروشكا، يا بيروشكا، يا فتاتي الصغيرة، تصمدن أمام
هذه السيدة؟ هذه خبيرة، مجربة. هذه سيّدة.. وأنت فتاة، طالبة
جامعية. دارسة أدب، شاعرة مبتدئة، لكنك، في شعرك الجميل،
التهلّل على الكتفين، مع طيبة على صفحة الوجه، إنسانة رائدة،

غير أفي، يا بني، لن أكون جديراً بروعتك، ولن أكون خليفاً بكل هذا الاعتداد الذي يتجلى في حركات «ارجي».. إنني عجزي.. ولئنني عاجز عن الحب.. شهواني إلى درجة سمورة، ثم لا شيء.. جنّة القمر تلك، البعيدة التي لا أعرف أين، تناديني.. إنها حبي، وحبي، وعطفي الأخيرة في سفر العمر هذه.. لكنني، يا بيروشكا، لا أريد أن أموت على صدرك، ولا على صدرايرجكا.. أنا لا أريد ميتة مجانية كهذه.. إنني، يا بني، عابر سبيل، مشرد، منفي، وهذا الإسباني الذي مات، ورفاقي، في كل الدنيا، الذي يموتون، والذين، في بلدي، كان جزاؤهم جزاء سنّار.. حسناً، أنت يا بيروشكا لا تعرفين من هو سنّار.. تعرفين حكاية الخورنق والسدير.. هذه قصة عربية.. هذه قصة دخلت التاريخ.. أنا لا أعرف من التاريخ شيئاً بسيطاً، ولن أستطيع، في أيّام يوم، أن أشرح نفسي تاريخاً، أو أكتب نفسي تاريخاً.. إنني لا أعرف إلا ما عشته، ولا أكتب أيضاً إلا ما عشته، ولن أستطيع في لغتي الفرنسية الرديئة، أن أشرح أحاسيسي كلّها، يكفي أن شعرك لاس صفحة وجهي، فيها شفتاي تغبلان وجنة مسحورة، ويكفي أن شفتي، هذه الليلة، قبلنا هذه الفاتنة الرائعة ايرجكا.. أنا سأحفظ وصية البارمان فيرانس، لن أكون عجزي مع أي منكما.. ولن أكون نذلاً مع أية امرأة في هذا الوجود..»

قالت ايرجكا وهي تتأمله في شهية واضحة:

- أشكرك على التحية.. زجاجة ويسكي؟ ولكن أنتعرف كم هو غالي المشروب الأجنبي هنا؟
ترجم الميتر. قال كرم:

- هذا لا شيء.. أنت، الليلة، أكرمتني على نحو لم أحلم به يوماً.. وكان يجب أن أشكرك بطريقة ما..
كيف يقولون بالمجرية: شكراً؟
قال الميتر:
- كوسيم سيبين: (شكراً جزيلاً)
ردّد كرم الكلمة. وقالت ايرجكا:
- انفض!
- آلي لين؟
قابست:
- آلي بيتي..

الذي تطوي عليه الدعوة، لكنه بدل أن يعتد، تطامن. أدرك أنها هي المعتدة، وتولد في ذاته احترام لاعتدادها، وإحساس بانتفاء عنجهية الذكورية، وبالمساواة في القدرة على القرار، والتصرف، وتذوق «التفاحة» بطريقة صحية وبسيطة جداً.

ركب السيارة الى جانبها وانطلقا..

كانت تسكن شارع «بيضا اوتسا» في الطرف الآخر، الشمالي، للحي الذي يسكنه. لفت شالاً حريراً على عنقها، اتقاء لبرد الفجر الذي يقترب، وخوفاً على حجريها الذهبية التي هي كنزها. وفي سيارة الرينو التي كانت تنتظرها امام الملهى، قطعاً شارع الجمهورية، الى الجسر المعلق على الدانوب، ورحلا الى بودا. كانت تسوق بيدها اليسرى، ويدها اليمنى في يده، وتضحك، وهما على الشاطئ الآخر للدانوب، سائلة بغنج امرأة ناضجة، شهية، لعوب:

- ضوما؟

كرم يحبسها صاحكاً أيضاً:

- نبيت..

فتقول مرحلة:

- دا..

وتغضي به لا يدري الى أين. كانت اللغة حاجزاً بينها. كان، في ذاته، يلحن هذا الحاجر، وقالت وهي تعود به من على الجسر المعلق نفسه:

- كرم، لوبلو ايرجكا؟ (كرم تحب ايرجكا؟)

فقال بدوره:

- دا..

- ٧ -

مثلاً الرجل، حين يقتنص امرأة، تكون المرأة حين تقتنص رجلاً. الطلاء الاجتماعي، حتى في الغرب، يوشع رغبة غريزية تسبع من أعماق المرأة. إنها، في حال كهذه، لا تنتظر الآخر، أن يقوم بدور القوزاقي الذي يخطف على فرس او في سبارة، خطيته، او حبسته، وفقاً للتقاليد الذكورية. إن المرأة، في نردّها على قضبان تاريخها الخاص، وفي حطمتها ايضاً، تقدم على ممارسة ما هو من حقها كما من حقه، تخطفه، وتغرّ به الى بعيد. ولعل ايرجكا، في قولتها «الى بيتي» كانت تمزق سلفية بغزلها عنكبوت اجتماعي على نافذتها، نافذة غيرها وغيرها في القارات الخمس.. تتعامل، بفعل جسارة، مع واقع آخر، جديد، ومن منطلق التحدي، لا بصفتها فتاة، بل بصفتها إنسانة تعلقو على قيم الانسداد المتوارث، والذي، الى حد ما، ما زالت تستشعره، وتضار منه، حتى المرأة الغربية.

إنها كبيرة، واثقة، سيدة، وفي ممارسة الشرف الذي لا يחדش بالنسبة للرجل، تريد أن تثبت ان هذا الشرف يظل ذاته، بالنسبة للمرأة أيضاً، حين تحب، حين تعجب، وحين تكون حرة، صريحة، فتقول للرجل «نعال أريدك».

هذا المساء، قالتها ايرجكا بغير مواربة. فكر كرم لحظة بالمسئ

فهم كلمة الحب بالروسية ، لا يدري كيف استعملتها ، بصيغة اسم ام فعل ، ولكنه كان يعرف ان «لويلو» تعني الحب ، وادرك انها تسأله «هل تحبني؟» وحين اجابها نعم ، قالت ، كما خيل اليه : «ليس بعد ..» فضحك ، وضغط على يدها ، تاركا لمسام الجلد ، في الكف الحارة ، ان تعبر عما في قلبه من عرفان الجميل .

وحين تكلمت بالروسية اكثر ، لم يفهم شيئاً ، فقال وهو يتلعم بالكلمات :

- نزنابو روسكي .. (لا اعرف الروسية) .

- نيشيفو (لا بهم) ..

فتح دفتره الذي كان قد كتب فيه بعض العبارات المجرية ، تعلمها من طلابه ، وقال :

- شابينوش .. مجارو نيهيز (آسف .. اللغة المجرية صعبة) .

فضحكت من لفظه وقالت :

- ايكن .. شوك نيهيز . (نعم ، صعبة جداً) .

دارت به ، قرب نادي الصحفيين ، بحركة بارعة ، وانطلقت شمالاً مواجهة نسياً منعشاً ، وألقاً فجرها مبكراً . ثم توقفت رويداً رويداً ، امام مبنى ضخم ، في شارع (بيضا اوتسا) . ترجلت فترجل . فتحت الباب الخارجي ، تقدماً عبر بهو كبير ، دخلا المصعد الى الطابق الثالث ، تقدّمته وفتحت الباب ، وقالت :

- تيشيك (تفضل) .

كان البيت جيلاً ، صالون واسع . منسق تنسيقاً حسناً . يتم عن ذوق فنانة . كانت فيه بعض التحف ، وفي خزانة ، على الجدار ، صُفَّتْ أوان خزفية ، وكانت هناك ناركيطة ، لا يدري من أين اتت بها ، لكن أنها هدية من معجب عربي .. ولقد سرّ لرؤية الناركيطة ..

ثم فيها رائحة عربية . توقّف عندها . كانت خالية من الماء ، لم تستعمل أبداً ، وكان هيكلها من الخشب ، ولها نربيش أحمر . تناوله ، رفعه الى فمه . وسعها تسأله بالمجرية :

- سيب (جيل) .

- جينيري .. (رائعة) .

صفقت وهي تضحك .. قالت عبارة مجرية ، فهم منها التالي : «ها أنت تتكلم المجرية» . وقال في نفسه : «سأتعلمها من غير شك .. إذا كان عليّ أن أقيم في المجر لمدة لا أعرفها الآن ، فإن عليّ أن أتعلّم المجرية .. وسأفعل ذلك منذ الغد .. ولكن يكف تنفاهم ، ما تبقى من الليل ، وواحدنا لا يعرف لغة الآخر ..؟ نصمت ؟ نكتفي بالنظرات ؟ ننام ؟ أنام هنا في الصالون وتنام هي في غرفتها ؟ تعترفني ضيفاً لديها حتى الصباح ؟ لقد ذكرت كلمة «الحب» ..؟ ربما كانت تسألني هل أحبها .. من غير المعقول أن تصدق أنني أحبها .. الحب لا يكون بهذه السرعة ، بهذه السهولة .. وسأكون كاذباً ، لو قلت لها أحبك جاداً .. كنا نزرع ونحن على ضفة الدانوب .. المصادفة العجيبة تعطي طرافتها . لكن الحب فوق الطرافة .. أحسب أنها مثلي ، تخفي مع نزوة عابرة ولديها المصادفة لا أكثر ..»

كانت قد استأذنته ودخلت لغرفتها ، فلما عادت كانت تحمل قاموساً ، من الفرنسية الى المجرية . وقالت وهي تضحك :

- فرنسوسكي نيهيز (الفرنسية صعبة) ..

وقال مجارياً :

- ايكن (نعم) ..

تناول القاموس منها ، القاموس الذي تتعلم منه كلمات فرنسية ، وراح يقلبه ، شاعراً بالسعادة لأنه يستطيع بمساعدة هذا القاموس ،

ان يتفاهم معها... وأشارت الى زجاجات على مائدة صغيرة:

- كوتياك؟

أجاب:

- فينو (نبيذ)...

كانت الليل، بالنسبة اليه، قد اوشك على نهايته. أحس بتعب وعزوف عن المشروب القوي. اقترح النبيذ وفي ظنه ألا يشرب سوى قدح واحد، ربما تأذن له أن ينام، او ينصرف عندما يطلع الصبح... لكن الليل، بالنسبة اليها، كان قد بدأ الآن... خلال العمل، وقبل الغناء لا تشرب إلا قليلاً... ترفض الشرب والرقص الا في حالات نادرة، ولكن حين تعود الى البيت، وحدها او برفقة صديق، او تكون في سهرة خاصة، فإنها تشرب حتى تنتشي... تتحرر من التزاماتها عندئذ تخرج من جديتها، تعطي نفسها بكرم للتمتعة...

أحضرت زجاجة نبيذ «توكاي» كان قد عرف ان هذا اجود نبيذ في المجر، أحضرت كذلك مفتاحاً للزجاجة ورجته أن يفتحها، فيما كانت تحضر صحناً من «السلامي» المجرية الشهيرة أيضاً. جلست الى جانبه وشربت نخبه. شربت جرعة كبيرة... ثم نهضت ومضت، وسمع الباب يغلط من الداخل. قلّكته الحيرة. عجز عن تفسير سلوكها. لقد آمن، بما رآه في الملهى، انها فتاة محترمة، لكنه، هنا عاوده الشك. قال في نفسه: «كيف اتصرف؟ اعتبر نفسي ضيفاً؟ صديقاً؟ عشيقاً؟ زبوناً؟ ماذا أقدم لقاء هذا كله؟ هل عليّ أن أدفع نقوداً؟ تكون من اللواتي يأخذن نقوداً؟ تكون فوق هذا المستوى؟ فتاة هي، كل ما في تصرفها يدل على اعتداد بالنفس، بالفن، بالزهو الداخلي، وفي حال كهذه، قد أرتكب حماقة بعرض نقود عليها؟ الهدية تليق... لكنني لأحمل اي شيء يهدى... الأفضل أن

أترى... ما دام الموقف يتحدّد في النهاية، والنقود، في حال تعاطيها، تُدفع في النهاية. إن لدي وقتاً للتفكير وللتنصرف بشكل سليم لا يجرح... أنا لا أريد ان أجرحها... هي لا تعرف من أنا حتى الآن. لم تسأل حتى عندما كنا في الملهى، وكان المير يترجم بيننا... هذه الناحية لم تولها اهتماماً... رأيت نقودي فقط حين أخرجت النقود لأدفع عن تذكرة الدخول، رأيتني أحمل مبلغاً كبيراً، غرها هذا؟ اعتبرتي زبوناً دسماً، ولكن ماذا لو كان هذا ظناً؟ إن بعض الطن إثم... معها يكن، وحتى لو أرضتها طرافة اللقاء وأريحية الموقف في الملهى، فأنا لست بالشاب بعد كل شيء... لست ذلك الفتى الذي تعربها فتوته... لست صاحب المكانة الذي تستهويها مكانته... ثم لست فتاة... ولا تعرف أية تفاصيل عن وجودي في بودابست. ومن المرجح انها تعتبرني سائحاً... هذا هو السبب. السباح يشكلون إغراء... وخاصة إذا كانت لديهم وفرة من النقود... أنا لست إلا سائحاً... يا كرم، يا بني... أيها المشرّد، أنت سائح في بلاد السباح الجميلة هذه... تنق... اشرب قليلاً، لحامل على نفسك... لا تدع التعب يسيطر عليك، لا تدعه ينحدر في أحضانك... كن لطيفاً، كن مهذباً... حاذر أن تتصرف كعجري مع امرأة فتاة...»

عادت اليه وقد أزال بعض «مكياجها». قدّر أنها تخلصت من «بيروكة» الشعر المستعار، مشطت شعرها الحقيقي ورددته الى الوراء، ربطته بشرط ينفسجي ربطة «ذيل حصان»... ارتدت «روب دي شامبر» جيلاً، أخفت محاسنها تحت المعطف البيتي، جلست الى جانبه وهي تبسم بشريا لحباً جديداً. كانت ظمأى الى الشراب، كانت نعمة هي الأخرى، كان السهر الطويل الدائم قد أعطاها طابعاً محدداً: الإرهاق والشبق، وفش في القاموس عن

بعض الكلمات، وأشار إليها فابتسمت.. كانت العبارة تقول:

- متى تنامين؟

وبالطريقة ذاتها اجابته:

- نهراً..

- الى ما بعد الظهر..؟

- بعد الظهر للعزف (وأشارت الى بيانو في طرف الصالون)

والغناء.. فترة تمرين، وحفظ للأغنيات الجديدة.

سألته:

- وانت.. متى تنام؟

- ليلاً طبعاً، ولكن في وقت متأخر...

- هل اعجبتك بودابست؟

- كثيراً..

- منذ كم أنت فيها؟

- منذ اسبوع..؟

- لديك أصدقاء؟

- بعض الأصدقاء..

- بينهم صديقة ولا شك..

- ليس تماماً.. تعرّفت الليلة الى فتاة جامعية..

- تحبها؟

- ليس بهذه السرعة.. ليس من اللقاء الاول؟

- ولماذا اخترتها صغيرة؟

- أنا لم أختارها... تعرّفت إليها في مقهى «إم كي»

امتعضت.. أشارت إشارة رفض.. قالت:

- هذا مقهى سيء.

- لا أدري.. كل ما في الأمر أنني رأيتها وحيدة، وتعرّفت إليها..

- احذر..

- لماذا؟

- على هذا المقهى تتردد عاهرات.

قالتا وشربتا.. جاراها في الشرب. فكر: «نكون يبروشكا

عاهرة؟» شعر بأسف.. بحيرة أمل.. استغرق في محاوره نفسه. قالت:

- هل أغرتك لأنها صغيرة؟

- ما أظن..

- في مثل سنك يحب الرجال الفتيات الصغيرات..

ران عليه ظل من كدر.. التذكير بالسّن لم يرق له. هو كهل لا

شك. كهل في الأربعين، لكنه لا يبحث عن الفتيات الصغيرات..

أخذ القاموس منها وبحث عن الكلمات. قال:

- والنساء، حين يتقدمن في السن يحبن الفتيان الصغار..

هزت رأسها نفياً.

- انت مخطيء..

اصطنع كرم ابتسامة واجاب:

- ربما..

شربت كأسها، سكبت ما تبقى في الزجاجه.. ولما فرغا منها

امسكت بيده ومشت به الى غرفة نومها.. كانت قد كشفت الغطاء

عن السرير. أرخت الستائر. تركت مصباحاً صغيراً احمر مشتعلاً..

أحضرت زجاجة «توكاي» أخرى وقد حين نظيفين.. أعدت، في

غرفتها، وليمة للجس.. وقال كرم في نفسه: «هذا ما كنت

أتوقعه.. أنا لست إلا زبوناً في نظرها.. حسناً إمض يا بني في اللعبة.. تذوق «الطعام» المهرى تذوقه من «طبخ» سيدة بهمة الأناقة المترفة، والى جهنم بكل الحسابات الأخرى».

ترعنت المعطف عنها فبذت فارعة نافرة الصدر، رخصة الساعدين، وصدرها الأبيض، وقوامها كله تحت «الثلجة» الشفافة، يعطيها الآن رشاقة، نضارة إثارة غير التي كانت في وجهها.. استلقت على السرير.. جلس هو على حافته بكامل ثيابه. صباً قد حين. شرب، هذه المرة قدحه كاملاً.. لقد استثارته.. نادته بكل مكان من اللذة فيها: صدرها، ساعداها، فخذاها، عيناها اللتان اغتملتا.. فهم النداء تشرّبه من كل مسامته. ضغط على أعصابه كي يبقى هادئاً، قال في نفسه: «علي أن أخرج تاجحاً من هذا الامتحان» ثم تذكر قول البارمان فيراتس: «لا تكن غجرياً». وقال في نفسه: «إلى المحيم بتصيحتك يا فيراتس.. أنا لن أكون سويدياً بارداً منطقتاً من الإدمان على الكحول.. سأنصرف، الليلة، وفق قانوني.. الأفضل ألا أكون عنيفاً.. لكن ماذا أفعل إذا كان العنف كاللعنة في دمي؟»

أخذ يدها وقبلها. قبل زندها قبل ساعدها فضحكت وقالت محدّرة:

- كرم!

وقال:

- ايرجكا..

وتعانقا.. قبلها، هذه المرة في قمها. قبلة طويلة، عنيفة، وكشف، بيد مرتجفة، عن صدرها، لكنها نهت عن الضغط على نهديها. كانت حريصة على عفوانها.

شرباً أيضاً.. انتهت الزجاجاة. نضجت قطعة «البيفتيك» الشهية. كانت ايرجكا قد بلغت مرحلة السكر، ونجاوزت، في اندفاعها، مرحلة العقل، جئت.. عيناها تراءى فيها نثار لمعان كالومض... وكان كرم يرتعش وهو يشم عطرها. بعد ذلك لم يدر كيف تخلّص من ثيابه، وحين قفز إلى السرير واحتواها، اعطته نفسها بسخاء..

في الصباح نهض واغتسل.. ظلت هي مستلقية. نامت نوماً قصيراً واستيقظت حين كان يغادر سريرها. ابتسمت. كانت عقدة «ذيل الحصان» قد انحلت، وانفلس شعرها، وكان جسمها المشوق، الأبيض، على توشحة وردية، ممدداً على ملوله، وكان الغطاء مرفوعاً. فالحنى عليها وقبّل سرّها.. ضحكت وقد دغدغتها شفتاه، قالت:

- كرم!

وأشارت إشارة مؤداها: يكفي..

وجاءت اللحظة الحيرة بالنسبة لكرم، ماذا يفعل؟ ماذا يترك لها؟ كيف يتصرف؟... جلس وأشعل سيجارة.. فكّر.. أمعن في التفكير.. نظر إليها. رآها تراقبه.. كانت ترصد حركاته من طرف خفي. هرع إلى الصالة. احضر القاموس. بحث فيه عن بعض الكلمات. عرضها عليها:

- ماذا يتوجّب علي؟

أخذت القاموس وانتقت كلمة:

- أن تدفع.

مدّ يده إلى جيبه، أخرج نقوداً وضعها على الكومودينة قرب السرير.. نظر إليها وهو يهم بالخروج. كان وجهها مريداً.

قفزت من السرير عارضة. امسكت بالنقود وتفرست بها طلبت أيضاً. اعطاها. طلبت مرة اخرى. ناولها ما معه. طلبت للمرة الثالثة. أخرج ما تبقى، وهي نقود مجرية. جمعتها كلها في حفتيها.. ابتسمت.. لم تقل شيئاً. اقتربت منه رفعت كفيها لتصفعه. كان اسرع فأمسك بيدها. احتضنها. أخذ النقود وأعادها الى جيبه، انحنى امامها، ضاماً كفيه على الطريقة البوذية. قال:

- شينوش (أسف).

قبلها.. قبلها.. داعبت رأسه. قالت:

- لوبلو (احبك)..

عاد الى تقبيلها.. قالت:

- أدريس.. (العنوان)..

كتب لها عنوانه كما حفظه (بنترور اوتسا، ١٩، الطابق الرابع، السكن ١٠).

قالت:

- كوسيم سيبين (شكراً جزيلاً).

قال:

- متى أراك..؟

- عندما تريد..

- سرفوس (وداعاً).

- فيسونت لا تاشرا (الى اللقاء)..

كان الوقت ضحى.. وكانت الحركة صاخبة في الشوارع.. سار باتجاه بيته.. دخل الباب خجلاً. رآته البوابة. ابتسمت، عرفت انه لم يتم في منزله. لم تقل شيئاً. لا دخل لها في هذا.. مهمتها أن تحول بين البناء والغريب.. كرم يعود وليس معه غريب.. أسرع الى

غرفته.. أغلق الباب وانطرح على السرير. كان بحاجة شديدة إلى النوم. قرر الا يفتح الباب لأحد، وظل نائماً الى العصر..

تناوب على تحريكه وجهان قرضا نفسيهما بقوة. وجه بيروشكا ووجه ايرجكا. كان في حالة صفاء ذهني بعد النوم الطويل. وفي هذا الانسجام الصقوي حلا له أن يرتب مشاعره، مستوعباً ما وقع له أمس، منتقلاً بأفكاره بين المراتين اللتين جمعت به المصادفة وحدها. أول إنطباع خرج به. من خلال استعراض وقائع ما جرى، أن الروح المجرية مشبعة بحضارة عريقة، تنعكس في تصرف الناس، من باقة الزهر التي تحرص سيدة البيت على ابتياعها، وهي تتسوق خضارها، او تشتري أما غرض لبيتها، الى التهذيب الرفيع في حالتي الاستقبال والوداع، الى مخاطبة المرأة التي يبدأها الرجل بقوله: «أقبلك» فاذا كانت سيدة متقدمة في السن قال لها: «أقبل يدك». ان الزهرة، الابتسامة، التحية الجميلة، الكلمة الحلوة، الترفع أشياء يمكن ملاحظتها في وقت قصير، كما يمكن ملاحظة أناقة الناس، المستوى الجيد لحياهم، نظافة الشوارع، خلوها من المنسولين والعاهرات واللصوص، هذه الظواهر اللازمة للمجتمعات الأخرى، في النمسا وايطاليا وفرنسا وكل البلاد الغربية التي زارها.

قال في نفسه: «التطبيق الاشتراكي، هنا، بخير، قد تكون ثمة نواقص، لكن الأشياء الإيجابية تطالع الزائر فوراً (أضاف): يا لها من بلاد جميلة.. المجر، هذه، تصح أن تكون واجهة للبلاد الاشتراكية.. المرء فيها يشعر بإنسانيته، ربما كانت، في هذه الزاوية او تلك، في هذا القهى او ذاك، في «ام كي»، فتيات في سلوكهن ريبة، لكن المرأة المجرية تحترم نفسها جيداً. بيروشكا كانت في مقهى «ام كي» لكن سلوكها خلا من الابتذال. ايرجكا مغنية في ملهى،

لكنها ، حين عرضت عليها نقوداً غضبت . بلغ بها الغضب انها كادت تصفني .. هنا لا خلط بين الحب والدعارة . تحب المرأة فارس الجنس مع من تحبه . وهذا حقها لكن الجسد غير معروض للبيع ، وإذا كان هناك استثناء ، فهو تنبؤ للقاعدة ليس إلا ..

نهض وهذه الأفكار البهيجة فلاءً اطمئناناً . كان سعيداً الى حد أنه دمدم بأغنية وهو يعد لنفسه قنجاناً من القهوة . كان المطبخ مرتباً . حرصت بيروشكا ، بعد العشاء على ترتيبه ، هذه علامة اخرى جيدة . ترشف قهوته مع سيكارة . اصغى الى شيء من الموسيقى ، ابقى باب الحمام مفتوحاً وهو يقتل ، استشعر راحة وجباً لوحده . لكن الباب لم يلبث ان طرق بقوة . ليس يرتس الحمام وفتح . كان هذا ضياء التركي .. صاح منذ أن رآه ..

- أين أنت يا صديقي ؟ .. متى عدت الى البيت ؟

- ولكنني في البيت ..

- كيف جاء حسن وطرق الباب . طرقتة أنا أيضاً . قال حسن إنه هتف اليك عدة مرات ولم ترد .. إنه قلق عليك .. يخشى ان تكون ضمت ليلاً ، عندما تركك في ساعة متأخرة ..

- وهذا ما حدث فعلاً .. ولكن لتجلس أولاً .. ما رأيك بكأس من الفودكا ؟

- أكون شاكراً .. لعل هذا السعال اللعين يتوقف .. الربو يكاد يقتلني يا كرم ..

- وأنت تجهد نفسك في الكتابة .. استرح قليلاً ..

شربا قدحين كاملين من الفودكا دفعة واحدة . قال ضياء :

- أنت لا تعرف مبلغ سروري بوجودك في هذا البناء .. انا لا أجيد الهجرة . لم أستطع تعلمها .. وأنت تتكلم التركية .. أنت أخي ..

أضاف بعد وقفة قصيرة :

- هل هذا لأننا مهاجرون ، ام لان فكرة واحدة تجمعنا ؟
سكب كرم قدحين جديدين ، واستأذن في أن يرتدي ثيابه ..
لكن طرقتاً تعالى على الباب ، فلما فتحه صاح حسن :

- السلام على أمة العرب ، واللعنة عليك يا صديقي ..

قال كرم :

- ادخل .. ضياء عندي .. جاء قلقاً مثلك ..

قال حسن :

- أين كنت ايها الملعون ؟

- كنت في البيت .. ظلمت نائماً حتى العصر .. سمعت الطرق على الباب ، ورتين الهاتف .. لكنني كنت نعباً وقد غلبني النوم ..

قال ضياء :

- كرم سبقنا .. نحن لا نجد وجهاً يتسم لنا .. وهو منذ وصوله ، ينام خارج البيت ..

انضم حسن الى الصديقين في شرب الفودكا ، وبعد ان ارتدى كرم ثيابه قص عليها حكاية ضياعه ، وأغفل منها الجزء المتعلق بايرجكا .. زعم انه سهر في احد الملاهي ، وعاد صباحاً باكراً الى البيت ..

أبدي ضياء ، بأبوة ، بطيبة قلبه ، أسفه لما وقع .. وأتبعها بهذه النصيحة :

- اسمع يا كرم .. في هذا التحف .. وفي إنفاقك الواسع ، تستطيع ان تسهر الى الصباح ، وان تغري كثيراً من النساء .. لكن هذا ليس جيداً بالنسبة اليك .. عليك أن تكتب .. لاتنس انك تعيش .. قاطعه حسن :

- المجر، ايها الملمون، غير الصين.. هنا المغريات كثيرة..
وقال كرم:

- أفهم هذا جيداً.. لم تستهلكني كل البلدان الأوروبية التي
عشت فيها.. ولن تستهلكني المجر أيضاً.. في الصين وجدت المجتمع
مطلقاً. لم أستطع أن أكتب.. أما هنا فأعمل.. هذا ما اعتزته..
قال ضياء:

- للقرية أخلاقياتها.. غداً تعرف.. تعاشر الآخرين: الجيران،
الزملاء، الطلاب، وتجد نفسك أمام طريقين: أن ترداد تمسكاً
بقضبتك، وعملًا من أجلها أو تغرق في التوافق، واللذات..
وتساها!

قالها واقترح لحباً على شرف النضال.. ثم سأل فجأة:

- أتعرف، يا كرم، من كان يسكن هذا البيت يوماً؟

- من؟ منفي آخر مثلاً..؟

- نعم.. منفي مثلاً. اعتبر المنفى مهنة شاقة.. إنه ناظم
حكمت!

هتف كرم:

- ناظم حكمت سكن بيتي هذا؟

- وفيه كتب قصيدته "أرض المجر".. ففكر بهذا.. كن وفيّاً
لناظم يا بيتي.

- ٨ -

كانوا ثلاثة في الحديقة:

أدامو الإيطالي ومعه ابنته الرضيعة، في سرير بلاستيكي
صغير، يُحمل ويُنقل باليد. وكيريانو اليوناني، المهاجر منذ الثورة
اليونانية، عقب الحرب العالمية الثانية، والذي عاش طويلاً في
الإتحاد السوفييتي، وانتقل منه إلى المجر، ليعمل في الإذاعة.

ومحمد حميش، العراقي الذي قرّب بعد الانقلاب على عبد الكريم
قاسم، ودرس في المجر، ثم تزوج مجرية، وما يزال يدرس، ولا أحد
يعرف متى يتخرج..

أما على الشرفة المظلة على الحديقة، فقد جلس نيلسون،
الماركسي الإنكليزي الذي اتخذ من الشرفة مقبلاً، فهو ينعم بالفيء
صيفاً، وبالشمس شتاءً، ويقرأ الأدبيات الماركسية بغير انقطاع..
ويعمل أستاذاً في الجامعة..

هؤلاء الثلاثة لفتوا كرم، في الأيام التالية لوصوله. كانوا دائماً
في الحديقة، وفي الشرفة، كأن كل عملهم محصور فيها، أو كأن لا
عمل لهم، فهم يعيشون باسترخاء، وينعمون بحالة من اللامبالاة تجاه
دنياهم.

كان أدامو الإيطالي، في حرصه على نقل المظلة الملونة، الكبيرة، مما يوضع على البلاجات، من مكان إلى آخر، وتقل طفلة تبعاً لذلك، يبدو نموذجاً لمن فرغ من الهوم، ولم يبق له من شغل سوى هذه الحركة الرتيبة التي يزاوئها، قائماً بها مقام الأم التي كانت أجدر بهذه الرعاية المفرطة لطفلة رضيعة لا تتجاوز الأشهر من عمرها كما يدل سريرها.

وكان ضئيل القامة، قصيرها، قليل شعر الرأس، مرحاً، لديه سبارة فبات، وزوجة، وكلب، ودراجة سباق للرياضة، ويعمل في القسم الإيطالي من الإذاعة. هو مدرّس في الأصل، من إحدى المدن الإيطالية الجنوبية، وليس لديه ما يعمل في المجر، سوى الاعتناء بسيارته، وابنته، وكلبه السمين، ذي الشعر الطويل، والقامة المدببة، التي لا تكاد ترتفع عن الأرض.

أما كبريانو اليوناني فهو مولع بالموسيقى، وكرة المضرب، والذهاب في شهر تموز من كل عام إلى بحيرة «اللاتون» للاستجمام، والراحة، وتعريض جسمه للشمس، ومرافقة بعض اليونانيين الذين يزورون بودابست وتبديل العملة لهم، كجزء من نشاطه في السوق السوداء.

حبش كان صاحب تجارة أوسع. إنه يعمل في التهريب. تجد لديه الدخان، الويسكي، الثياب النسائية الداخلة، وكل الأشياء التي يستطيع، بطرق شيطانية، أن يهربها من النمسا إلى المجر، ولها مشترون في كل أطراف العاصمة، وله عملاء خاصون، ويتاجر بالأيقونات الأثرية، يهربها إلى فيينا، ولا أحد يعرف الأسلوب الذي توصل به إلى السكن في البناية، لكنه منذ سكن قرر ألا يخرج، وألا يغادر بودابست، ولا يعود إلى العراق، ولديه دائماً تشكيلة من

القذاحات وأقلام الحبر، هدايا لبعض ذوي النفوذ، في الجامعة وغيرها..

نيلسون وحده لا يتاجر، ولا يهرب، وإن كان يصرف نفوقه في السوق السوداء. اهتمامه الوحيد هو المطالعة. يقرأ الماركسية وهو يتشمس، يحرص دائماً على نظافتها، على أخلاقيتها، ولا يفهم أبداً، كيف أن المجرين، بالتعاون مع الإتحاد السوفياتي، قضوا على الثورة المضادة في المجر.. يعتبر هذا تدخلاً فظاً، ولا يفهم كيف يقاوم الفلسطينيون «دولة» إسرائيل التي ينبغي، في رأيه، أن يتفاهموا معها، وإن يكفوا عن تكرار وجودها، أو عدم الاعتراف بها..

ولأن نيلسون لا يعمل إلا ساعات في الأسبوع، فإن وقته الباقي يقضيه في تدوين ملاحظات على هوامش الكتب التي يقرأها، وفي الدفاتر التي يسطها أمامه، وحزمة الأقلام التي لا يعرف سلاحاً غيرها. كان همه أن يطور الماركسية. يعيد تفسيرها. وهو فوق الخلاف الصيني-السوفياتي، إنه ضد الجمود العقائدي، بقدر ما هو ضد التحريفية، وهمه أن يتوصل إلى نظرية ثالثة، نظرية ثلاثية أوروبا.

هذه المعلومات نقلها ضياء التركي إلى كرم على دفعات. كان يشرب الفودكا معه، ويسعل، ويختنق من الربو، ومن القهر لأنه يعيش بعيداً عن تركيا. يقول:

- هناك يا كرم، في الأرض التي ولدنا عليها، ينبغي أن نكون.. المناضل الحقيقي يسبح في بحره، خارج هذا البحر يكون كالسمكة الملقاة في الشمس على رمال الشاطئ.. تتنق، تنفس، وتنتشر رائحة كريهة لا غير.. لدينا هنا، في المجر، في رومانيا، في

بلغاريا، في البلدان الاشتراكية كلها، أترك كانوا يوماً مناضلين.. أنا أعسم.. هناك أناس ظلوا مناضلين، يتحرقون شوقاً إلى العودة، إلى مواصلة الكفاح، لكن هؤلاء قلة.. الأكثرية صاروا مرتزقة.. استمرأوا العيش في مجتمعات اشتراكية جاهزة، لم يدقوا مساراً في بنائها.. إنهم طفيليون.. يارسون كل أنواع الرذائل.. يتزوجون في الاتحاد السوفياتي، وبعد فترة يهربون إلى بلغاريا فيتزوجون أيضاً، وإذا انتقلوا إلى رومانيا فعلوا الشيء نفسه.. يتعاطون جميع الموبقات.. من التهريب والعمل في السوق السوداء إلى القوادة.. يصيرون، مع الأيام، قوادين أيضاً، همهم الراحة، السر، وجمع المال.. لو بقوا في تركيا لظلوا شرفاء، مناضلين، لو سُجنوا لتعلموا الصمود مثل ناظم حكمت.. المناقي صعبة. والشرفاء وحدهم يسلمون فيها..

هذا المساء، بعد أن انصرف حسن الإبراهيمي، وهو يلحن كرم تحبباً، بقي ضياء جالساً. طلب من كرم موسيقى تركية. كان يحب أغنية «كيلو قزم»، «بلت الريف» وبعد أن شرب أفاض في الحديث:

اسمع يا كرم:

- لي ولدان: ابن مراهق، وفناء صبية. تربيا معنا في القرية. في بلغاريا ورومانيا، ثم هنا.. الفتاة تدرس في الجامعة. دخلت معها حانوتاً تديره امرأة عجوز. هذه فرحت عندما كلمتها ابنتي بالهجرية.. رغبت في أن تعرف من أين هي، وماذا تفعل في المجر وأشياء أخرى من هذا القبيل، فإذا كان موقف ابنتي؟ انتهت.. حين غادرنا الدكان سألتها: لماذا كنت قطة مع العجوز؟ قالت: لأنها ثرثارة، قلت لابنتي: اسمي هذه امرأة مجرية.. إنها، حتى في هذه

السن، تعمل، تدفع ضرائب، تسهم في بناء المجر، ومن الضرائب التي تدفعها تتعلمين أنت.. تأكلين أيضاً.. نأكل نحن.. المعجوز أفضل منك، أفضل من كل أمثالك من الطلاب الأجانب الموجودين هنا، الذين يارسون شعوراً بالامتياز على المجرين، ينتهرونهم بقلة أدب، كما فعلت.. هذا نموذج لسلوك الطلاب الأجانب، سواء كانوا عرباً، أو أفريقيين أو آسيويين.. وحدهم الطلاب الفيتناميون، هؤلاء المناضلون، يتصرفون بطريقة أخرى، يدرسون، يجتهدون، يعيشون على تار، بانتظار تخرجهم، للعودة إلى فيتنام والاشتراك في الحرب الدائرة هناك..

قال كرم:

- ولكن هذا مخيف يا عم ضياء.. مؤسف أن يكون ذلك كذلك..

- هذا هو الواقع.. أنت كنت في الصين.. عشت مع الأجانب الذين يعملون فيها.. قل لي، بصراحة، أما كان فيهم شيء مماثل؟ يمر عليّ أن أقول نعم.. كان معظمهم من المرتزقة، خاصة بعد الخلاف بين الصين والاتحاد السوفياتي.. عرفت، هناك، إيطاليا يدعى الخيلو، كان متعصباً للصين.. كان يحاول أن يتاجر في التحف، وذات مساء سهرنا معاً، وبعد أن شرب عدة كؤوس، قال لي: «اسمع يا كرم.. أنا لست هنا إلا لجمع ثروة صغيرة، فمن بيت وسيارة. حين نشب الخلاف.. انخرت إلى الصين.. كنت أرغب في الهجر إلى هنا.. سمعت بالتحف الصينية.. أردت أن أربح قليلاً.. هذا هو كل شيء..»

أمثال هذا الانتهازي كثيرون، ستجدهم هنا أيضاً، رغم أنه لا تحف مجرية تذكر.

قال كرم:

- في بدء الخلاف.. حين وقف كاسترو ضد خروتشوف، أرخى كثير من المرتزقة، وخاصة من بلدان أميركا اللاتينية، ذقونهم، اقتداء بكاسترو.. لكن خروتشوف أزيح، وانتهى الخلاف البسيط، ووقف كاسترو ضد الصين، فهل تعرف ما فعل أصحابنا بلحاهم؟ حلقوها سريعاً، نزلوا للصينيين.. وذات يوم عقد اجتماع في بكين، لتشكيل فرقة تذهب وتقاتل مع الفيتناميين.. الأجانب الموجودون سجلوا أسماءهم جميعاً.. تطلّعوا.. وبعد انقضاء الاجتماع، ذهب كل واحد على انفراد وطلب شطب اسمه، بذرائع كاذبة.. الانتهازية، هي الوجه الآخر للاهزيمة.. المرتزق لا يمكن أن يكون مناضلاً.. في الصين، بعد الخلاف، لم يبق سوى المرتزقة، وقلة من الشرفاء، انتظرت حتى انتهت عقود عملها..

- من أجل ذلك، قال ضياء، أعمل برغم مرضي.. أكتب قصصاً قصيرة، أرسلها إلى تركيا وأنشرها باسماء مستعارة..

أضاف:

- وأنت يا كرم عليك أن تكتب أيضاً، إذا كنت لا تريد أن تكون مثل الآخرين، الذين يتفسحون في الغربة..

وبعد نوبة سعال، وكأس فودكا، نهض ضياء ومضى.. كان عجوزاً، طويلاً، منهدل الكتفين، يدوي كورقة خضراء في لفح الشمس، يدوب كشععة في منغاف. قال كرم في نفسه، وقد جلس وحيداً: «كل ما قاله ضياء صحيح.. للغربة اخلاقها.. هنا، في هذه البلاد، يتصرفون وكأنهم أصحاب البيت الطالب يدرس مجاناً. يأخذ مرتباً. له بيت، وقسيمة طعام، ولباس.. كل شيء موفور له، ينسى أنه يعيش من جهد سواه.. يتنكر لهذا المعروف.. بعد ذلك يشتم حتى

البلد الذي درس فيه. ضياء قال: كل رسائل الحنين إلى الوطن، والتعلق به، تتلقاها، في القسم التركي، من العمال الأتراك، والطلاب الأتراك الذين يعيشون في الغرب. هؤلاء يعانون، يعرفون ما الاستئثار، ما الظلم، ما أجرة البيت وثمن الطعام وقسط الجامعة. هذا ينطبق على العرب أيضاً.. وهذا البلد الصغير، هذه الدولة الحزبية، تتحمل، ونحن نعص اليد التي تصنع المعروف معنا.. هناك، في تركيا، في سورية، في مصر، في العراق، في اليونان، وفي إسبانيا أيضاً، يعانون، يناضلون، يواجهون الأعداء.. يعيشون أمل الاشتراكية، يكتبونه على قلوبهم، يحولونه إلى أعمال.. وهنا، في هذه المدينة، في هذه البناية، يقرأ نيلسون الأدبيات الاشتراكية وهو يتشس.. وامادو الإيطالي يقضي وقته في تركيز المظلة فوق سرير ابنه.. ونقلها من مكان إلى آخر، وكبيرانو يسمع الموسيقى ويلعب التنس، وحيش يتاجر في السوق السوداء.. وأنا؟ أصبح مثلهم غداً؟ وهذا التحف؟ وليلة أس في الملهى؟ واللقاء، قبل ذلك، ببيروشكا؟ إلام يقودني هذا السلوك؟ ضياء كان يعنيني بكلامه.. ذكرني بناظم حكمت. قال هذا بيته.. هنا، في هذه الغرفة، سكن وعمل. وضياء، المريض بالربو، يعمل، وحسن الإبراني يضع قاموساً، يذكر تبريز والدمعة في عينه.. وأنا؟ ودمشق؟ إيه يا دمشق الحبيبة... أحاج من يذكرك بك؟ من يحمل إلي حفنة تراب كما فعل البولونيون مع شويان؟ لا.. لن يكون ذلك.. لن يكون ذلك..»

عمل، ذلك المساء، حتى ساعة متأخرة. كتب فصلاً في رواية تتحدث عن الغربة. شعر أنه يكفر عن ليلة أس. لكنه، في المقابل، كان واثقاً من أن شيئاً لن يبدله. هذه التحف ليست

للتجارة. قد يبيعها إذا احتاج. ناظم قال: «أردت شراء باقة بنسج لحبسي، وكان الرفاق جوعاً، فأكلنا بتمنها خبزاً» هو أيضاً إذا جاع، إذا احتاج الآخرون، الطبون، مستعد أن يبيع أيما قطعة، وحتى أن يبادلها برغيف.. لكنه، بانتظار ذلك، يرى أن مقتنياته هذه أشياء ثقافية.. إنه ليس كهديجي. ليس كأنجيلو.. لم يفكر بالتجارة، فكر بالثقافة.. ولا ضير عليه أن يعيش في جو ثقافي. بل من الضروري أن يعيش في جو ثقافي. أن يشرب، يرقص، يتسلى.. ويعمل فهذا ضروري.. ديتروف قال: «تسلوا أيها الرفاق، فالطريق طويل» أراد: اعملوا، وعيشوا.. لا تجلسوا على أعصابكم، لا تدعوهما تتوتر إلى درجة الانقصاص.. أنا لن أجلس على أعصابي، ولكن لن أجلس على مؤخرتي، لامبالياً، لن أدبرها، كنور، لآلام شعبي، ووطني، والبشرية المعذبة.

في اليوم التالي ذهب إلى الجامعة فألقى درسه. عرج على الإذاعة وأعطاهها برنامجاً الأدبي، وتذكر، حوالي الظهر، أن لديه موعداً في شارع الجمهورية، أسرع إلى محطة المترو، عند الباحة الرئيسية للشارع، وهناك كان ألبوش بانتظاره. تصافحا، تكلموا العربية التي يتقنها ألبوش. كان قد درسها في موسكو، وعاد ليصبح معيداً في كلية الآداب، وكان يدرس، في قسم اللغة العربية، إحدى روايات كرم.

جلسا في مقهى على الرصيف. كان ألبوش طويلًا، أسمر، أسود الشعر، تخاله من الشرق. كان ذكيًا، مجتهدًا، وكان حريصًا على التعرف إلى كرم منذ سمع بوصوله، قال:

- من خلال روايتك، حبيتك عملاقًا، وقورًا، ونسخة عن أدباء متعجرفين عندنا.

سأل كرم:

- وكيف وجدتني؟

- على غير ما تصوّرت.. أنت ما تزال شابًا..

- ليس تمامًا، لكنني لن أشيخ بسهولة.. أين تنفدى؟

- في مقهى هنغاريا.. هناك سجد عجائز كثيرين، نساء ورجالًا، بشرًا يعيشون على ذكريات الماضي.

سلكا طريقًا قصيرًا أفضى بها إلى شارع لينين، صعدا شلالًا، وعلى اليسار، في منتصف الشارع، كان مقهى ومطعم هنغاريا، المحتفظ بكل استقراطيته، وبكل الشكليات التقليدية للتصرف، وبالمونوكل على العين الواحدة، ونظارات يدوية مكبرة، مذهبة المقبض، تضعها امرأة أو رجل، على العينين، حين يراد انعام النظر في وجه مقابل.

قال كرم مازحًا:

- هذا متحف للمستحاثات أم مقهى؟

لم يفهم ألبوش كلمة مستحاثات. شرحها له كرم فأعرق في الضحك، قال:

- هذه جثث حية، لم تدفن بعد.. ولكن لا خطر منها..

- كيف؟

- بعد القضاء على الثورة المضادة، عام ١٩٥٦، فقدت أسلحتنا.. كل ما بقي لها الكلام.. هنا ينتقدون السلطة الاشتراكية علنًا، يشتمونها أيضاً. السلطة تعرف ذلك، لكنها لا تبالي، ما دام العداء مقتصرًا على الكلام وحده..

- وإذا تحول إلى فعل؟

- ما أظن.. هذه الذئاب فقدت أسنانها.. لا تستطيع العض في الوقت الحاضر.. ثم لا أحد يسمح لها..

- لماذا؟

- لأن القضاء على الثورة المضادة، رافقه قضاء على الأخطاء التي استغلها المحرضون عليها..

- تعتقد ان كل شيء، الآن، على ما يرام ؟

- ليس على ما يرام تماماً.. لكننا في الطريق الصحيح.. بعد الضربة الماحقة التي وجهناها للرجعية، بدأ الإصلاح.. بدأ جذرياً هذه المرة..

- لكن الرجعية، وهذه نماذج منها في هذا المقهى، ما زالت موجودة..

- وستبقى موجودة إلى زمن طويل.. لكن القوة للملكية، والملكية للشعب، أعني الدولة، وهذا هو الأساس.. حين تكون للرجعية قوة اقتصادية، تطلب التعبير عن نفسها سياسياً.. لقد جردناها من هذا السلاح الآن..

- أنت في الحزب؟

- أنا في الشبيبة.. والدي من قدماء الحزبيين، عامل منجم..

- حضرت الثورة المضادة؟

- اشتركت في مقاومتها..

- كانت المعركة ضارية؟

- بأشد ما تتصور.. لقد ذبح الفاشيست المئات من المناضلين..

- وبمعني هاتين، رأيتهن يلقون مناضلة من الطابق السادس.. كانوا شرسين كأبلغ ما تكون الشراسة.. وكانت القوى الخارجية، القوى

المعادية، أميركية وغربية، قد زوّدتهم بالسلاح والمال.. كانوا يريدون القضاء على النظام، وإعادة الجمر عشرات الأعوام إلى وراه..

شرب ألبوش كأسه وسأل:

- ألا أضجرك بحديثي الجاف هذا؟

- أبداً.. أنت تتكلم وأنا أنظر إلى هذه الوجوه الانتيكية.. أتساءل: بينها من اشترك في الثورة المضادة؟

- من غير شك.. إذا لم يكن مباشرة فبالتحريض.. انظر هذه القفازات البيضاء، المحرمة، في الأيدي، انزعها ثراً دماً على الأصابع.. لو انتصروا لأبادونا.. ليس لديهم رحمة.. وبرغم كل ما يقال في الغرب، ها انت تراهم يعيشون.. إننا أرحم منهم على كل حال..

- ومن أين يعيشون؟

- من بقايا ممتلكاتهم.. ومن رواتب تقاعدية..

أضاف، في انعطافه مفاجئة:

- اللعنة على هذا الحديث الملل.. كفى ما تكلمنا على هؤلاء الأوغاد.. لديّ اقتراح.. ما رأيك في أمسية صغيرة، يحضرها بعض الأدباء والمثقفين، وطلاب اللغة العربية، وتلقى فيها أشعار مترجمة إلى اللغة المجرية، وتلقى أنت، كلمة صغيرة، نترجمها مباشرة؟

- أنا؟ صاح كرم.. لا أعرف كيف أتصرف حيال جمهور لا أعرفه بعد..

- أنت لا تتصرف بشيء.. لن تقتل على كل حال.. تلقي كلمة.. وتحجب على الأسئلة.. هذا كل شيء.. موافق؟

- لا أدري.. لا تضعني في موقف حرج..
- لا حرج في الأمر.. ستكون مسروراً.. دعني أرتب كل شيء..

اتفقا.. كان في ذلك كسب للثقافة العربية، وللبلاد العربية، وفيه، بالنسبة لكرم، اتصال بالحياة الاجتماعية والثقافية في المجر..
وحين استشار ضياء في الموضوع شجعه. قال له أكتب كلمة صغيرة، فيها تحية للمجر.. وفيها لمحة عن الأدب العربي الحديث.. استعن بقصيدة ناظم.. إنها موجودة عندي، وسترجها، وترى كيف خاطب ناظم أرض المجر..

أقيمت الأمسية على مدرج صغير في كلية الآداب. حضرها جمع من المثقفين والطلاب المجرين. حضرها، كذلك، طلاب عرب، وأفارقة، وآسيويون، ومن أميركا اللاتينية، وحضرها ضياء وحسن، والموسيقى اللبناي نصر جيل، غازف العود الرائع، الذي كان يواصل دراسة الموسيقى في المجر.

كانت فرحة ضياء كبيرة. لبس أفضل ما لديه. شرب كأساً من الفودكا وأوصى كرم بشرب قدح مماثل. قال: «هذا يفيدك». يشجّعك أكثر. يجعلك طبيعياً.. أنت، يا بني، ستدخل الحياة المجرية من الباب الواسع بعد هذه الأمسية. اقرأ لي ما كتبت.. اقرأ بالعربية أولاً.. أريد أن أسمع إلقاءك.. ثم ترجمه لي.. لا تهمل البلاغة.. أريد معرفة الأفكار.. ولكن أسمع لي، قبل أن تبدأ، بكأس أخرى من هذه الفودكا اللينة.. أريد أن أغتسل من سعالي خلال الأمسية..»

قرأ كرم كلمته القصيرة وترجمها. كان ضياء ينصت ويهز رأسه،

وعندما ختم كرم الكلمة بفقرات من قصيدة ناظم حكمت تقول:
الأرض كالإنسان/ وكالأغاني تماماً/ تضاعف من جمال الحرية/
وتضاعف هذا الجمال أرض المجر أيضاً. «نهض وقبّله..» «كوزال»
«كوزال» كان يهتف.. جيل.. وتابع كرم: «المراء لا يشبع من إنسانك/ وخيالك/ ونعمتك، وحريرتك/ وشاعريتك/ وخرقك/ يا أرض المجر، فصاح ضياء»

- أنت أكرمتني.. أحسنت بهذا الاستشهاد.. ناظم عظيم، عظيم يا كرم.. هل في الدنيا أشعر منه؟
قال كرم:

- ناظم كبير يا ضياء، ليس بشعره فقط، بل بنضاله العنيد أيضاً.. إنني أحبه، أحبه بأكثر مما تتصور.. لا بد أن نقيم أمسية كهذه للأدب التركي الحديث أيضاً، وعندئذ نتكلم، وتتشد شعر ناظم بالتركية..

- هذا ما لا أستطيع.. هذا الربو الرهيب..
- حسناً.. يقرأ حسن شعر ناظم..

- يمكن.. يمكن تماماً.. هذا ما يجب.. هذا ما يسمى نضالاً في العربة.

كانت فقرات الحفلة تتألف من عزف مقطوعة على البيانو، وعزف على العود لنصر جيل، وقراءة أشعار عربية مترجمة إلى المجرية، وكلمة كرم في الختام، وكانت القاعة مزدحمة، وعلى المنصة مزهرية ورد، والعلم السوري، والعلم المجري، واليوش، عريف الحفلة، يرتدي بدلة صيفية أنيقة، وربطة عنق على شكل فراشة، وبعد العزف على البيانو، عزف نصر جيل مقطوعات صغيرة على

العود، وتقدمت فتاتان مجريتان، تلبسان «تَيُورين» رصاصيين وبيد كل منها مصنف أبيض، عليه شريطة حمراء، وبداخله القصائد المترجمة، وقد كانتا من معهد التمثيل واختصاصهما الإلقاء. كانت أول قصيدة للمتنبى.. وكان الإلقاء جبلاً.. كان هادئاً، إيمانياً، تعطيه نبرة الصوت وقعاً خاصاً، فقال كرم في نفسه: «يا لأبي الطيب! لو كان يعلم أن فتاة مجرية، على هذا الجبال، وهذه الروعة في الإلقاء، تقدم شعره مترجماً إلى المجرية، لكان غفر لدهره بعض ما عاناه».

جاء دور كرم.. وقف وألقى كلمته.. صفق لها الطلاب العرب. صفق لها ضياء وحسن، وصفق المجرىون عند الترجمة، وجاء دور الأسئلة، فأنهالت عليه، وفوجيء بسؤال غير متوقع:

- هل نظمت الشعر يوماً؟

نظر إلى صاحبه السؤال مدهوشاً. كانت هذه بيروشكا.. وكانت تقف رشيقة، مهيبة، بشعرها السيل، ذي الطبقة على صفحة الخد.. وأجاب كرم:

- لم يسبق لي أن نظمت الشعر.. ولكن من يعيش في المجر، لا بد له أن ينظمه.. قد أفعل ذلك يوماً.. وسأهديك القصيدة الأولى.. هذا وعد مني..

قالها في دعاية غير خافية، فصفق الجمهور، وانتهى الحفل، وتقدم بعضهم لمصافحته، وثقة من عانقه، لكن بيروشكا شبكت ذراعها بذراعه وقالت بالفرنسية:

- الليلة لن أعود إلى كليتي باكراً.. وقد لا أعود أبداً..

وقال كرم:

- لك، يا صغيرتي، ما تشائين.. ولكن حذار.. قد لا أكون لطيفاً كما في المرة السابقة.

وقالت بيروشكا:

- أنا لا أريدك أن تكون لطيفاً.. كن عنيفاً بقدر ما تستطيع.. هذا يطيب لي جداً.

يقدم له المعرفة والنصح، باعتباره طالباً قديماً في الجبر، ويبدو على علاقة وثيقة بجورج، وينصر جبيل، الموسيقار وعازف العود، ويعرف أليوش معرفة تامة. قال:

- أقترح، ما دما قد التقينا، أن ننظم حفلة صغيرة، على شرف كاتبنا وصديقنا كرم.

لاحظ كرم أن كل طالب عربي له صديقة تقريباً. وأنه أحضر هذه الصديقة إلى الأمسية. وكان الكلام الذي يقال بالعربية، يترجم فوراً لطلّاء الصديقات، وقد أظهرن حساسة واضحة لفكرة السهرة، ولم تتخلف عن ذلك بيروشكا، ودون أن يدعوا مجالاً للمناقشة، طرحت فكرة الحفلة كأنها من المسلمات، وقُبلت بالإجماع، ولم يبق إلا تحديد الزمان والمكان.

بيج اقترح أن تكون الحفلة في مطعم. عارض هادي. قال:

- نريدها حفلة عربية. حفلة سورية، نسمع فيها العود والغناء العربي..

قال جورج:

- على أن تكون ضيّقة.. تتوفر فيها الحميمية..

قال بيج:

- غداً السبت.. إنه وقتها تماماً..

قال كرم المشتاق إلى جلسة من هذا النوع، بعد طول غياب عن الوطن، وبعد أن حُرِم من أمثالها في الصين:

- أنا موافق.. وسأكون سعيداً بسماع عزف موسيقارنا نصر..

دمدم هذا شاكرًا، مبتسماً عن فرق بين أسنانه، من وراء شفتين

- ٩ -

تخلّق الطلاب العرب، بعد الأمسية، حول كرم، يطرونه بالأسئلة. كان ما زال واقفاً في القاعة، قرب المدخل، وسعه أليوش، ونصر جبيل، وبيروشكا، وبعض الجبريين، وكان اليوم جمعة، وقد تقدم منه شاب ربعة، على عيشه نظارتان طبيتان مدخنتان، وله لهجة إحدى مدن الشمال السورية، عرّف نفسه باسم جورج، وقال الطلاب إنه رئيس رابطة الطلاب السوريين، وفهم منه أنه كان مسافراً وعاد أمس، وأنه يسكن البناء نفسه، في بنتزور اوتسا، في الطابق الأرضي، وقد فرح منذ علم أن كرم جاء للعمل في بودابست، وأنها يسكنان بناية واحدة.

ارتاح كرم للتعرف إلى جورج. وجدّه هادئاً منطقيّاً، جديراً بأن يكون رئيساً لرابطة الطلاب، ومنه، أو بواسطته، تعرّف إلى الطلاب الآخرين، وبينهم اثنان أظهرتا مودة حارة، هما هادي، وبيج، الأول كان قصيراً، له صلع خفيف مبكر، وفي عيشه نَسْ طبعي، والثاني طويل، ضامر، بارز الفكين، يقلب عليه المرح، وفهم من جورج أنها صديقتان، وقريبان منه جداً.

قال هادي، وكان يدرس مهندساً، وله طاقة على تقديم المعونة للآخرين، ويرغب، دون أن يسأله أحد، أن يتعهد من يراه، وأن

متلشين، ونظارات سوداء.. لكنه اشترط، أن يكون العدد قليلاً،
وأن يحسن الحاضرون الإصغاء..

وافق الجميع. يبدو أن هذا الشرط كان معروفاً لديهم. وكانوا
شديدي الحماس، وعلى استعداد للاستجابة التامة.

عندئذ اقترح هادي:

- لنكن الحفلة في بيت صديقنا جورج:

لكن كرم قال:

- يبرني ذلك.. لكن ما رأيكم، ما دمت وحيداً، وما دام بيتي
جاهزاً، ان تكون عندي.. نغتنم الحفلة للتعارف.

هادي حسم الموقف فوراً:

- اتفقنا.. غداً، في الثامنة، نبدأ.. اتركوا تنظيم الحفلة لي..
وكذلك عدد الذين يحضرونها، وأسماؤهم.. انتفعوا من خبرتي في هذه
الأمور.

لم يعارض أحد. كان بهيج يبدو تابعاً لهادي، ومؤيداً لكل
اقتراح يصدر عنه، وقال جورج إنه يكون مسروراً بالمشاركة،
ويعتبر ذلك واجباً، ما دام قد تأخر في زيارة الأستاذ كرم للسلام
عليه.. هذه فرصة.. حفلة تدشين ومباركة. غير أنه اشترط: لا أحد
يأتي بأكثر من صديقه.. لا نريد اختلالاً في التوازن. ولم يفهم كرم
هذا التحذير، لكن هادي قال:

- لا يد من صديقة للأستاذ كرم:

قال كرم:

- شكراً.. الصديقة لا تأتي بنوصية..

لكن اليوش قال:

- ولكن الأستاذ كرم له صديقة.. ألا ترونها إلى جانبه؟
قالها وتكلم مع بيروشكا بالجرية. سألها:

- تعرفين كرم؟

قالت بيروشكا بأسمة:

- نعم.. نحن صديقان منذ وصول كرم إلى بودابست..

وقال بهيج:

- المسألة مهلولة إذن.

تفرقوا بعد ذلك. بقي كرم وبيروشكا وأليوش، كانوا سعداء
لنجاح الأسمية. اعتبر اليوش هذا النجاح بخصه شخصياً، كرم كان
مسروراً بكل شيء، عانقه ضياء وحسن عقب الأسمية. وقال حسن:

- لا بأس.. أمة العرب بخير.. ولكن لاتنس، أيها الملعون،
تأثير أمة الفرس.. هذه الأدبيات.. وقال ضياء مقاطعاً:

- محكم.. كلام كرم كان جيداً، وكان جيداً استشهاده بناظم..
محكم.. براغو كرم..

وقال كرم في نفسه: «يا للطيبة! ضياء بمثابة أب.. كل ما
أفعله حسن و «محكم» بالنسبة إليه.. أبعقل أن يحبني بهذا المقدار؟
هذه هي العاطفة الشمولية.. عاطفة حب الطيبين، من أي بلد،
وأي جنس كانوا». وفي تحية مقابلة قال لها:

- غداً مساء.. لا تتأخرا..

وقال ضياء:

- سآتي.. ولكنني سأكون وحيداً.. أنا لا صديقة لي.. سأكتفي
بالسماع.. نصر سيعزف شيئاً من الموسيقى التركية.. الموسيقى التركية
أصل الموسيقى العربية.. إنها الموسيقى الشرقية الأصلية..

وقال حسن:

- اللغة، يا ضياء، على أمة الأتراك.. الفرس..

وقاطعه كرم:

- نسمع موسيقى فارسية أيضاً.. كما تريد يا حسن.. يا

صديقي الطيب ولعلها أن تكون موسيقى تبريزية..

هل أنت سرور؟

قال ضياء:

- بحكم..

وانصرف..

تناول الثلاثة: كرم وبيروشكا والبوش العشاء في مطعم برلين، كان الدب كبيراً وجيلاً وملوناً على باب المطعم. وكان الجو رائقاً، الفرقة الموسيقية رائعة، والطعام فاخراً، وكذلك البيذ، ورقصت بيروشكا مع البوش أولاً، ثم مع كرم.. بدت ألبفة، ودوقة، كأنها تعرف كرم منذ أعوام، وكأنه يخصها وحدها، وكأن كلمة الحب، التي لم يلفظ بها أيّ منها، كانت مقالة، بينها، ومتبادلة، منذ أجيال. لكن كرم كان يتسم.. يريد أن يعتبر بيروشكا طفلة المدللة، المدللة لا أكثر، وكان، في ذاته، ينفصل عنها مسافة ما بينها من تفاوت في العمر، ويشك، في أعماقه، بأنه قادر على مبادلتها عاطفة صادقة، عميقة، كأن شعوراً مبهماً، ثابتاً، ما زال يهتف به من الداخل: لحظة حبك الكبير، الجنون، لم تَجِنْ بعد..

بعد العشاء استأذن ألبوش وانصرف.. وعد بالحضور في الليلة

المقبلة.. شدّ على يدي كرم بقوة.

قال له:

- أنت صديقي.. بل أكثر.. نحن، كما يقال، نجمعنا فكرة واحدة، وفوقها حب اللغة العربية.. أنا لا أستطيع أن أتصور كم في الشعر العربي من موسيقى وكم في السجع القرآني من سحر.. بسعدي وجودك في المجر.. وسنكون أصدقاء دائماً، وسأعطيك دروساً في المجرية.. لا تنهَم من هذه الناحية.. مفتاح اللغة امرأة.. بيروشكا ستعلمك المجرية بسرعة.. لن يمضي شهر إلا وتصبح قادراً على التفاهم بلفتنا..

قال كرم ضاحكاً:

- لا تتعامل كثيراً من هذه الناحية.. خمس سنوات في الصين، ولم أحفظ سوى اسمي الماء والخبز.. في موضوع اللغات أنا غبي.. غبي أكثر مما تتصور..

قال البوش:

- كان لك، في بكين، صديقة صينية؟

- لا.. مثل هذه الصداقة، هناك، غير ممكنة.

- إذن هذا هو السبب في أنك لم تحفظ في الصينية سوى كلمتين كما تقول.. المرأة يا صديقي.. هي المعلم الأول والأخير، صدقتي..

وقال لبيروشكا بالمجرية:

- لا تتكلمي سمع كرم بالفرنسية.. عليه أن يتكلم المجرية.. ساعديه في ذلك.. كوفي مجرية متعصية في هذا المجال..

على امتداد شارع لينين، وبعده صعوداً إلى الشمال في شارع الجمهورية، سار كرم وبيروشكا واليد باليد.. كان يفكر: «هل يعقل هذا.. أنا في الأربعين، وهي في العشرين أو أقل.. ماذا يقول الناس؟ يبدو أن السماء تكافئي.. بعد حرمان الأيام في الصين،

تفتح الجنة لي أبوابها في بودابست .. تفتحها واسعة .. على مصراعها .. تجدد شبابي بشكل لعين .. هذا ما يسمونه حياة .. بجيك إلي أنني أولد من جديد ..

بلغنا البيت في الساعة الحادية عشرة . رفضت بيروشكا ، وبإصرار ، أن تعود إلى كليتها ، قالت له : « إذا كنت ترفض ، ينام كل منا في غرفة .. لن أفرض نفسي عليك ولن أضاهيك » . وقال كرم : « ليس هذا يا بيروشكا .. لا تفهميني خطأ .. إنما أنت طالبة .. لا تكوني مجنونة .. أنا أخاف على مستقبلك .. أخاف على وضعك وأنت تسكنين الجامعة .. ماذا يقول المسؤول إذا تغيبت ليلاً ؟ » أجابت : « ليقبل ما يريد .. لست مهتمة .. ثم إنني أنغيب أحياناً .. النظام الجامعي ، هنا ، ليس صارماً إلى الحد الذي تتصور .. نحن لا نؤدي خدمتنا العسكرية .. الانضباط الذي تتصوره غير مطلوب عندنا .. لدينا الحرية اللازمة » .

جلسا في الغرفة الداخلية ، أضاء نوراً خافتاً ملوناً ، أشعل شمعة ، فتح زجاجة ويسكي .. أزاح الستارة عن النافذة المطلّة على الحديقة . انطلقت موسيقى ناعمة ، حائلة من السجّلة .. وقال لبيروشكا :

- لك عندي هدية ..

- أترى ذلك ضرورياً ؟ أنت تنفق كثيراً يا كرم ..

- في سبيل عزيزي الصغيرة كل شيء يهون .. ثم هذه عادتي .. عندما أفلس أبيع بعض الأشياء من هذا المتحف .. أنا لست معنياً بالثراء ، ولن أكون ثرياً .. ما أريده هو أن أصبح كاتباً جيداً ، كاتباً معترفاً به ..

- لقد كنت رائعاً اليوم ..

- ليس تماماً .. أعرف نفسي .. قد تكون الترجمة المجرية هي الرائعة .. أنا كاتب لم يصل بعد ..

- ستصل .. كن واثقاً من نفسك ..

- أنا واثق من نفسي .. أعرف أنني سأصل ، ولكن ليس قبل أن أعود إلى وطني .

نفس وأحضر صندوقين صينيين ملبئين بالحلي والمجوهرات .. انتقى خاتماً جليلاً يقال له « عين النمر » وقدمه لها .. قال لها : « عندي ثياب صينية أيضاً .. عندي مجموعة كبيرة من اللوحات .. ما هو معروض هنا ليس إلا بعض ما أملك من تحف .. لقد جمعتها خلال خمس سنوات .. أنفقت عليها كل دخلي .. وأنا سعيد بذلك .

طلبت أن يُرَيا الثياب النسائية الصينية . ارتدت ثوباً عليه رسوم جميلة ، ألصقها فوقه معطفاً حريريّاً مشغولاً باليد ، مطرزاً بألوان زاهية ، تتل أساطير صينية . أتاها بمظلة صينية صيفية من الحرير وعليها رسوم . سمح لها أن تتزين بما تشاء من قلائد وأساور وأفراط وخواتم .. وحين فعلت ذلك ، قال لها :

- أنت الآن أميرة .. أنت أميرة صينية .. تعالي إلى المرأة .. أسكني المظلة على هذا النحو ..

عندما رأت نفسها في المرأة الجدارية الطويلة ، هتفت من أعماقها :

- يا يسوع الهم هو رائع هذا كله .. أرجوك .. أرجوك يا كرم .. دعني قليلاً بهذا اللباس ، وهذه المجوهرات ، دعني أتصور نفسي امرأة من ألف ليلة وليلة .. أميرة شرقية كما في الحكايات ..

- ابقي هكذا ما شئت.. ولولا أن هذه من أشياء التحف،
لوهبتك إياها كلها، أو بعضها على الأقل..
عندئذ، وبحركة مسرحية، وكما تفعل امرأة الحكايات الشرقية
حاولت أن تركع، كأنها تقمصت شخصية نائية تاريخية من الشرق
وقالت له:

- ماذا تريد مني؟

- لا شيء..

- أنت لن تعتريني جارية كما في ألف ليلة وليلة، أليس كذلك؟

- أنت أميرة..

- وأنت؟

- أنا كرم فقط..

- أنت شهريار..

- لكنني لن أقتلك في الصباح.. أنت شهرزاد بغير حكايات..

يكفي أن تكوني صديقتي..

- فقط؟

- في الوقت الحاضر نعم.. أنت لا تريدني كاذباً..

تعمدت إخفاء حقيقتك في البدء. لم تتحدث عن بينك هذا
الرائع، ولا عن هذه الأشياء الثمينة التي لديك.. أردت أن تصنع
مفاجأة، ونجحت.. اعترف أنك نجحت.. ثم كنت كريماً، وكنت
مرغوباً، وكنت تدرك هذه الحقيقة، منذ الليلة الأولى التي دخلت
فيها بيتك، عيناى، يداى، شعري، وجهي، جسي كله أنطوى على
رغبة إليك، وعرفت ذلك، ونجاهلته، وحللتني، بطريقة مهذبة
ولكن حازمة، أن أعود تلك الليلة التي كليتي، فأطعنتك وعدت..

جعلتني أزداد رغبة فيك، وأزداد جهلاً بك.. تعمدت أن تكون
غامضاً، غريباً، وأن تلعب بي لعبة ذكية، ولكنها، اسمح لي، غير
شريفة، لأنها تهدف إلى إهانتني.. إنني، بعد كل شيء، لست موساً..
أنا طالبة. طالبة أدب، وأنت أديب.. وكان اللقاء بيننا طبيعياً،
لكنك بتغليف نفسك بالغموض، أردت أن تتظاهر بأنك لست
أديباً، أو لا تبالي بأن تعرف كذلك.. هل هذا تواضع؟ أشك.. إنه
عزور.. لكنك ملموب بذكاء.. واليوم، في الجامعة، سمعت
بالأمسية. وقيل إن أديباً عربياً سيتكلم فيها.. ولم أعرف من هو،
لكن إحساساً مهماً دفعني إلى حضورها، ولم أكن محظنة.. لقد
تعمدت، بعد تلك الليلة، ألا تأتي إلى الكلية وسأل عني، مع أنني
أعطيتك عنواني.. انتظرت أياماً، كنت أريد، ككل فتاة، ككل
امرأة، أن تأتي أنت.. لكنك، في لعبة الاعتداد، أردت أن آتي
أنا.. وها قد أثبت.. حضرت أمينك.. كنت سعيدة.. كنت فرحة كطفلة..
اندفعت وهائتك، وقفت إلى جانبك، فرضت نفسي عليك، طلبت
منك أن آتي إلى بيتك.. قبلت دعوتك إلى العشاء، وبعدها جئنا
إلى هنا، وها نحن نشرب، وها أنت تصنع لي مفاجآت جديدة،
بعرض هذه الثياب، وهذه الحلوى، وهذه التحف علي، وبعدها
تغمري بلطف نادر، بعمرة كبيرة، جعلتني، من فرط الحب
والسعادة، أركع وأنت تجلس على كرسيك، في حركة أردت منها
إظهار عاطفتي أكثر من إبداء خضوعي.. فماذا تريد بعد..؟ أم
تشبع زهواً ومرجسية؟ تقول لي: «يا أميري!» وتعاملني كجارية..
هل هذا سلوك لائق؟ ألا تراه سلوكاً يليق برجل شرقي، واعتذري
على الكلمة، رجل قادر على الزواج من عدة نساء، وقادر، إذا كان
يريد تقليد التجار الذين حدثنا عنهم ألف ليلة وليلة، أن يشتري ما

شاء من المجواري.. لكن اسمع.. أنا لن أكون جارية، ولا زوجة رابعة، ولا فتاة تباع نفسها.. إنني أرفض.. خذ (ويدأت تخلع الحلي وتلقها أرضاً) خذ هذه الأشياء.. ألبسها لسواي، أغربها من شئت.. لكنني أنا، بيروشكا، ألتقي كل هذه المغريات على الأرض، وسأذهب ولا أعود..

- أنا أريدك صادقاً دائماً..

- إذن صدقي أنني لا أريد منك شيئاً.. أرجوك، اسمحي لي أن أشرح نفسي: لست زاهداً فبك.. لو كنت امرأة أخرى، أي امرأة، كنت أريد منك ما يريده الرجل من المرأة، ولكن أنت.. انظري.. لن أخدعك.. أنا أعزك، أعزك معزة كبيرة، من أجل ذلك أصونك.. أذبح أذاي عنك، ولعلك أن تقولي: ما سبب هذا الموقف؟ يعزني ولا يحبني، يعزني ولا يريدني.. كيف يكون هذا؟ أجيبك: لأنني أعزك أحترمك.. لا أريد أن يكون في موقعي استغلال لتعلقك بي، على فرض أنه كذلك.. افهميني.. لست نذلاً ولا أريد أن أكونه..

- وهل هناك نذالة في أن تحبني؟

- هناك نذالة في أن أخدعك.. أنا أعزك ولا أحبك.. فمة فرق، معها يكن بسيطاً، فهو قائم بيننا.
- ولكنك تتصرف وكأنك تحبني..

وقف ومضى إلى النافذة.. هل يحق له أن يصدم عاطفة هذه الفتاة؟ يتصرف معها وكأنه يحبها.. هذا حقيقي، التصرف بلباقة، بود، بمعزة، هو تصرف فيه لون من الحب، لكنه لون لا أكثر.. أما الحب، الكامل بكل قوته، كل عنفه، كل اندفاعته، خارج

دائرة القرار، خارج برودة العقل، هو الحب الحقيقي، ومثل هذا الحب غير موجود، ولا يستطيعه.. ولم يستطعه يوماً حتى الآن.. إن فمة شيئاً شاذاً في هذا، لكنه الواقع.. إنه لا يحبها ذلك الحب الذي يملك عليه نفسه، والدليل على ذلك أنها تستطيع أن تغادره، ولن يجد دافعاً لأن يركع أمامها، لأن يسكن على صدرها، لأن يقول لها لا تغادري.. وتستطيع أن تفارقه نهائياً، ولن يشعر بأنه سيموت، أو يحزن، إنه هي فقط ذلك.. سلوكه، نحوه، ما زال يحكمه العقل.. وتلك هي المشكلة.

يا بيروشكا! قال لها، بودي أن أحبك. أن أبادلك مشاعر أكثر عمقاً وحرارة، لكنني عاجز.. ثم هناك شيء لعله السبب.. وأنت تفهمين.. لشرب كأسيتا.. يا أميري التي خرجت إلي من كتاب ألف ليلة وليلة هذا المساء..

شربت بشية كبيرة. كانت قد وقفت وراحت تدور في الغرفة، هذا الاستياء عليها. استشعرت إهانة بالغة، تعرض قلبها فيرفض. تعرض جسدها فيأبى، أي رجل هذا! وما هو السبب الذي يحول بينه وبين أن يحبها وأن يضاعفها.. قالت:

- أنا لا أفهمك يا كرم.. منذ لحظة لقائنا نسمد أن تكون لغزاً.. هل هذه طريقة في القنص تجيدها؟ أصنى إليها دوناً مقاطعة. وظل صامتاً يفكر، وهي ترمدي ثيابها استعداداً للذهاب.. وحين قالت له:

- أنا ذاهبة..

لم يتحرك في مقعده. لم ينهض لوداعها. ظل جالساً. قذفها بعبرة واحدة:

- أغلقت الباب وراءك عندما تخرجين..

عندئذ استدارت إليه، تقدّمت، وقفت قبالتها، حدّقت فيه بغضب، بنقمة، قالت:

- أنت لست حجراً.. لا تحاول أن تظهر أنك لا تحس، لا نبالي، لا تتأثر بكل ما فعلت.. قلت لي إنك لا تريد أن تكون ندلاً، ولكن هذا التصرف له اسم واحد: نذالة.

وقف، كان يرتعش لفرط تأثره.. كان يشعر أنه غير مفهوم، وأنه مظلوم لذلك، وأنه لن يستطيع، بأية لغة تكلم، بأي شعور تبدى، أن يجعل أسبابه مفهومة ومقبولة منها، ومن حقها، لأنه كذلك، أن تنهيه بالغموض، وبالاتسراج، وبمحاولة إيهارها، وبتهريب لغة ذكاء خفية معها.. وفي اللحظة التي هتّت فيها بالخروج، اعترضها، سدّ الطريق عليها، قدّم لها خده وقال:

- اصفعي، أستحق.. افعلي هذا.. أرجوك أن تفعليه، إذا كان بنفس عنك، ويجعلك أكثر هدوءاً وأشدّ قدرة على الإصغاء لما سوف أقول.

- وماذا لديك لتقوله بعد؟

- كلمات بسيطة..

- لتخدعني أكثر، أو لتهينني أكثر..

- لا هذا ولا ذاك.. بيروشكا يا صغيرتي.. هل هدأت نورتك؟ أمامك هذا البيت.. حطّمي كل ما فيه.. كلّه يهون، إذا كان من شأنه أن يعيدك إلى السكينة ولو قليلاً.. هاتي هذه الحقيبة.. اجلسي.. أرجوك، لئأخذ كاساً أخرى ولتحدث.. سأقول لك كلمات قليلة.. وبعدها نصرّفي كما يحلو لك.. تناولته

حقيبة اليد.. هدأت قليلاً.. كانت، في ذاتها، على استعداد للهدوء، للرضوخ، كانت، في هذه اللحظة، ضعيفة جداً، برغم السعار الذي نشّى على وجهها.. أرادت أن تكون قوية، لكنها تكشّفت عن ضعف ناتج عن حب وعن شيء آخر اسمه براءة، طفولة، عدم تجربة كافية في التعامل مع الرجال..

تناولت الكأس وحاولت إفراغها كلها في جوفها، أمسك يدها «لا تفعلي! قال، متسكّرين، لا أريدك سكرى، ما زال لدينا كلام يقال، ولم ينته ما بيننا.. فقط اسمعيني، وصدقيني كما وعدت..» شرب كأسه هو الآخر وقال:

- أفضل أن أخسرك على أن أخدعك أو أكذب عليك.. أنا لا أستطيع أن أحبك لسيين: أولها، وهو الأهم، أنني عاجز عن الحب.. عاجز عن الحب الذي هو معجزة، أو كبير مثلها.. الحب الذي يجعلني أسيراً، مجنوناً، وقادراً على التصرف بطيش كامل.. وثانيها هو فارق العمر بيننا.. انظري.. أنت مثل ابنتي.. مثل ابنتي لو كنت متزوّجاً، وبعد هذا، تريدني أن أدفن شعوراً يعذبني، هو شعور من يدرك أن التكافؤ، من هذه الناحية، معدوم بيننا.. هل هذا واضح؟ ولكن لشرب جرعة أخرى أولاً..

قالت بيروشكا وقد انفجرت في بكاء مفاجئ:

- أفهمك ولكنني لا أصدقك.. لا أريد أن أصدقك.. أنت تحبني كما أحبك.. لكنك تتمرّز.. ثم ما مسألة العمر هذه؟ انتسها.. أنا أحبك.. أحبك لأنك تكبرني كما تقول.. متى كان فارق العمر حائلاً بين قلبين؟ وعلى فرض أنك لا تحبني، وأنتك تمرّتي فقط.. أنا أوافق على هذه المرأة ما دامت صادقة..

- في هذه الحال أنا لك بكل ما تطلبين ..

- قبّلي إذن ..

قبّلها في خدها .. امتصّ ، بشغنين حارّتين دمعاً كان على
وجنتها . لكنّها صاحت :

- قبّلي في فمي ..

وفعل .. ضمّها الى صدره .. وقال لها لا تبكي .. لا تبكي يا
عزيزتي الصغيرة الرائعة ..

قالت :

- ولن تتقدّم إلي بوصية أبوية لعينة كما فعلت في المرة السابقة ؟

- لن أفعل ..

- وسنام معاً ؟

- من غير شك ..

- وستكون لطيفاً ..

قال وهو يتذكر البارمان فرانكس :

- لن أكون عجرياً ملموناً على كل حال ..

- ١٠ -

في الصباح ذهب كرم إلى الجامعة فألقى درسه في الحصّتين
المقرّرتين ، كان طلابه ، اليوم ، أكثر انجذاباً إليه . حاولوا أن
يتحدّثوا عن الأسمية الأدبية ، طلب أحدهم أن تكون كلمة كرم في
الأسمية مادّتهم الدراسية لهذا اليوم . أغروه بالخروج عن الدرس
المقرّر للكلام على الأدب ، من خلال ما سمعوه منه أمس . رفض ذلك
محزماً . يعرف شيطنة الطلاب ورغبتهم في أن يلعبوا مع مدرّسهم لعبة
تدّح ، يجرونه بها إلى الكلام على حياته الخاصة ، على شعره أو قصته
أو لوحته ، إذا كان شاعراً أو قاصّاً ، أو رساماً . أوقف اللعبة بغير
ردع يسيء إلى عواطف هؤلاء الشباب ، ولكن بغير تساهل في ما
يتعلّق بالدرس المقرّر . كانت تلك عادته ، فهو في الجامعة مربّب ، وهو
أمام برنامج عليه أن يتقيّد به وينجزه ، ثم إن الوقت المخصّص للغة
العربية قصير ، لا يتجاوز عشر ساعات في الأسبوع كله .

غادر الجامعة في الحادية عشرة والربع . لم تكن لديه سيارة ، كان
يجب السير ، ولا حاجة لتبديل وسائل النقل ، مشى حتى محطة
الترو ، ومن هناك ، في آخر شارع الجمهورية تقريباً ، ركب متجهاً
إلى بيته ، يتنازعه شعوران : رغبة في الراحة ، في النوم بعد السهر
الطويل ، ورغبة في أن يصغي إلى شيء من الموسيقى المادّنة وأن

يستعرض، كمعاداته، وقائع الأسس، ويرتب أشياءه النفسية، المختلطة في ذاته، برغم أنه لم يرتكب حاقة تجعله يندم على أيما تصرف. الشيء الوحيد كان خوفه أن يندع نفسه. وكان هذا الخداع واقعاً. كان يعرف أنه دون متحفه لا شيء، وأنه، في المضمهر، كان يريد يبروشكا جسدياً، وأنه توسل إلى ذلك بنوع من دهاء، تحت ستار طبية مقرطة. وبرغم أن كلمته استقبلت بترحيب وحاسة من قبل الحاضرين، إلا أنها، في الحقيقة، كانت جافة بعض الشيء، وتفننر إلى شواهد، وتوثيق، ومرونة، كانت غير مستوفية، بل سيئة، ولو ألقاها في دمشق لكشفت عن ضحالة ثقافته، عن جهله بالمعطيات المستجدة في عالم الأدب، خاصة الحديث منه، عن فقر السخ البيئي فيها، وعن الضرورة إلى الإطلاع، ومعايشة البيئة، والعيش في أجواء الوطن، أجواء ناسه، التي وحدها تشكل مقومات أدب حقيقي، أدب يلقي بطموح كاتب يحمل قضية.

هذه الخواطر التي آلت به وهو يكتب، ثم وهو يلقي ما كتب في الأمسية، لازمه بعد العودة إلى البيت أيضاً، وإذا كان، بفعل الويسكي، وتأثير يبروشكا، قد نجح في أن ينحس جانباً، يحترزها في اللاشعور، فإنه لم ينسها، وها قد استدعاها اليوم، في محاسبة مع النفس، ومصارحة داخلية كاشفة بتطلبها كي يظل في الطريق السوي، ولا ينحدر إلى مغريات الغربة وأخلاقياتها. كان، فيما يتعلق بواجبه حيال الوطن، صارماً، أو مياسراً أن يكون كذلك. هذا الواجب. في المنفى المفروض، يتحدّد بالقدرة على العمل، ضمن الحيز المتاح، والجنس الأدبي الذي يزاوله، وهو كتابة الرواية، صحيح أنه ليس فوضوياً، ولا بوهيمياً، ولا متبلّد الإحساس، لكنه قد يتصرف، بدفع من خلقه كفنان، تصرفاً فيه بعض الخروج على

المألوف. كان هذا من حقه. لم يكن يشعر بأيما تبيكت للضمير من جرأته. لا بد له من صوت متميز في الفن، وهذا ينسب الروح الفردية، روح اللهو والسهر والاستمتاع، لكنه ضد الإغراق في ذلك. هذا ما فعله في أوروبا، وفي الصين، وسبقه في البحر. الحب. السهر، الرقص، اللهو، لكن مع هذا كله، أو قبله كله، العمل، ليس العمل الوظيفي، مصدر الرزق، بل عمل الإبداع، أن ينجز روايته، التي هي في الأصل، جزء من واقعه، باعتبارها تتحدث عن كاتب يعاني عذاب الغربة. وقد لاحظ، في الأمسية، أن عزف نصر جيل، كان رائعاً، لكنه لا يتناسب مع دراسته الموسيقي في البحر، لم يكن قد وضع أية قطعة موسيقية، فيها النكهة الشرقية، فيها صورة الوطن، ونيس الحياة الشعبية، فما سبب هذا؟

أطل من النافذة، كان أدامو الإيطالي في الحديقة. كانت هناك أيضاً المظلة، وسرير الطفلة.. راقبه قليلاً، كان أدامو يقرأ، ينهض بنكاسل، يغير مكان المظلة، ومكان الطفلة. أما نلسون الذي يقرأ الماركسية، ويبحث في تطبيقاتها النظيفة، فهو يتفياً ظلال شجرة وارقة، ويكتب، من حين لآخر، بعض الملاحظات، لإعداد كتابه المنتظر عن النقاء، والاستقلالية، والخصائص الأوروبية، وعن عدم مقابلة العنف بالعنف، وأشياء أخرى، من بينها القضية المجرية، وكيف لم تفهم استقلالية أمري ناجي، وعن الخطأ في التدخل، من قبل دولة أخرى، مؤكداً أن الثورة المضادة، ومقاومتها، شأنان داخليان تماماً.

قال كرم في نفسه وهو يراقبها: «هذه تسبلة الذين لم يعد لديهم، في قضية النضال، ما يعملونه. العناية بالطفولة جيّد. الطفولة جبلة، وهنا يوفرون لها كلّ متطلبات الحضانة، والنمو، والتنشئة

الحيدة، لكن الآباء، في هذه البلاد، يعملون في المناجم والمصانع والحقول لتوفير عيشة الامتياز لهذا الإيطالي الذي مطلته الملونة، هي حدود دنياه المرفهة.. ولن يتأتى للنسوة، أن يفهم أن المناضلين الأوائل، كانوا يقرأون الماركسية في المعاصر، على أضواء الشموع، ويرتدون الأكفان، لأنهم يعتبرون أنفسهم شهداء أحياء.. إن الذين يموتون، على أعواد المشايق، والذين يذوون في الجون، بسبب طموحاتهم إلى العدالة، وهذه المناضلة المجرية التي ألغىها جماعة أمري ناجي، من الطابق السادس، هؤلاء جميعاً لا يدخلون في حساب ماركسيته النظيفة..

بعد الظهر ذهب كرم إلى صديقه فرانتس.. ومد رأه هذا صاح:

- ها.. أيا الصديق.. كيف الحال؟ كيف الصديقات.. هل كنت عجزياً مهن؟..

- إلى حد ما.. المرأة، يا فرانتس.. في كل مكان، تحب بعض العنف.. أنا لم أكن عنيفاً، لم أكن عجزياً.. عملت بنصيحتك، لكنني لم أكن لطيفاً جداً..

صاح فرانتس وهو بعد قدحاً لكرم:

- إلى البالوعة بكل اللطف.. أنا لا أحب اللطفاء جداً.. هؤلاء يشكرونك جداً.. يعطونك لطفاً بديل البخش.. أولاد عاهرة لا أكثر.

- هذه نصيحة مفيدة يا صديقي.. لن أحب اللطفاء جداً بعد اليوم، لكن لدي كمية منهم هذا المساء.. سأقيم سهرة في بيتي..

- أنت؟.. وبهذه السرعة؟.. جيد، ومن سيحضر حفلتك؟

- بعض الأصدقاء من الطلاب العرب، ومعهم صديقانهم، وموسيقار عربي، يدرس في المجر.. سيعزف لنا أشياء شرقية..

- وددت لو كنت موجوداً.. لكن عملي، في الأصل، ليلاً.. وبالنسبة.. تذكر تلك الفتاة التي لعبت بك لعبة صغيرة السبت الماضي؟.. رأيته أمس.. قالت إنها ستزورك مع خطيبها..

- ما اسمها؟.. لقد نسيت..

- يوزا.. يتادونها روزيكا للتحسب.. لماذا لا تدعوها؟ لدي رقم هاتفها..

- لا أستطيع الليلة.. ربما في المستقبل.. في سهرة مقبلة.. هل تنوي أن تكثر من السهرات في بيتك.. في هذه الحال تنافسنا.. تأخذ زبائننا..

- اطمئن.. لن أنعامل مع زبائنك أو غيرهم..

- قال فرانتس:

- يا صديقي الطيب، فهمتك منذ اللقاء الأول.. أنت تريد.. قاطعه:

- لا أريد شيئاً، جئت لأمر آخر..

- ما هو؟

- سأعدي في معرفتي الأشياء التي تتطلبها الحفلة.. أرجوك..

- اسمع.. سأرسل معك أحد الفتيان إلى هذا المحزن القريب..

إنه «سوبر ماركت».. تستطيع أن تشتقي ما تريد.. أنت لن تقدم

لصيفوك الويسكي والحنّ والسزانون.. أليس كذلك؟ هذه أشياء

غالية.. للسهرات الخاصة.. مع صديقة مثلاً.. في سهرة الليلة غد صندوقاً من البيرة، بعض زجاجات النبيذ، بعض الكونياك.. ثم

اللحوم الباردة.. سأكتب هذه الأشياء في ورقة، وسيعاوتك الغنى في شرائها، وفي إيصالها بسيارة إلى البيت..

« يا صديقي الطيب، قال له، هذه خدمة تستحق عليها ترقية. أنا لن أكون لطيفاً معك، أنت لا تحب اللطفاء، ولن أكون غريباً، غير أن ليلة ستأتي، ليلة رائعة نهر معاً، في بيتي، ونعربد إلى الصباح. أنت رجل أرحم. لكن هذه الكلمة تدخل في باب اللطف، أليس كذلك؟.. قال فرانتس: يكفي ما سمعت من لطفك.. سهرة طيبة، جرب ألا تشرب كثيراً، ستكون، آخر الليل، بحاجة إلى وعيك.. وإلى قواك.. أنت تعلم، إلى اللقاء ».

المرأة البوابة، في بيته، كانت تكره اللطف أيضاً. كان كرم يترجم لطفه إلى هدايا، من أجل ذلك استأثر، دون الساكنين، بؤدها.. إنها تعرف، بحكم عملها، أن تترجم خبرتها إلى خدمات، أن تبادل لطفاً عملياً بلطف عملي.. وقد قام زوجها، المشرف معها على البناء، بنقل طاولتين، ودرزينة من الكراسي، وأخرى من الصحن والأدوات إلى شقة كرم، هذه الأشياء، التي تزود بها الشفق، لكون البناء مفروشاً، وأشبه بفندق، قالت لكرم: « أنت وحيد، إذن بحق لك قدح وصحن وملعقة وشوكة.. الأدوات على عدد أفراد العائلة.. لكنك، أنت، تستطيع أن تطلب ما تريد.. أقم ما تشاء من السهرات، لكن دون أن تغلق راحة جيرانك، انتبه، لا أريد شكاوى إلى الإدارة ».

وقال حسن، عندما جاء مبكراً في المساء:

- أيها الملعون.. من أين لك هذه الأشياء كلها؟ أنت لا تنام مع البوابة المعجوز.. أليس كذلك؟

- ولماذا لا أنام؟ الفقير يأكل « خبزاً يابساً ».

- أنت تأكل خبزاً « طازجاً ».. أعرف كل شيء.. أمة العرب في حال طيبة..

وقالت بيروشكا حين دخلت البيت:

- يوزيش ماريو.. (يا يسوع ابن مريم) كيف دبرت كل هذا؟ كم أضعت من النقود، يا حبيبي المجنون..

أما ضياء التركي فقد قال، بعد أن عاين الترتيبات:

- محكم

ولم يزد على ذلك لكنه، بعد قليل، واثق نوبة من السعال، طلب قدحاً مسبقاً من الفودكا، فقال حسن:

- وأمة الفرس، تريد قدحاً أيضاً.. أنت، أيها الملعون، تفضل الويسكي.. أنت ولد شيطان..

بعد ذلك تعاون بييج وبيروشكا على صنع بعض التوابل والمقبلات. كان بييج يضحك لحراقة بيروشكا في مساعدته ويقول لكرم بالعربية:

- إذا لم تتعلم بيروشكا هذه صنع بعض الأشياء، فستكون أول من ألقيه من النافذة.. ماذا تفيدك هذه الأنسة التي تكتب الشعر كما تقول؟ ينقصنا شعراء في بلادنا؟

استهزأ هادي:

- أنت تعمل وتسكت.. بيروشكا قطعة من المنحف..

وقال بييج وهو يضحك مكشراً عن أسنان طويلة..

- وقطعة من السرير أيضاً..

فقال كرم جاداً:

- أرجوك ، ولا كلمة سيئة بحق بيروشكا .. هذه صديقتي ..

قال بهيج :

- نحن نمدحها .. أنا لا أعرف طريقة أخرى لمديح القتيات .

قال هادي :

- لا نريد هجاء ولا مديحاً .. بيروشكا تتصرف كأنها سيدة البيت .. وهي كذلك بتوصية من كرم .. وفي هذه الحال أفضل ما تعمله هو أن تغلق فمك ..

قال كرم :

- دعو بيروشكا وشأنها .. لنسرع في إنجاز المثلات ..

أسرعوا ما استطاعوا ، وعندما فرغوا من الترتيبات ، انصرفوا لارتداء الثياب اللائقة ، وإحضار الصديقات ، ولم يبق سوى بيروشكا ، التي ظلت تدخل وتخرج ، بين الغرف والمطبخ ، دون أن تعمل شيئاً .. كانت ترتدي ثوباً يكشف عن صدرها ، والجري الأبيض ، الرائع ، بين يديها ، وشعرها الفاتن ، الذي أسلته ، لأنها تعرف أن كرم يريد مبعلاً ، وأغنية من الهجة ، غير مذاعة ، تنداح في الجو ، والقمر العجوز ، من النافذة ، يضحك في لحينه الفضية ، ورضى بغير الصدرين ، بحس ، ولكنه لا يترجم ، وقبلات منهوبة .. وبيروشكا تقول :

- كرم .. ماذا أفعل أيضاً ؟

قال كرم :

- لا شيء .. يكفي ما فعلت !! أنت سيدة بيت هائلة .. يمكنك

سماع الموسيقى ربما استحم .. تأذنين ؟

في الثامنة بدأ الأصدقاء يتوافدون . كان كل منهم يصطحب

صديقه .. بيروشكا كانت تحسن فتح الباب ، والترحيب ..

- تشك (تفضل) .. تقول وهي تبسم ، وتفتح الطريق للقادمين ..

لكنها ، قبل بدأ من نظراتها ، لم تكن مرتاحة لمجيء النساء ، لم تكن مرتاحة أكثر لإعجابهن المفرط بالبيت والتحف .. وبمعية ناقت هادي ، في المطبخ ، عن هذه التشكيلة العجيبة ، كان هادي محاوراً جيداً صوراً أفلح في إقناعها أن الجميع أصدقاء ، ولا خطر على المتحف ، إذا ما تجاوزت فتاة ما ، التعلبات ، ولست إحدى التحف .. مع ذلك سحبت بيروشكا كرم إلى زاوية وقالت له :

- هل أنت مرتاح لهذه المجموعة من القطع .. ؟

- وما علاقتي ؟ .. لكل فتاة صديقتها .. هذه هي طبيعة السهرات .. أرجوك كوني طيبة .. السهرة لما تبدأ بعد .. دعي حاسبتك المفرطة ..

أخيراً جاء نصر ومعه عوده . كان حسن وضياء قد جاءا وحيدتين .. لم تكن ، لأي منهما ، صديقة .. ولم يكن مناسباً ، في رأيها ، إحضار زوجتيها .. وقال حسن :

- اللعنة عليك يا ابن العرب أنت .. من أين أحضرت كل هؤلاء الناس ؟ متى تعرّفت بهم ؟ وبيروشكا ، هذه ؟ وقال ضياء :

- محكم .. كرم أعد لنا سهرة رائعة .. وأنت ، يا حسن ، يا بني .. لا تكن قارصاً جلفاً .. الليلة على الأقل ..

في التاسعة بدأت السهرة .. بدأت بموسيقى ناعمة ، وبعض الأغاني العربية لغيروز .. وبعض الكؤوس .. كانت هذه فترة تحمية ،

ثم أطفئت الأنوار.. وأبقيت مصابيح ملونة.. وصاح جورج:
- ايشو هاد خبؤ.. روماتيك؟

نقر نصر جيل على عوده: صمت! وكان ألبوش يشرح، بصوت خفيض، لصديقه شيئاً عن هذه الآلة الموسيقية الشرقية، التي تشبه العيتار.. فعاد نصر جيل ينقر على عوده احتجاجاً، وصاح هادي:
- صمت يا جماعة..

وصمت الجميع..

بدأ العزف خافتاً، بكاد لا يسمع، كان متسقاً، هرمونياً، يتدرج صموذاً، بأنامل سحرية، ثم انعطفت إلى مقام الصبا، فالنهنود، ودخل منطقة المقامات، وسيطر على الجو.. لم يعد أحد يتكلم، لم يعد قادراً أن يتكلم.. كان العود ملكاً، كان ملك الطرب حقيقة، لكن نصر، بحكم دراسته، مزج شيئاً من الموسيقى الغربية في اللحن الشرقي وصاح طالب عربي، من المدعوين:
- الله أكبر!

ولما شرزته العيون، أقفل فمه.. الإعجاب في القلب.. لا كلام صلاة. العود يصلي.. ويبروشكا تلتصق بكرم، تداعب يده.. وهو، باليد الأخرى، يداعب شعرها، يتخلل حريره بأصابعه، ويشرب لاعتنا السنوات التي قضاها في الصين، مستذكراً صديقه هيدجي، وكلمته: «عندنا مثلاً..» ونزل بهيج، بكل قامته العملاقة، وسجد أمام نصر، وراح يهر رأسه طرباً..

دامت الوصلة الأولى قرابة نصف الساعة، ولما توقفت العود، انطلقت الأصوات بهتفة واحدة:

- براقو.

أشعلت الأضواء، وتعالى رنين الكؤوس، في أنخاب لا تنتهي، كل مع صديقه ثم مع الجميع..

وقالت فتاة:

- روماتيكوش! اطفئوا الأنوار..

أطفئت الأنوار من جديد، وأعلن نصر.. وهو ينيه إلى الصمت:

- الآن، عجم عشيران، لأجل صديقنا حسن..

صفقوا..

- براقو!

وراح العود، من مقام العجم، يسلمن، وحسن يضع يديه على رأسه ويقول، برغم التحذيرات:

- باء! باء! باء!

وعلق ضياء، بلكنته التركية:

- مُحكم، استاذ، مُحكم..

وانتهى عجم عشيران. تصفيق. براقو. رنين الكؤوس.. قبلات بين الأصدقاء، وأعلن نصر:

نوركشاه.. نغم تركي..

نصب ضياء جذعه.. ملأ قدحه جيداً.. وعلى نقرات عود حنون، في تقسيمات شرقية، راح ضياء، كصاحبه حسن، يهر رأسه طرباً، مترجماً شبابه، وهو يصيح:

- أمان جانم، أمان جانم (آه روعي، آه يا روعي).

وانعطفت ضير إلى أغنية بحرية شهيرة محبوبة: «ازاسيب»

(عيون جبلة) وشرع الجميع كورساً جامعياً، يَنْتَوْنَ للعيون الجميلة..
وجورج يصيح:

- ايشو هاد خيَو.. نصر.. أنت ملك المود..

وصديقه تصفق.. ثم نهضت، ورقصت.. كانت طويلة، غيلة،
ورقصتها الإنفرادية، مع النغم، وإيقاع التصفيق، خلقت جواً
حماسياً مجنوناً.

رَنَ، في هذا الجو اللاهب، جرس الباب. أسرع بيروشكا، ثم
عادت تقول:

- بورناش (البوابة)..

خرج كرم مسرعاً.. استدعى هادي للترجمة. حسب أن ثمة
احتجاجاً من الجيران، لكن البوابة قالت:

- ايرجكا المغنية، ايرجكا الفنانة، في المدخل، تسأل عنك..

ركض كرم للاستقبال، كانت مفاجأة. دوى التصفيق في
الداخل.. رجع هادي وأعلن عن قدوم ايرجكا، أفسحوا لها مكاناً
في الصدر. دهشوا للمفاجأة.. حسبوا أن كرم قد فعلها،
واستقدمها.. إلى الحفلة الساحرة كمطربة.. وحين دخلت، بجهاها،
بأبنتها وبرصانتها وقفوا جميعاً.. صفقوا.. وضعت يدها على فمها،
منحت قبلتها للجميع، أما كرم فقد أدارت له خدها.. قبلها
وأعلن:

- صديقتي ايرجكا..

صفق الحاضرون من جديد.. وقف نصر، الذي يقدر موهبتها
فقبل يدها منحياً.. صاحت الأصوات:

- روماتيكوش!! أطفئوا الأضواء..

أطفئت، لكنها، حين أضيئت ثانية، كانت بيروشكا قد
اختفت. ظنّها كرم في المطبخ، في التواليت، في المجاز الخارجي،
بحث في كل مكان فلم يجدها، نزل يسأل البوابة عنها، فقالت له:

- خرجت.. خرجت وهي تبكي.. ماذا جرى؟ لماذا

زعلتها..؟

عاد كرم وهادي إلى الداخل صامتين.. تظاهر كرم بالسرور،
راح يشرب بنهم. ينتظر أن تعود بيروشكا، لكن بيروشكا لم تعد..

لم تحتمل الصدمة.. ولم تتأ أن تسمع أيّ إيضاح حول ايرجكا.
انسحبت.. قرّت من المعركة قبل أن تبدأ. كانت عصفوراً انقضّ
عليه باشق من سماء عالية جداً..

ولم يعرف كرم كيف يتصرف.. اختلطت عليه الأمور.. يحزن
لذهاب بيروشكا؟ لفرارها؟ أم يفرح بمجيء ايرجكا؟ الزيارة
المفاجئة أذهلته، ولم يجد من دواء سوى الكأس.. وحين غلت
ايرجكا، ضح الحاضرون، صفقوا طويلاً، ازدادوا جنوناً، وقال
ضياء:

- يرافوا مُحكم..

لكن كرم كان قد دخل منطقة الصمت نهائياً، ولم تتحل كُفّه عن
الكأس.

شعرت ابرجكا أنها جاءت في غير وقتها، هذه السهرة، هؤلاء الحضور، نصر جميل وعوده، تلك الفتاة التي هربت، خروج كرم إثرها، ثم عودته خائباً.. كل هذا لفتها. تصرفت وكأنها لم تلحظ شيئاً. غنت أغنية واحدة. اعتذرت أنها متوتكة، ولهذا لم تقدم الليلة فقرتها في برنامج ملهى مكسيم الذي نعمل فيه.

كان حضورها المتميز، الحفاوة التي استقبلت بها، الحناء نصر جميل لها، الحماسة والتصفيق لأغنياتها، كل ذلك كان قميناً بأن يزدحمها، بل إن هرب بيروشكا وحده، وما يعني من وطأة سلطتها، ومن انتصارها في هذا العمر، على فتاة صغيرة وجميلة، كان جديراً بأن يجعلها سعيدة غاية السعادة، وفي الواقع لم تكن تنقصها السعادة. كان مرورها على بيت كرم هدفه ردة الزبارة، واصطحابه إلى الملهى، لكنها، منذ ألقت نفسها في جوف كهذا، وساعها الموسيقى الشرقية، في تقسيات ومقامات نصر جميل، وبعثتها بهذه الحميصة من الحاضرين، تمهلت في الانصراف، ثم قررت البقاء، متناقة إلى أن يُغنى لها، بعد أن أمضت أعواماً من عمرها وهي تغني للآخرين. هذا، على الأقل، ما جال في خاطرها، لكنها، في اللاشعور، كانت تواصل عملية السطو على الآخر، في الإحساس الذي يبعث نشوة

بأنها هي المرأة، قادرة أن تصدر رجلاً، وأن تخضعه، وأن تسحق امرأة أخرى، وتجعلها تستسلم من المقابلة الأولى.

هي، في البدء، لم تكن تريد الاستئثار بكرم. بالعكس، أرادته وسيلة متعة عابرة، في ليلة مسورة بالشبق، تقول له بعدها: «اذهب». كما يقول أي رجل لأية امرأة، بعد ليلة كهذه «اذهي».. الآن اختلف الموقف، اختلف النظرة، الهدف، صار حاجتها أن تكتشف من هو. أن تعرف، وهو بين هؤلاء الكثير من مدعوية، كيف ادعى أنه ضل طريق البيت، وكيف يملك متحفاً كهذا، وما علاقته بالفتاة التي هربت، وهل لعب بها لعبة ذكية، في وقت كانت نظن أنها هي، صاحبة هذه اللعبة، وأن المصادفة وحدها، وضعت في طريقها، تلك الليلة. لقد حسبت أنها تصنع معروفاً، تصنع له بهجة، وتتساق مع حادث طريف إلى مداه الأقصى. لكنها، الليلة، كانت أمام واقعين: هذا الجو الحلو، غير المتوقع، الغريب، المترف، وهذا التجاهل، بين أن تغلب أو تُغلب، بين أن تواصل دورها، في اللهو بإنسان ساذج، وبين أن تصبح هي الهبة لرجل داهية بأكثر مما كانت تتصور..

الآن، كما فكرت، تبدأ مرحلة أخرى، قد لا تعنيها كثيراً، وقد تكون قصيرة جداً، لكنها، في كل حال، تضعها أمام تجربة جديدة، دفعها التحدي إلى أن تقضي بها إلى النهاية..

لهذا، عندما انقضت السهرة، تربتت في الخروج. طلبت فنجاناً من القهوة.. طاقت، ريثما أعده لها كرم، أرجاء البيت، كان النور كاملاً الآن، انتهى الجو الرومانتيكي. عاينت كل شيء بهدوء.. لم تدعها التحف. غاظتها. اكتشفت أنها خدعت، كان يؤهلها أن تُخدع. هذا لا يجرح كبرياءها فقط، بل يجعلها تشك في ذكائها

وفراستها أيضاً، هي التي خبرت أصنافاً من الرجال. إن هذا البيت، هذا المتحف، هذه السهرة، أدلة دامغة على أن كرم بقيع في بودابست ويعرف كثيرين فيها.

أما كرم فقد تذكر جيداً أنه أعطاها عنوانه. على هذا العنوان جاءت الليلة، جاءت لتتأكد أن ما قاله صحيح، وأن له بيتاً، وأنه لم يغادر بودابست، بعد تلك الليلة التي أمضاها معها، وقد توقع كل شيء، إلا أن تأتي هي، وأن تفسد الجو مع بيروشكا إفساداً غير قابل للإصلاح، ولهذا كان متشاء، وكان يرغب أن تدعه وتتصرف. إلا أنها بقيت. فمة حساب يحتاج إلى تصفية!

فتحت النافذة. أطلت على الحديقة. انتعشت من طراوة الليل. لكنها في الداخل. كانت تعاني إحساساً بعدم الرضى. ولما اقترح عليها، وهما يشربان القهوة، ويجلسان حول المائدة الصغيرة التي سحبها قرب النافذة، أن يسمعا شيئاً من الموسيقى، رفضت.. مضت إلى الهاتف، طلبت الملهى. أخبرت الميتر أنها متوعدة، ولن تقدم فقرتها الليلة. كرم لم يفهم شيئاً. هتف بدوره إلى جورج، يسأله عما إذا كان هادي ما يزال عنده. التمس منه أن يرسله إليه. جاء هادي، أدركت أنه طلبه للترجمة. الفاموس الذي استعانا به، في تلك الليلة، غير موجود، كرم تلقى بعض الدروس بالجرية، على يد اليوش، لكنه لا يستطيع أن يشرح نفسه، ولا أن يتبادل حواراً معها.

سألها عما ترغب من شراب. فتحت لها البار الصغير، طلبت كأساً من الجن، مع عصير الليمون. شرب هادي نبيذاً، هو اختار الويسكي. انتعش قليلاً. حاول أن يصفى بعض المرح على الجو. أن يجعل الجلسة الصغيرة جميلة. لكنها، هي، تحدثت غير قليل

بالجرية مع هادي. شرح لها هذا الموقف. كان محنكاً.. قال إن كرم كاتب، وقد اشترك في أمسية أدبية، وأنهم اقترحوا، بعد الأمسية، أن يسهروا الليلة عنده، وهذا ما صار.

- وتلك الغناء؟ سألت..

- طالبة في كلية الآداب.. وكانت من حضور الأمسية.. دُعيت على هذا الأساس..

- أنزلت معنية على أي أساس دُعيت.. ما يعني لماذا انتحيت؟ أسأله.

سأله. قال كرم:

- لست أدري.. لعلها شربت أكثر مما تحتمل..

قالت ايرجكا:

- لم أفتنع.. ما هي العلاقة بينكما؟ أهى صديقتك؟

- نعم: قال بغير تردد.

- وأنا؟

- صديقة أيضاً..

- صديقتان في وقت واحد؟..

أضافت:

- أعذرك.. الرجال، عندهم، تكون لهم أكثر من زوجة،

فكيف بالصديقات!

قال كرم:

- المهمني يا عزيزتي ايرجكا.. ليس كل الرجال، عندنا،

يكون لهم أكثر من زوجة.. أما أنا فليس لي حتى زوجة واحدة..

معنى هذا أنني غير مرتبط، وليس عندي التزام تجاه أي امرأة.. أقصد بالالتزام هنا الحب.. أنا لا أحب بيروشكا، ولا غيرها.. غير قادر على ذلك، ولا أريد أن أخدع أيما فتاة أو امرأة.. الحب العاصف، المتدفق كموج، لم أعرفه بعد.. أشعر بحنين إلى امرأة، لا أدري متى ألتقيها، ولا أين.. في الصين يعتقدون أن جنبة تسكن القمر.. ربما كنت أعشق جنبة القمر.. ما عدا ذلك لي أصدقاء وصديقات.. أنت واحدة من الصديقات.. وكنت أنوي زيارتك، لكن بعض المشاغل والرغبة في تعلم شيء من اللغة المجرية، جعلتني أنريث..

قالت ايرجكا:

- على فرض أن ما قلته كان صحيحاً، أي رقم بين صديقاتك أحل أنا؟

- أنت فتاة.. صداقتك من نوع خاص.. ثم إنني لا أوزع أرقاماً على أصدقائي..

- وهذا المتحف؟ يجبل إلي أنه شبكة صيد جيدة..

- لم أصطد به ولا سمكة حتى الآن.. أنا صياد فاشل..

- أنت ماهر في الكلام.. هل هذا لأنك كاتب؟

- من قال ذلك؟

- أنا أجاب هادي. سألتني بعض المعلومات عنك..

قال كرم:

- وماذا يعني حتى لو كنت كاتباً؟

- كيف؟ هتفت.. يا ألهي! أن يكون المرء كاتباً.. هذا شيء

كبير.. البست الحال كذلك عندكم؟

لم يحب على السؤال. ماذا يقول لها؟

قال هادي:

- نشرب نخب تعارفنا.. أنا أيضاً رأيت كرم أمس لأول مرة..

- ألم تسمع به قبل ذلك؟ أعني أليس مشهوراً عندكم؟

- سمعت.. كنت أتمنى أن أراه، وها هو الحظ.. من كان يظن

أنا سلتني في المجر؟

« - بوتي لو حدثني عن نفسه أكثر بما فعل.. لماذا أخفى عني

حقيقته تلك الليلة؟ هل هذا طبع أم دهاء؟

- ليس طبعاً.. أحب أن أترثر أحياناً.. أتحدث عن نفسي بغير

تحفظ، ولا حرج، ودون أن يسألني أحد.. لكن ماذا كان يجب أن

أقول لك.. أنا كاتب؟ عندي متحف؟

- تركت ذلك لتضع لي مفاجأة.. هذا من الدهاء أيضاً..

قال كرم:

- أنا لست ذاهية في الواقع، ولا أصلح لهذا الدور.. سأكون

صريحاً فأقول إن لي طاقة عاطفية تكفي أكثر من امرأة. على هذا

الأساس، وبطبيعة قلب كاملة، أرغب في أن تكون لي أكثر من

صديقة. أقول صديقة لا حبيبة، أنا إنسان محروم من الحب. نقطة

الغناء، والسذاجة، صدي، هي أنني لا أفهم لماذا لا نريد المرأة أن

يكون للرجل أكثر من صديقة.

قالت ايرجكا:

- وهل يريد الرجل، هل تريد أنت، أن يكون لصديقتك أكثر

من رجل؟

قال كرم:

- هذا لا يعني كثيراً.. أنا لم أسأل أيما امرأة عن أصدقائها..

- هذا ناتج عن فهم حضاري أم لامبالاة؟؟

- لا أدري..

- بل أنت تدري.. هذا ناتج عن لامبالاة، وهذه ناتجة عن

إنعدام الحب، وإنعدام الحب يولد إنعدام العبرة، أنت فقير ومعذب من الداخل..

قال كرم:

- هذا صحيح جداً..

- ومعناه أن انصرافي الآن، لا يولد أي أسف في نفسك..

- أنت شيء آخر..

- أنت لا تقول الحقيقة.

- إنني سيء الخط، لأنني غير مفهوم، أو غير قادر أن أشرح

نفسي.. أنت شيء آخر.. منذ هذه اللحظة أنت شيء آخر.. أنت صديقة يا عزيزتي ابرجكا! كوني صديقة طيبة.. ولا أطلب أكثر..

- وباسم الصداقة نريدي امرأتك في بعض الليالي؟

- ليس هذا.. أنت أكبر.. أستطيع أن أمتنع عن قضاء أي ليلة

معك، ومع ذلك أبقي صديقك..

- على أي أساس؟

- لا أعرف.. أليس في الحياة أشياء غير معروفة الأسباب..؟

لشرب، يا عزيزتي، كأس صداقتنا، وهذا قول نابع من القلب.

شربت ابرجكا.. تقبّلت ملاطفاته، قبلاته على يديها، وطلّت

نفسم وتفكّر.. لقد كان، بالنسبة إليها، رجلاً غامضاً، لكنه صادق

في قوله وتصرفه.. تتركه وتفضي؟ تقبل صداقته على ما فيها من غرابة؟ تأخذ تغلب أطواره على أنها أطوار كاتب..؟

قال كرم:

- لقاؤنا كان مصادفة غريبة عن الضرورة نفسها.. إنني أفهم

ظنونك، مشاعرك، قطيعتك حتى لو قت، لكنني، حيال كل ذلك،

لا أستطيع شيئاً.. لم أجن بعد.. أنا عاقل، مصيبي أنني عاقل،

العقل بجانب الحب، يقتله..

قالت ابرجكا:

- يا صديقي المسكين.. أنا أشق على حالك.. وباسم هذه

الشفقة أنسى كل شيء عنك، وكل ما قلته من كلمات.. وأستأذن في

أن أنصرف..

قال كرم:

- ليس قبل أن أقدم لك تذكّراً، وأن أرافقك إلى بيتك.. لدي

خاتم نين يا ابرجكا، نادر جداً، هل تقبلينه، وتضعينه في أصبعك،

من صديق مرّ يوماً في حياتك؟

نظرت في ساعتها، كانت الثانية بعد منتصف الليل، قالت كرم

أحس أنه تأخّر:

- إنني أستأذن.. يجب أن أعود.. أنت تتكلم كساحر أو

شيطان.. أرغب في رفض هديتك، وأرغب في قبولها كتذكّار..

لماذا هذا القدر من الشهوانية في عينيك؟ هيا.. هات خاتمك

وسأنصرف.. لا أريد، الليلة أيضاً، أن أنساق مع نداء لا أعرف

مصدره..

أعطاهما الخاتم.. قبلته. نهضت. قال لها:

- سأرافقك.

- هل ترى ذلك ضرورياً؟

- إذا لم يكن ثمة مانع لديك..

- وأي مانع هذا؟ أكون مسرورة.. ولكن ماذا يقول صديقك؟

- قال هادي:

- لن أقول شيئاً.. تفضلاً..

أضاف مازحاً:

- أنا لست إلا ترجائاً علفاً.. انتهى دوري، وسألزم الصمت..

ضحكت وقالت:

- تستطيع أن تقول إن ايرجكا خطفت صديقك الكاتب بعد

منتصف الليل..

- لن تكون يبروشكا سعيدة بهذا الخبر..

- ولا أصدقائي.. وهذا أفضل.. حين أريد شيئاً لا أبالي..

يستطيع المعجبون أن يضعوا رؤوسهم في ماء مثلج..

- وماذا يقول النقاد الغنيون؟

- لا أدري، ولا أبالي.. فنانة وكاتب.. هذا خير جيد.. لم تبق

إلا الصورة..

- في المرة المقبلة تحضر كاميرا..

- أحضر معها صحفياً حثرياً يحب نشر الأخبار الفنية المثيرة..

- هل هذا تحيد؟

- ليس لك، ولا لكرم.. للآخرين.. قال كرم إنه سيراقتي.. أنا

أقول إنه سيقضي ليلته معي.. هكذا أكون أنا! خرجوا، وعند

تقاطع الطرق، قرب السفارة الفيتنامية، اقتربوا.. ذهب هادي باتجاه نادي الصحفيين، وذهب كرم وايرجكا في سيارتها باتجاه «بيضا اوتسا»، وكانت تحيات فضوليات في السماء الصيفية تتغامز.. وغت ايرجكا، بصوت خفيض، أغنية ما، وتوقفت وسألت:

- كرم.. لوبلو ايرجكا؟.. (نحب ايرجكا)

- دا.. (نعم)..

- خراشو (جيد)..

تابعا الانطلاق.. جولة أخرى على الدائوب.. هذه عاداتها، هوايتها، قبل أن تستلم، كمنحة إلهية، إلى الرجل الذي اختاره... وفي البيت تابعا الشرب.. شربا نبيذ توكاي. قرّر الأ يقترب منها إلا حين تدعوه، لكنه، عندما نامت عارية، دافئة، راضية، اغتم إلى درجة الانخفاف.. مع ذلك ظل يفكر بالحياة الجديدة، المليئة، الصاخبة التي عليه أن يجهاها، فبالو ظل مواصلاً طريق السهر والشرب وإقامة السهرات في بيته. قال في نفسه: «قريباً أصفّ إلى جانب ادامو ونيلسون وكيريانو.. أسهر ليلاً وأنا م نارا، أقم بين ايرجكا ويبروشكا. أصبح طرفاً في منافسة بين امرأتين.. أعتمر ما تبقي من قوتي لأرضي هذه وتلك. أؤجر نفسي مقابل كلمات حلوة، يبتلع الشيطان عنقي وأصير داعراً، أغوص في حمأة حياة قذرة، جنسية مجتة، خالية من أي معنى.

وفجأة نادته ايرجكا: «ماذا تفكر؟ ماذا تنتظر؟ هل أنت

تعب اليوم؟»

كان عليه أن يثبت أنه ليس تعباً، ولا يمكن أن يتعب. لكنه، في صورة ابليس، تبدّت عيناه المغممتان بالشهوة وهو ينظر إلى

جسدها الأبيض، الرخص، الممدد، المنتظر.. وبخلاف ما كانت تتوقع، لم يقفز إلى السرير.. فتح زجاجة توكاي أخرى، وقف وأشعل سيكارة، راح ينظر إليها وعيناه ترززان شعاعاً حارفاً..

بعد أن نامت أيرجكا، ظل هو مسهداً. الدم يقرض قلبه. هذا السرير الذي ينام عليه، كم نام عليه رجال قلبه، أيرجكا، بعد كل شيء، فنانة، ربما كانت يظلمها بأفكاره السيئة هذه. إنها محترمة، ولها قلبها، وعواطفها، وممارسة الحب، عند الإعجاب برجل ما، لا بشكل مأخذاً أخلاقياً عندها. هي لا تبغ نفسها، جرب معها في ليلة سابقة. ليست بحاجة إلى المال، وحتى لو كانت كذلك فإنها ترفع. الفرق بين أن يمارس الإنسان الجنس لأجل الحب، وبين أن يمارسه لأجل المال، كبير جداً. في أوروبا هكذا هي الأشياء. صحة أكثر، في الشرق يخلطون هذا بذاك، كل حب ممنوع، كل ممارسة مرفوضة، الفئانة والعاهرة سواء.. الشرف محدد في الحوض. افعل ما شئت في السر.. إذا استطعت الاستمرار بقيت شريفاً. نفاق اجتماعي.. المجتمع هناك منافق، لكنه يظل مجتمعنا.. ولا يستطيع المرء أن يسلخ عن جلده.. التخلّف قائم، وتجاوزة، بالتصنيات وحدها، استحيل، التطور يبدأ بالقاعدة.. الأخلاق مرتبة فوقية.. إذا لم تتغير الحياة من القاعدة، يستحيل تغييرها من القمة، وهذا التغيير يتطلب جهوداً، تضحيات، نضالاً متواصلاً، وهذه الغربة جزء من النضال، أو هي بسببه، لكنك، يا كرم، انتهيت إلى «نضال» «بائس» محصور في الفراش.. اللعنة عليك!

تسلل من السرير يرفق. حمل ثيابه وخرج إلى الصالون. هناك ارتداهابيدوه، دون إثارة أي نامة. كان الفجر يوشك على الطلوع، ومن جهة الشرق، تلوّنت السماء بتوشحات حمراء.. أغلق الباب دون

ضجة.. دون صوت. أثر الغزل على الدرج، فلما صار في الشارع، تنهّد بارتياح.. أنعشه هواء الصباح البارد، تمنّى أن يمضي إلى ساحة الأبطال، ومنها إلى الغابة، أو إلى المسبح القريب.. لكنه، حين بلغ «ينتزور أوتسا» وجد نفسه يتجه إلى البيت، ويحذر أدار المفتاح في الباب الخارجي، ولم يأخذ المصعد.. ارتقى الدرج بحاذراً، وأول ما فعله، حين دخل بيته، أنه فتح صنبور الماء في المغسول وخلع ثيابه وغرق في الماء الدافئ.. ولما كان اليوم أحداً، وليس لديه أي عمل، فقد أسدل الستائر.. سدّ حتى فتحة الرسائل في الباب، وقرر أن ينام.. وأن ينسى..

نجاه ما يقرأ. هذا ما كان يدفعه إلى التدخين، إلى السكر، وكثيراً ما توقف عن قراءة رسالة مؤلة، وهرع إلى مقهى الإذاعة يدخن، يشرب، يفكر بوطنه تركيا، باسطنبوله، بالذين، كما قال ناظم، يعملون ٢٤ ساعة في ال ٢٤ ساعة وعلى جلودهم الصفراء، بلوح السلّ والاصفرار.

هذا الشقاء، من جرّاء الغربة، والرسائل، والمرض، كان يهده هدأً، لذلك كان، في السهرات، وحول مائدة الطعام، يقص بعض ما يشقه على ولديه. لكن ابنته الصبية، المراهقة، التي عاشت في الغربة، ولم تعرف تاريخ تركيا ولا بؤسها، كانت تقول لأُمها متبرمة:

- لماذا، والدي وأنت، لا تتوقفان عن رواية كل هذه القصص البائسة علينا؟

تقول الأم:

- لأنها قصص الوطن..

- وما ذنبنا نحن حتى تسمّ حياتنا بها؟

- كي تعرفنا، أخوك وأنت، في أيّ شقاء يعيش شعبنا!

- عرفنا.. يكفي ما عرفنا.. وماذا بعد، ماذا نستطيع؟

- نستطيع، حين نذكر ذلك، أن نحسّ بالآلام تركيا، وطننا

العزير..

لكن الشابين كانا يرفضان الإصغاء. وكان هذا الرفض يزيد في شقاء الوالدين، وقد قالت سميحة لكرم وهو يشرب القهوة، جالساً لصق ضياء، متأثراً لحاله:

- ابنتا، الذي يعيش في رفاه الحياة هنا، يقلب شفتيه، أمام إقطار مؤلف من الزبدة والمرّي.. أقول له:

- ١٢ -

كان ضياء يعمل بغير انقطاع وهو يبيع دخان سبكارتته. جسده الطويل أشبه بالهيكل العظمي، يهتز وهو يعمل، عيناه تحفظان تحت وطأة انفعال ربوي، وزوجته، سميحة، ذات السمرة الحلوة، تُعيد له العشاء في المطبخ. كانت أفضل مذيعة في القسم التركي، حلوة صوتها، رنته، الفتنة للعب فيه، واللهجة الاسطنبولية، تصفي عليه سحراً خاصاً. كان عليها، بسبب أنواع من الأمراض، أبرزها الربو، يعاني منها زوجها ضياء، ان تقوم بعمل إضافي، هو عمل زوجها الذي لا يستطيع أن يجلس وراء الميكروفون. لكن ضياء، الكاتب، صاحب الأسلوب الجميل، كان يقرأ آلاف الرسائل، ويردّ عليها. معظم هذه الرسائل من العمال الأتراك، المشردين، في كل أنحاء أوروبا، وخاصة في ألمانيا الغربية وفرنسا، وكانت أعماهم من تلك التي يترفع الأوروبيون عن مزاولتها، مثل التنظيفات، ونقل النفايات، والخدمة في الفنادق والمطاعم.

رسائل هؤلاء العمال، إلى القسم التركي في إذاعة بودابست، كانت طافحة بالشكوى من حياتهم البائسة. قصص عن شقائهم لا تنتهي، وكل واحدة تصلح لمسرحية درامية. وكان ضياء، برغم نصائح زوجته سميحة، لا يستطيع أن يكون لامبالياً، أو حيادياً،

اسمع يا سنان، نحن، في صغرنا، كنا لا نعرف الزبدة.. وكنا نفاقل أمنا، كي نلخص قليلاً من المرئي إذا وجد.. كان الحبز الأسمر، البابس، غذاءنا اليومي.. ولتغيير هذا الواقع السيء، ناضل رجالنا الأتراك.. لوحقوا، سجنوا، أعدموا.. وأنت هنا، لا تعرف شيئاً عنهم، عن الذين يذوون في سجوننا.. ولا تقرأ حتى شعر ناطم، أو قصص والدك.. أنت تطيل شعرك، وتجلس في الحديقة، في الغيم، تعزف على الغيتار.. كيف ستعرف تاريخنا إذن..؟ أنعرف، يا كرم، بماذا أجبني؟ قال:

- لا أريد أن أعرف شيئاً. ولدت في الجبر.. هنا سأعيش، لن أعود إلى تركيا، في أيّ يوم..

- تعيش في مجتمع بناء سواك؟

- ولماذا لا؟

- وتنسى الوطن.. تنسى الأناضول؟

- اذكره أنت.. أنا لن أصدع رأسي بهذا.. انظري ماذا فعل التفكير بوالدي..

- والدك رجل شريف، مناضل.. والدك تركي حقيقي..

- لا أحد ينصبه على ذلك.. يعيش في الجبر، حسناً، ليتمنع بالحياة المرفهة المتوفرة له..

قال ضياء:

- يا صديقي كرم، زرت أمس صديقنا حسن.. تعرف أن زوجته صينية، وأن ولديه يشكلان الصينية، ويتعلمان الحرية في المدرسة.. لكن حسن يخصص ساعتين كل يوم، كي يعلمها الفارسية.. لغة الآباء كما يقول.. إنه يذكر تبريز ويسكي.. يتساءل:

تري، تتحرر من حكم الشاه يوماً؟ يتوقف نهر الدماء الذي يغوص فيه شعبنا؟ وإلى متى نبقى مشردين، في المنافي؟.. حسن إيراني أصيل، لا يريد لولديه أن يعيشا في الغربة.. أن يتبدلا، ويستعدبا الحياة المتعة هنا..

قال ذلك ويده على خده. دخان سيكارتته التي تحترق وحده كان مشرعاً. كان ينسج، في حلقاته الرمادية المتصاعدة، شكلاً حلزونياً للألم.. كان شيء ما، يرى ولا يعرف، كالح، مفعج، ينسرب مع الدخان، منقوئاً من شفتين مسمومتين، متصلتين بالقلب مباشرة. كانتا سداتين لقناة الرئة الحزينة، العاملة بوهن، وسواد كشف يغلفها. وكان ضياء، في اتكائه على الطاولة، وسيكارتته التي علاها الرماد، وعينيه السافرتين في أبعاد الأناضول، لوحة بحمة للشقاء الإنساني، المحبط في توفقه إلى خلاص البشرية. وزوجته سميحة، يرف على جماها الحريفي، ظل اسحم، ونفسها المرمضة، الممزقة بين الحزن لأجل الوطن، والحزن على الزوج العليل، تنطلق من نظراتها صرخة احتجاج خرساء، لا في عتبتها على الغربة، ولا قسوة الظروف فقط، بل على الولدين اللذين جرّدتها تسيّبات النفي من نبل الشعور الذي كان غذاءها، كان سندها، وكان قوام حياتها التي ترفض أن تفرق في الحسرة، وتكفّ عن النضال في سبيل ما هو أفضل.

«ضياء، أيها الأب المعجوز الطيب، ويا سميحة، يا رفيقة كفاح لا تلوح له نهاية، لننهض وتنمناق، نحن إخوة. كلنا إخوة، لا تضمنا جامعة فكر فقط، ولا يوحد بيننا أننا نحمل صلياننا، عبر هذا العالم المذبذب، بل كذلك وثوقنا في أن دنيانا هذه، التي لا تثبت، تحت أقدامنا سوى الشوك، ستعرف أن تطلع لنا زهراً

أيضاً.. ولا بد أن يبقى، من يبقى منا بعد المعركة، كي يلبس قميصه الأبيض وفي عروته وردة حراء..

أنت سميحة بثلاث كؤوس.. شربوا.. ثم ما يقال بعد.. هناك فرح أيضاً.. لتفرح قليلاً.. سيتعلم أولادنا، على طريقتهم الخاصة، وسيفهمون، وسيدكروننا، على الأقل: «لقد فعلوا ما استطاعوا»..

قال ضياء:

- إذا لم يعد ولدائي إلى تركيا مت وفي قلبي حسرة.. لا أريدكم أن يتعاطوا مع الغربة كوجبة جاهزة دسمة.. عليهم أن يروا كم هي السماء صافية، والنجوم مشعة، في ليالي الصيف هناك..

فكر كرم: «هذا كلام مخصص شخصياً.. لا أولاد عندي.. لكن أنا، إذا ما بقيت بعيداً عن الوطن، إذا ما استمرت هذا العيش الهنيء ماذا يصير بحالي؟ ترى أستطيع العيش وأبني؟ أحياء عائلة، مرتزقاً، منعماً، في ترف المتحف، وأحضان النساء؟..»

كانت صحوة الوجدان هذه، إثر تنبيه كهذا، ولو لم يكن هو المقصود به، تسبب له نيكيت ضمير موجعاً. لكنه لاحظ، أن هذه الصحوة، وهي كل ما بقي ليذكره بأمه، كانت تشع، كشمس في متحف، فلا يفكر بالواجب إلا أثناءها، وبشكل يتناقض تأثيره تدريجياً.

فطن إلى أن هذه الصحوة، لم تعد مطلوبة إلا للتبرير، ليقول، في نفسه: «أنا لست كالأخرين.. إنني أفكر بالوطن» وبعد ذلك ينسى.. والمفجع بالأمر، أن مثل هذا التفكير، في المناسبات الطارئة، كان سلوكاً للآخرين أيضاً. كانوا يقولون: «اللعنة على الغربة!» ثم يستمرّون، وبأشكال من الممارسة لا تتطوي على أي

شعور بوطأة الغربة، أو بالرغبة الصادقة في وضع حد لها، والعودة إلى البلاد.. ثمّة أعذار كثيرة. كل واحد له عذره. يخترعه إذا لم يكن موجوداً. هو أيضاً سيكون له عذره عند اللزوم، وحين يتزوج، لو تزوج، من يروشكا أو غيرها، يصبح عذره شرعياً: إنه مرغم على العيش، حيث زوجته وأولاده..

وقد افضى بهذه الخواطر إلى صديقه جورج الذي زاره، ذلك المساء، فقال: هذا:

- أنت على حق، ولكن إلى متى يستمر مثل هذا الشعور؟
أضاف: وبالنسبة، كانت السهرة جميلة أمس.. كانت سهرة عربية في قلب بودابست.
قال كرم:

- نصر عازف رائع.. منذ كم من الأعوام يدرس الموسيقى في المجر..؟

- يدرس الموسيقى؟ إنه مسجل لدراسة الموسيقى، لكنه لا يدرسها.. دراسة الموسيقى تحتاج إلى جهد، إلى تمرين على العزف، إلى الجلوس ساعات أمام البيانو..

- وماذا يفعل إذن؟

- كما يفعل الآخرون.. يعيش في المجر.. ألا يكفي هذا؟ إنه على كل حال، يستفيد قليلاً من الجو الموسيقي.. أما الآخرون..

- لا يدرسون؟ قل لي.. كيف هي أحوال الطلاب هنا؟ أنت رئيس الرابطة..

- العالم الثالث جعل من البلاد الاشتراكية مزرعة دراسية.. كان الله في عون هذه البلاد..

- أراك تشكو.. ألا تسير الأمور الدراسية على ما ينبغي؟
كانا يجلسان على جانبي طاولة مستطيلة. نحمد كرم أن يجلس بعيداً عن جورج، المريض بالربو، كيلا يزعجه الدخان. فتح النافذة وقال لصديقه: «اعذري، لا أستطيع التوقف عن التدخين». قال جورج: «لا بأس، ما دامت النافذة مفتوحة»، لكنه، بعد قليل، أخرج النفاخة ونفث هواءها في نفسه. كان مقلداً في الكلام. شعره أسود، على عينييه نظارتان مدختان، وفي جسمه رشاقة، وله رقبة قصيرة كأن رأسه قد ركب بين كتفيه مباشرة. كان يتبدى في صورة خارجية هادئة، قادرة على التفهم، والتأني، وعدم الشكوى، غير أن هماً يلوح على محياه، وحين أخبره كرم أنه كان عند ضياء، قال مبتسماً:

- هل تقوم بتحقيقات عن أحوالنا اليوم.. لماذا تستعمل وجع الرأس؟.. اصبر.. «سيأتيك بالأخبار من لم تزود».. حافظ على نشوة الأسس..
قال كرم:

- نشوة الأسس راحت معه.. لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت.. أريد أن أعرف..

- لولا خوفي عليك من تلوث السمعة لقلت لك عاشر محمد حميش قليلاً.. هذا أستاذ في فنون تيسير الغربة، وفنان في تعليم الآخرين كيف يفيدون من كل شيء..

- أريد أن أراه، وأجالسه.. لا تخف على سمعتي.. لدي أسئلة، أسئلة كثيرة يا جورج.. كنت في الصين، مررت بوسكو.. قالت لي بيروشكا أشياء، لكنك أنت، رئيس الرابطة، تعرف أكثر

من الجميع.. توقّر على تعب التجربة.. قل لي، أأنت قلقاً، وقد تكون مترعجاً، من بعض التصرفات؟

- مترعج؟ نعم.. ولكن ماذا يعني هذا؟ أينما كنت وحيثما ناضلت، كان عليك أن تعالي، أن تتحمل..

- ولكنك مريض!

- ضياء مريض أكثر مني..

- أنا أشغقي عليكما معاً..

- رفقه عنا إذن.. أكثر من الحفلات..

- أفرح؟

انحنى جورج على الطاولة وقال بصوت عميق الجرس:

- استاذ كرم! لا تحاول معرفة كل شيء في أسبوع، أو شهر.. لا شيء يعلم مثل التجربة.. جرب بنفسك.. أنت الآن في المجر.. يهيج وهادي من أصدقاؤك.. سيأتي إليك الطلاب أيضاً، وفي المستقبل تتعرف على الجميع.. ستكتشف الأشياء بنفسك..

- بدأت أكتشف.. نافذتي تطلّ على المدينة.. رأيت ادامو الإيطالي ومنظّته، ونيلسون وكتبه الماركسية التي يقرأها وهو ينعم في الظل، وفي الشتاء يقرأها، كما أقدر، وهو يتشمس، ثم يتغلف، كما قال لي ضياء، حول النقاء النظري.. كذلك تعرّفت إلى كيريانو اليوناني، الذي يدّخر ما يأخذه من قطع نادر، كجزء من مرتبه، ثم يصرف الدولارات في السوق السوداء، ولديه سيارة، ويعمل لشراء بيت، والحصول على الجنسية المجرية، والبقاء في المجر نهائياً.

- تعرّف إلى محمد حميش أيضاً.. هذا نموذج للآخرين..

- قلت لك سأفعل، لكنني، منذ الآن، أعرف.. إنه يعمل في التهريب، ويشغل في السوق السوداء..

- وله امرأة في الاتحاد السوفياتي، وقبلها امرأة في بلغاريا، وتزوج الآن بحرية.. وبيته مخزن، من السروال النسائي، إلى أحدث أنواع السجلات.. وهو لن يعود إلى العراق.. وكثير من الطلاب، من كل البلاد العربية، ومن البلاد الأفريقية، يهربون، يتاجرون، يتزوجون، ويتذرعون بألف عذر كي لا يمودوا بلدانهم..

- ولماذا لا تطردهم المجر؟

- أسألك.

- ولكنني أسألك أنت.. كن صبوراً علي.. لم يحني أحد على هذا السؤال.. لا أسمع سوى الشكوى.. ثم ماذا؟ لتطردهم المجر.. تجعلهم عبرة للآخرين!

- وماذا تفعل بزوجاتهم وأولادهم إذا طردتهم؟ ثم لا تنس ضرورة المحافظة على العلاقات مع بلدان العالم الثالث، ومراعاة مشاعر الأحزاب الشقيقة..

- لا أمل في عودتهم إذن.. إنهم يتنعمون هنا.. يفضلون الحياة في البلاد الاشتراكية..

- لا.. إنهم يشتمونها.. يعلمون زوجاتهم أن تشتمها أيضاً.. يشكون.. لا يملون من الشكوى.. والسبب بسيط.. ليس لبعضهم سيارات مثلاً، أو لم يحصلوا على بيوت أنيقة، واسعة، برغم أزمة السكن..

قال كرم:

- يا للصورة البشعة! هل هذا معقول؟

نهض جورج وانكأ على حافة النافذة، فتح قفه كبعض الأسماك حين تخرج إلى السطح. كان ينقصه الهواء.. عيب كمية منه. استراح قليلاً.. التفت إلى كرم وقال:

- ليس من عادتي أن أمسك فرشاة وأطلي جدار الحياة بالأسود.. لو كنت رساماً ما استعملت الأسود إلا نادراً.. لماذا، إذن، تريدني أن ألجأ إلى هذا اللون، في رسم صورة قائمة جداً؟ منذ بدأنا الحديث وأنت مندهش، تكرر كلمة معقول بغير توقف.. هل تستغرب الأشياء؟ نعم، يا عزيزي، ما سمعته معقول تماماً.. الطلاب المتفوقون، الذين حصلوا علامات عالية في البكالوريا، لا يأتون للدراسة في البلاد الاشتراكية.. يفضلون الدول الغربية، أميركا، إسبانيا على الأقل.. أما الذين حصلوا على البكالوريا بعلامات متدنية، وبالمساعدة، فهؤلاء وحدهم الذين يأتون للدراسة هنا.. وماذا يريدون؟ الطب، الهندسة، الإلكترونيات.. هندسة البترول.. وطبعاً يرسبون، وعندئذ يتحولون إلى فروع أخرى، نظرية، لأنهم لا يريدون ترك الدراسة الجاهلية، مع الراتب، والتبيلة.. لدينا طالب اسمه شاكر.. والده عامل.. استطاع، بمساعدة ما، أن يرسله إلى المجر.. قضى سنتين في الطب وسقط، قضى سنتين في الهندسة وسقط، كان قد تزوج في هذه الاثناء.. ولا يريد العودة إلى سورية.. عندئذ طلب أن يدرس مكنتات.. وقس على ذلك.

- ولكن ما لا أفهمه هو التالي: كيف تزوج فتاة مجرية خريجة جامعة، طالباً خائباً كهذا؟

- هو لا يقول إنه خائب.. يقول إنه طالب طب، طالب هندسة، ووالده أمير، أو ثري كبير، وأن له في الوطن، سيارته

الخاصة، وأرضه، وبينه.. والفناء تصدق، يكون جيلاً قففتن به،
يعبرها بالهدايا، بالوعود، بخدعها، أو تكون مستعدة للانخداع،
للزواج بأي شكل..

- كيف هذا؟ يأتي الطالب فقيراً، ويعطى منحة على هذا
الأساس، وهنا يتصرف كبورجوازي، زاعماً أن والده وزير أو
مدير..

- اسمع هذه القصة. وصل طالب من بيئة شعبية في حلب إلى
بودابست، كان تقدمياً، وكان والده، قبله، تقدمياً أيضاً، ومنذ
وصل المطار وهو يقدم نفسه على أنه رقيق.. ثم تعرّف إلى الطلاب،
قالوا له: إذا تابرت على هذا المسلك، فلن تجد من تكثر بك..
ماذا يعني أن يكون أبوك عاملاً، أو مناضلاً، أو رقيقاً؟ قل إنه
صاحب معمل.. عنده مزرعة.. وإنك وريثه، وبيتكم شبه القصر،
ولكم فيلا ريفية أيضاً.. لقد رفض في البدء.. ثم قفل كغيره..
أصابته العدوى.. وجد نفسه يدرس مجاناً، يأخذ مرتباً، يأخذ
تمويض ألبسة وكتباً.. لم يعد تحت رحى الفقر.. نسي أصله. خدع
إحدى الفتيات وتزوجها، وحين عاد، ومعه زوجته وولده، واضطر
إلى السكن مع والديه، في غرفتين ضيّقتين، اكتشفت الفناء
الحقيقية، لكن بعد فوات الأوان.. ماذا تفعل عندئذ؟.. الافتراق
عن الزوج سهل، ممكن في كل وقت، لكن الولد، وهي أم؟ فكّر في
وضعها واحكم بنفسك!

- في هذه الحال، من الأفضل أن يدرس طلابنا في الغرب..
- هذا مبدئياً صحيح.. رجعي عربي قال: إذا أراد الإنسان أن
يغير أفكار ابنه أو بنته، فليرسلها للدراسة في البلدان

الإشترابية.. هناك يجدون كل شيء جاهزاً، ينسون أصلهم،
يبدلون أفكارهم.. أما في الغرب، حيث ينتظر الطالب حوالة أهله
كل شهر.. ويهرب من البيت بسبب التأخر في دفع الإيجار، وبأكل،
إذا أكل، لحمة قاسية كالنمل، فإنه يظل تحت مطرقة الحاجة، يفكر
بالظلم والعدل..

وقف كرم دون إرادة. استغزاه ما يسمع. حسب أن جورج
يبلغ. هل يتعذّب مع الطلاب ولذلك يحقد عليهم؟ إنه يفترى..
يصيح به: "أنت تفترى.. أنت تضع نظارات سوداء.. وترسم
بالأسود بأكثر مما تظن؟" اقترب منه.. اقترب أكثر، قاله له
منفعلًا:

- هذا خيف! خيف جداً يا جورج! سمعت هذه الشكوى، قبل
الجمي، إليك، من ضياء التركي.. لكنها لم تكن بهذه المرارة.. أنت
مرضى.. مرضك ينعكس على مشاعرك.. ضياء..
قاطعه:

- ضياء معدن نادر، وكذلك حسن، وفهمي.. وهناك،
للإنصاف، مناضلون، من كل الأجناس، وطلاب أذكاء مجتهدون،
نزيهون.. المهم ألا يبقوا طويلاً هنا.. الماء، إذا استقر في بركة مدة
طويلة، يفسد..

- أنت تصحهم بالعودة إذن، أليس كذلك؟
- بالدراسة، والعودة، وبأسرع ما يمكن.. لكن تصادف أحياناً،
انتهازيين مفرقين.. طالب، من إحدى الدول العربية، كان ذكياً،
مجتهداً، تقدمياً، وقد جاء للدراسة على هذا الأساس، وظل كذلك
حتى تخرج طبيباً، ثم سعى لمنحة اختصاص فحصل عليها.. وعندما

اختص وتخرج انقلب.. صار يشتم المجر.. بتدح اميركا.. حاورته،
في الحتام، قال لي: حرفياً: «الآن سأعود إلى بلدي. نظام الحكم فيه
ضد المجر، ضد الشرق، مع الغرب، وأنا بعد هذه السنين التي
قضيتها في الدراسة، وفي حياة مطبنة، لا أريد أن أعرض نفسي للملاحقة،
أو للسجن.. بعد هذا العمر، وهذا الاختصاص، ينبغي أن تكون
لدي سيارة، وبيت، وثروة.. وكذلك زوجة جميلة.. من أجل ذلك
لا بد من تبديل جلدي.. أنا أبذل جلدي، وقل عني ما تريد.. لا
خلاف فكرياً لدي، بل مصلحة، هذه هي الحقيقة.. إنني رجل
صريح..»

- وماذا فعل بعد رجوعه..؟

- صار من زلم السلطة.. يشتم البلد الذي علمه وأطعمه.. قطع
صلته بكل العواطف الإنسانية.. إنه يكوي المرضى، يسلخ
جلودهم، يجري جراحة غير ضرورية، لأجل المال..
- يا له من نذل!

- الأندال كثيرون.. سترى الكثيرين منهم هنا، وكثيرين بعد
عودتك.. أو تحسني في البالغين؟! لماذا فرضت علي أن أتكلم على
كل هذه الأمور السيئة؟

- ولكن هل يعقل أن بعض المرء اليد التي أحست إليه؟

- يقطعها أيضاً.. وما المانع؟ إذا كان شتم البلدان التي درس
فيها، يسهل له أن يدخل الجامعة، أو الوظيفة، ويلتحق بالطبقة
البرجوازية، وينام كل ليلة في حضن زوجته، فلماذا لا يفعل..؟
لماذا لا يشتم؟ لماذا لا يناقش فيزعم أنه على خلاف فكري.. أكثر
الذين نظاهروا بالخلاف الفكري كانوا انتهازيين، كانوا منافقين..
وصوليين لا أكثر..

ساد الصمت بين المتحاورين. جلس جورج وكأنه تعب من
الوقوف. مقرف.. هذه هي الكلمة.. مقرف سلوك المرتد..
جورج لا يقرف فقط، يتألم.. قال كرم في نفسه: «أنا الذي تسببت
في ألمه.. إذا أصابته نوبة ربو أكون مسؤولاً..» راح يذهب ويحيي
في الفرقة دون أن يتكلم.. اللعنة على كل شيء.. صار كل شيء ذا
صلة بالقرف: متحفه، سلوكه، وهو نفسه.. الأوغاد يسترون بخلافاتهم
الكاذبة جورقة.. هؤلاء المرأة، الزناة، الذين يبيعون أنفسهم
وشهاداتهم لأجل وظيفة.. آه.. ألا يعرفونهم هنا؟ التفت إلى جورج
مغضباً، سأل:

- يعرف المجرىون هذه الحقائق؟

- قد لا يعرفونها كلها.. لكنهم يعرفون الكثير، هنا وفي كل
البلدان الأخرى.. لكن هذا لا يحول بينهم وبين أداء واجهم تجاه
البلدان الفقيرة، المتخلفة، النامية كما نسميها.. تحدثت مع أستاذ
بحري، هو عميد لكلية العلوم الاقتصادية.. تعرف ماذا قال؟
اسمع: «نحن لا نعمل على اعتناق الطالب مبادئنا.. هذه مسألة
شخصية، هو حر بها.. ما يهمنا هو مساعدة البلدان النامية..
الكلام، وحده، لا يفيد.. لأجل استغناء هذه البلدان عن كواد
غربية، رأسمالية، مشبوهة، لا بد أن يكون لها كوادرها الوطنية..
لا تستطيع أن تقول لبلد استغنى عن خبر في الزراعة يأتيك من دولة
استعمارية، قبل أن تشيء له خبراً من وطنه نفسه.. إذا أقمت
معملاً للأقمشة، تستطيع الاستغناء عن استيراد الأقمشة الأجنبية..
هذا ينطبق أيضاً على المهندسين والأطباء والإداريين وجميع
الفنيين. إننا نربي كوادراً للبلدان النامية، ولا يهمنا، بعد ذلك، أن
يشتمونا.. المهم أن يستغنوا عن الآخرين.. هذا هو الطريق لبناء

الاقتصاد الوطني، للتخطيط، للتنمية، وتنفيذها.. إننا لا نعلم
أدنا لنشأنهم، حتى إذا صدرت من طلاب تخرجوا من جامعاتنا..
قال كرم:

- ولكنه عقوق !

- وهناك وفاء أيضاً.. الأوفياء موجودون.. الخطر، كل
الخطر، من الإقامة الطويلة.. تذكر حكاية الماء الراكد.. إنه
يشكل مستنقلاً لا محالة.. ولكنني تعبت من الكلام.. ما رأيك
بزجاجة بيرة مبردة؟

- لا أرفض.. بل أطلبها بإلحاح.. تصدّع رأسي مما سمعت..
أحضر جورج زجاجة البيرة. كان مرتاحاً لأنه قال ما يريد،
ومثالاً لأنه قاله بكل بشاعته. قال في نفسه: «النصائح موجهة إلى
الكاتب العزيز أيضاً، ولكن بطريقة أخرى.. المتحف جميل، رائع،
لكن هناك ما هو أروع: الكتابة.. أن يكتب عن الوطن ولأجله،
لأجل الشعب والأمة.. نراه يدرك أهمية ذلك؟»

شرباً نحيلاً أخوياً، شيء ما محبب في جورج جعله قريباً من قلب
كرم.. كان يدرس الفيزياء.. ولكنه، وأسفاه، كان مريضاً بالقلب
أيضاً.. وقد أجرى جراحة.. لكنه يحتاج إلى الهدوء، الراحة،
البعد عن الانفعال.. وها هو في موقف لا يجد عليه.. رئاسة
الرابطة تلتهم وقته وصحته.. لكنه لا يتراجع.. يقوم بواجبه..
إضافة إلى عمل الترجمة الذي يقوم به في الإذاعة.

سأل جورج فجأة:

- ماذا تكتب لنا من جديد؟

- رواية عن الغربة..

حدثه عن «هيدجي» الهجري، المفتون بالمتحف، وكيف يحرم
نفسه وعائلته ليقتنيها.. روى له قصة الأسباني الذي مات في الصين،
ولم تأخذ زوجته سوى زهرة عن نعشه، ستحملها معها إلى الوطن،
أخبره عن المرتزقة الذين أطلوا ذقونهم وحلقوها في الصين.. أكد له
أن حياته، هناك، كانت هائشة، لكنه يتطلع صوب الوطن، يريد
الاقتراب منه والعودة إليه في أول فرصة..

طاب الحديث، تطاول، تفرّع، شمل الذكريات، شمل سهرة
الأسس، وزيارة الأصدقاء الهجريين للمتحف، وإعجاب روزيكا به
إلى حد الجنون..

صاح جورج، وهو يفتح زجاجة بيرة أخرى:

- ايشو هاد خاي.. هل جئت لتفتن الهجريات؟

تهنّد كرم، قال بنبرة أسي:

- ليس بوذي أن أقن أحداً.. ما تعرّبت طلبياً للملذات.. أنا

بحكم المنفى.. علي أن أعمل..

وإذا كان هذا المتحف اللعين سبباً في انشغالي، فإنني مستعدّ
لإعادته إلى الصناديق، إلى بيعه أو إتلافه..

قال جورج:

- ليس إلى هذه الدرجة.. أن تتسلّى قليلاً، ونحن ندرس أو

نعمل، فهذا جيد.. ما أظنك تسمع جديداً مني.. أنت تعرف أشياء
كثيرة.. لك خبرة طويلة بالحياة، وهذا يظهر في رواياتك..

- الخبرة وحدها لا تكفي.. أن غارسها، نفيد منها في عملنا،

عندئذ نقدم خدمة ما..

- ما تريده منك أن تكتب.. هذا واجبك الأول.. ولن

تستطيع ذلك إذا اعتزلت الناس.. نحن لسنا زهاداً.. لا تشعر بذنب
لأنك تسلى قليلاً.. ثم أنت محظوظ.. وايرجكا هذه.. ويروشكا
التي هربت..

- لاحظت هروبها؟

- طبعاً

- أنا لم أفهم تصرفها.. ايرجكا ليست سوى ضيفة كسائر
الضيوف..

- هذا ما يمكن أن نقوله لي.. أن تقنعني به.. لكن يروشكا
تفكر على نحو آخر.. إنها تحبك..

- وكيف عرفت بهذه السرعة؟

- من نظراتها إليك، جلستها إلى جانبك.. ثم كونك كاتباً،
ولديك هذا المتحف.. وهذه الأريحية..

قال كرم:

- هذا جائز، بل هو واقع.. تحدثنا به.. سألتني عما إذا كنت
أحبها.. لم أشأ أن أكذب..

- وماذا قلت لها؟

- صارحتها بما في نفسي.. أولاً أنا لا أحبها.. أعني لا أحبها
ذلك الحب العاصف، الذي يروض الإنسان، ويملك عليه نفسه.. ثم هناك
فارق العمر.. شمسها تشرق، وشمسي إلى غيباب.. ففكر بهذا يا
صديقي.. الربيع والحريف لا يلتقيان..

- واقتنعت هي بهذه الحجج؟

طبعاً لا.. عرضت عليها، بعد ذلك، صداقتي.. اتفقنا على أن
نكون صديقين..

- وايرجكا؟

- هذه لها قصة..

روى كرم، وهو يشرب بيرته الثلوجة، كيف التقى ايرجكا،
بعض مصادفة.. وكيف ذهب معها إلى الملهى الذي تغني فيه، ثم
إلى بيتها، وكيف جاءت ليلة أمس لمجرد زيارة عابرة، ووجدت
نفسها، فجأة، في سهرة عربية حلوة، وكانت سعيدة، كما أظن، لأن
يروشكا لم تصمد أمامها...

- هي قالت ذلك؟

- ايرجكا لا تقول هذه الأشياء الخاصة. المرأة المجرية، كما
يجب لي، قارس سعادتها وحزنها في ذاتها.. لكنني أدركت.. كل
شيء فيها كان بنادي بانتصارها.. ولشدة زهوها، استخفّت بما رأت
من تحف عندي.. لم تصرخ «جونيري».. انصرفت بالملهى وألغت
فقرتها.. قالت إنها متوعدة..

- وبعد؟

- ذهبنا لطوف في الشوارع.. ثم إلى بيتها..

- ويروشكا؟

- لا خبر لدي عنها.. كان يجب أن أسأل، لكنني أجهل رقم
هاتفها.. أجهل كل شيء، سوى أنها في كلية الآداب..

قال جورج:

- يروشكا تحبك كما يبدو.. لم تختمل رؤية ايرجكا.. الغيرة
نهشتها.. عرفت أنها غير قادرة على المناصفة.. ألقت سلاحها بغير
قتال..

- تحب أن قتالاً ينشب بين امرأتين لأجل عجوز مثلي؟

- قال جورج :

- هذا سؤال تعرف أنت جوابه .. لكنك تبحث عن تأكيد ..
أنت يا عزيزي لست عجوزاً .. أكبر من بيروشكا هذا صحيح ، وحتى
أكبر من ايرجكا فهذا واقع ، لكنك لست عجوزاً .. بيروشكا
تحبك .. ايرجكا تقوم بغامرة معك .. الكاتب ، هنا ، شيء عظيم ..
الآن يتسع بالحب والحياة والمال أيضاً .. ماذا تخسر ايرجكا
معك ؟ تبيع ..

- لكنها لا تريد شيئاً .. رفضت النقود عندما عرضتها عليها ..
كادت تصفني ..

- وهل عرضت عليها نقوداً ؟

- في الليلة الأولى ...

- ارتكبت حماقة .. ايرجكا ليست بحاجة إلى نقود ، ولا إلى
معجبين .. ولو حضرت الأسماء الأدبية لرأيتهما تلتصق بك .. وبعد
زيارتك ، ورؤية المتحف ، ومعرفة أنك كاتب ، ستظل على صلة بك ،
وقد تسرب خبراً فنياً عن علاقتها بك .. هذا يرضيها ، يريد في
شهرتها أيضاً .. أخطأت في عرض النقود .. الهدية كانت أفضل .. أن
ترسل لها باقة زهر إلى البيت ، إلى الملهى .. أن تقدم تحفة مما
لديك .. هذا أوقع .. المرأة المهرية حساسة جداً ..

- فعلت شيئاً من ذلك ..

- أحسنت ، ولكن قل لي ، ماذا ستفعل ببيروشكا ؟

- ما بها بيروشكا ؟

- هذه تحبك حقيقة .. احرص عليها .. أسأل عنها ..

- أين ؟ في الكلية ؟

- تعرف كليتها ؟

- أوصلتها ليلاً .. لكنني ، صدقتي ، غيبي في الجغرافيا ، مثل
غباتي في الحساب ..

- سنأل الطلاب أين تقع كلية الآداب ..

- أكون شاكراً لو فعلت ..

شرباً ما انتهى في الزجاجاة وافترقا .. عاد كرم إلى بيته .. وما
كاد يستقر حتى فرغ الباب .. كانت هذه البوابة ، وكان في يدها
مغلف أبيض ، دفعته إليه وقالت :

- بيروشكا !

صاح فرحاً :

- بيروشكا ؟

- ايكن .. (نعم)

- كوسنج سين (شكراً جزيلاً)

ابتسمت البوابة ابتسامة ذات معنى ..

ومضت دون أن تقول شيئاً آخر ..

عن النجم الذي علّقه بعيداً ، في القبة السليمانية ، البلورية ، الشفافة ،
المضاءة في ليلة صيف على الدانوب .

كانت الرسالة بالجرية . مؤسف غمات الخطّ الأثنى هذه ، كيف
السبل إلى فكّ رموزها ؟ كتبت نفسها بلغتها ، وجدتها أكثر
مطاوعة في البوح ، في التجوى ، في الشكوى ، في أن ترسم نفسها
دموعاً على الصفحات ..

- ١٣ -

. ومع الرسالة كانت قصيدة ، حاولت ، بقدر ما لبّيت اللغة ، أن
ترجمها إلى الفرنسية ، لكنها نقشت مفردات فقط : الحزن ، وقع
الخطى على رصيف الشارع ، وحشة الليل ، وحشة النفس ، بنمها ،
وانت ، انت انت ،... لماذا ؟ بأيّ حق ..؟ وتلك المرأة .. وداعاً .

ارتدى سترته بحركة فجائية ، لا واعية . ترك الضوء مشتعل ،
النافذة مفتوحة ، الصمت المسائل ، وصدى العتاب . قرّ إليها .
هربت منه . هرب إليها . كان عنوانها على ظهر المغلف . لم يتوقف
عند البوابة ليوضحها . ما عرج على جورج ليستنطقه الكلمات
الغريبة . أشار إلى أول تكسي ، ألقى نفسه داخل السيارة ، دفع إليه
بالعنوان . أشعل سيكارة .. قد تكون أوصلت الرسالة وعادت . إذا
لم يجدها فيستظرها . إذا نامت خارج الكلية سيترك لها كلمة . وقع
الخطى على رصيف الشارع . والحزن أثر ، خبط طويل كما في
الاسطورة ، كي يتندي به ، وهو ، الآن ، بحسه ، يضع إصبعه ،
كطبيب شرعي ، في الجرح الفائر .. الجرح الذي يمدته ، في مصادفة
غريبة ، أحدثه .. والدم يرعف ، ولم يكن جزاراً ، ولا كان يوماً
ذابح عصفور أو عنقود ..

أوقف السيارة على باب الكلية . لم يصرفها . إذا كانت

فعلاً كانت الرسالة من بيروشكا ..

من أوصلها ؟ متى أوصلها ؟ هل جاءت بنفسها ، وضعتها في نافذة
البوابة ومضت ؟ ما أرادت أن تراها ، أن تقول لها شيئاً ؟ أن تجعلها
تري ، في مرآة الوجه ، غيبة الريح في أن تهرّ قصصاً ، وتلمب معه ؟
في أن تغف ، هي التي دخلت المبني ، إلى جانبه مرهوة ، في حالة
انكسار ، كزينة حفل طوّحت بها ، قصفتها عصا رعاء ، لمزارع
جلف ، لا يجفل من الأرض بشقائق النعمان ، بشارة ربيع قادم ؟

لم يسأل البوابة شيئاً ، لو كانت بيروشكا عندها ، في غرفتها ، في
المدخل ، أمام المبني ، لفادته إليها ، لسحبه من يده لمصاحبتها . كانت
تعرف . تلك التي ترصد حركة الناس ، في ذهابهم وإيابهم ، ومن وقع
الخطى ، على بلاط المدخل ، ومن الضحكة ، على باب المصعد ، ومن
تعانق اليدنين ، سر الحكاية بينهم ، وماذا في القلوب من أشياء
تفضحها الشفاه ، كالعين ، وما تخفي الصدور .

دخل البيت . لهفته أشعلت الضوء ، يده قرأت الرسالة قبل
عينيه . من داخل المغلف ، وهو يفتحه ، انطلقت ميجانا : « حبّوا
علينا يس حبّو مثلنا » . انطلقت في نغمة أسيانة ، كمن يوصي وهو
يتشد ، لقد هوى قمر من المودة ، تحطّم ، خاب أمل ، ترحّج ، انفصل

سيخطفها. لم يأتها على حصان عندي ليردقها وراءه.. لا هو بالفتى، ولا لابس «قلب».. العمر والجو، كلاهما لا يسمنان.. السيارة وحدها، لو رآها، ستكون أرجوحتها، في الفضاء المعلق.. وستلاقى العيون، ويكون صمت، تقطعه ابتسامة..

جاءت بيروشكا، بعد دقائق.. منكسرة، جزعة، تصدق، ولا تصدق، وما أن رأيته حتى صاحت:

- كرم!

- بيروشكا!

- لماذا جئت..؟

- ولماذا هربت..؟

- هيا..

- إلى أين؟

- لا أدري..

- أنت لا تربدي..

- من قال هذا؟

- وإيرجكا؟

- يا صغيري، يا بنيتي، يا مجنونتي العزيزة!

كان، حتى في كلمات النجوى هذه مكشراً عن ذنب أكثر مما هو محب. هي تعرف هذا، تعرفه ولم تعد تخدع نفسها عنه. صديق صدوق. هذه هي الكلمة، غيرها، لعبة وهم. فوق ذلك، إيرجكا التي جاءت. لقد وافقت أن يكون صديقها لا حبسها. قنعت بما هو أقل، على أمل أن يتبدل، أن يصبح، يوماً، لها وحدها، ثم، في مواجهة الحقيقة، كانت ضعيفة حياله، تحبه، تحبه ولو لم يحبها.

الصداقة، حين تكون بحجمها، نوع من الحب، وعلى هذا النوع وطدت النفس، لكنه، حتى في هذا، يمنح نفسه للآخرى، للتي لا تريد، ولا تستطيع، أن تدخل معها في منافسة. هربا، في التفسير الذي أعطته له، وهي تنقلب على شوك سريرها ليلة أسس، كان تضحية لا عجزاً. فكرت، في لحظة نسام، أن تكون راحة دون دير. تحبه، لكنها، في المقابل، لا تطلب أن يحبها، ستظل كذلك، لكنها لن تقبل صداقة الأخرى، مهما كان الابتعاد أليماً. الآن، في نوبة الارتفاع على معنى العقوق، تعطي لنفسها مدداً صوفياً، وتنشد، في الراحة التي تسعى إليها، اليأس المريح.. لكنه جاء. طلبها. انتظرها في الباب، المقاومة انهارت. مريضة هي، والطبيب في الباب.. حبة المسكن في جيبه، في كفه، وكأس الماء جاهزة، الشفتان، والقلب، والعصب المنفتح، كل ذلك يتطلب الرحمة! إنها تحت رحته، ومقابل محبته تنسى.. وقد نسيت.. المحب ينسى، سامح، يصفح، وهي محبة، عاشقة، والإله الذي تتعبده، قادر أن يجعلها قرباناً للذبح.. يا إبراهيم.. توقف عن ذبح ولدك.. إليك بالكش، إنه القدية..

قال لها:

- هيا..

ولم تقل: «لا»

لم تكن تستطيع.. منومة هي، مسلوقة الإرادة.. خذني.. وأخذها.. أمسكها من يدها، وخرجها من الباب، خرجا من الدير.. الراحبة غادرت الدير.. تصرف يا إبراهيم بولدك كما تشاء.. عطفتهما السيارة. «إلى أين؟» «حيث تشاء».. مضت، مضت، مضت.. قناديل المدينة أضيئت.. تلوّنت الواجهات.. الأرض

استحمت بالنور . عطر ليلة صيفية . شيء ما يصلي . الأرض تصلي ،
ترفع صلاتها إلى الأعالي .. بيروشكا التصقت بكرم . وضعت رأسها
على كتفه .. شعرها تهذب . سرقة الريح ، نظاير .. ضمها إليه .
القطعة الأليفة استكانت .. أعطت نفسها للطمأنينة .. هاك شعري ..
الأصابع في الشعر .. إهتامة حبيبة .. وماذا يقال ، في موقف كهذا ؟
هو لا يدري .. هي لا تتكلم .. صمت .. والسيارة تدرج ، تصعد جبل
كيللرت .. بلغت القمة .. نصب الهندي الأحمر .. الفلعة العنانية ..
توقفت .. ترجلاً .. ما رأيك في سماع موسيقى السبكان ؟
سألت :

- تحب الموسيقى العجرية ؟

- أحب العجر ..

- أنت لست عجرياً ..

- لا .. ولكن « رأيت عجراً سعداء » ..

- إذا صرت عجرية أصبح سعيدة ؟

- إذا هربنا من المدينة نصبح سعداء ..

- إلى أين ؟

- ترين الأفق البعيد ؟ إلى هناك ..

- ليس في الأفق سوى الغمام الدامي ..

- نصبح غماماً دامياً ..

- أنت لا تضحك علي ..

- أبداً ..

- بودي لو أنحوّل إلى غمامة .. غمامة قطر ، قطر ، قطر ..

- وإذا بددتها الريح ؟ .. عندئذ تصيح ذرات مائية في الجو ..

- وأين تسقط الذرات المائية الميتة التي في الجو ؟ ألا تعود إلى
الدانوب ؟ .. انظر ما أجل الدانوب .. ماؤه المنساب . جسوره
القمحة ، سفنه النهرية .. تحب الدانوب يا كرم ؟

- كثيراً جداً .. أحبّ بودا .. ويست ، وكيللرت .. والبالزكا ..

- وأنا ؟

- وأنت .. أنت صديقتي الأثيرة .. أنت عزيزتي الصغيرة ..

- وماذا بعد ؟

- وماذا تريدين ؟

- ألى أكون حبيبتك ؟

- لندخل إلى القلعة .. لدينا وقت طويل جداً للكلام ..

- لكنتي سعيدة بالوقوف هنا ، فوق كيللرت .. ومن تحتنا
المدينة ، يقطعها الدانوب ، كمدينة زرقاء .. دع الليل يهبط أكثر ،
يلقي علينا ثوبه الرمادي ، يحجبنا عن الأنظار ، يدعنا وحدنا ..
وحدهما هكذا .. إلى الأبد ..

فكر كرم : « هل تحلم بيروشكا وهي واقفة ؟ أوقطها أم أدعها
يسرسل في أمنية مستحيلة ، خادعة ، كالكذبة البيضاء ؟ أقول لها
إن هذا التوحد الأبدى ، الذي تحلم به ، لن يكون أبداً .. وأن
المصادفة التي جمعتنا ، هي نفسها ، ذات يوم سنفرقنا .. ؟ أعطيتها
كلاماً بلا حب ، أم حباً بلا كلام .. أنا لا أستطيع .. ما زال العقل
يحكمني .. لم أجن بعد .. قد يحدث ذلك يوماً ، لكنني الآن ، وأنا
أقف على أعلى قمة في كيللرت ، أكاد أمد يدي إلى النجم ، لن أجعل
النجم يلغني . لن أكذب .. لماذا تريدني أن أكذب ؟ لماذا لا تكتفي
بالصداقة ؟ ..

قال لها :

- بيروشكا! تشكين في صداقتي؟

- أبداً..

- لماذا لا تكتفين بها؟

- لأنها لا تكون بين رجل وامرأة، وتدوم..

- كيف؟

- لا أدري.. الصداقة بين الرجل والمرأة كذبة شعبة..

- لم أفهم..

- أنت تفهم جيداً.. ليس لثلي، أنا طالبة الآداب، أن نعلم

كاتباً مثلك.. أقول لك الصداقة بين الرجل والمرأة كذبة.. خدعة

قصيرة العمر.. تتقدم فتصبح حباً.. تصبح بهراً، كالدانوب الذي

يسيل، متجهاً إلى أمام.. أو تتراجع.. وعندئذ يكون الفراق.. لا

شيء ثابت.. هذا ما تعلمناه في المدرسة.. وأنت تعرفه جيداً..

دعنا ندخل القلعة.. من الغيت أن يستجدي الإنسان حب الآخر..

هذا لا يصير.. أنت لا تحبتي.. أنت لا تستطيع أن تحبتي.. وكذلك

لا تحب أيرجكا.. تقضي وقتاً طيباً معنا.. ثم ينقضي الوقت

الطيب.. انتهت الدورة.. لكل شيء دورة، للعمر، للحب،

للسداقة، هذا ما يقوله أحد شعرائنا.. دورة صداقتنا ستنتهي

أيضاً.. لا بأس.. لن أبكي سلفاً.. كفى ما بكيت ليلة أس..

لنسرع إلى القلعة، أريد أن أشرب، أن أسكر، أن أغيب عن

الوعي..

تقدمته في السلاط الحجرية، في الدعاليق الضيقة، النارية، دخلت

مطعماً مضاء بالشموع.. السهرة لم تبدأ.. الموسيقى لم تعزف.. لكن

الشرب ممكن.. حسناً.. هي ستشرب.. وفي آخر الليل تذهب معه
إلى البيت.. ستقول له خذني.. لا تخشى أن تحمل منه.. تريد أن
يحدث ذلك.. ليكن لها كرم صغير.. كرم تحبته يوماً عن أبيه الذي
مرَّ ببودا مروراً عابراً.

انتهى طاولة في زاوية. عند نهاية قوس حجري. الأتراك مروا
من هنا أيضاً، بنوا هذه القلعة، حكموا الحجر قرنين كاملين.. ثم
عصفت بهم للريح.. كل شيء عفا.. الزمن يسيل.. هذه الليلة
أيضاً تسيل.. لا مارتين، على بحيرته، تمسى وقوف الزمن.. الزمن سخر
منه.. سال.. الدورة، كما قالت بيروشكا، ستكتمل.. عندئذ تنقضي
الذكريات.. صفائح أو أطباقاً.. لعل بيروشكا طيف.. لعله هو
الطيف.. زمه لم يأت بعد.. في الأربعين وزمه لم يأت بعد.. حبه
الكبير، حنينه المروع، تدها الأنثى التي في القمر.. من يبلغ
القمر..؟ الإنسان.. لكن القمر، عندئذ، لا يظل قمراً.. يصير
جرماً مكتشفاً.. كل ما نكتشفه نألفه، كل ما نألفه نضجر منه..
الجمال في البعد.. الحب في البعيد، الحنين في البعيد.. كل شيء،
إذا اقترب، انتهى.. على الأشياء أن تبقى بعيدة، لكي تظل
حبيبة، عليها ألا تقترب..

كانت الطاولة لشخصين. عليها شمعتان، عليها صحنان وأربعة
أقداح.. عليها، أيضاً، غطاء أبيض.. عليها، من الماضي البعيد،
حروف غير مطبوعة، غير مقروءة، لكنها، مع ذلك موجودة.. هو
يقرأها.. ويروشكا تسأل:

- ماذا تفكر؟

- ليس يا أيرجكا على كل حال؟

- بل فيها .. لو كنت معها ، كنت أسعد حالاً .. اليس كذلك؟

- لماذا ، في نظراتك ، قرار اتهام دائم؟

- لأنني ضيقتك بالجرم المشهود ..

- كان أفضل أن تدرسي القانون ..

- حدس المرأة قانونها .. حساسيتها لا تكذبها أبداً ..

- ولكنك مجربة .. متى تحصلت لك كل هذه الخبرة ، ومن أين؟

- لن أقول لك من الكتب وحدها .. أنا طالبة جامعة .. معنى

هذا لست صغيرة كما تظن .. كف عن مناداتي يا صغيرتي .. لا أرغب

كثيراً في التدليل .. أفضل عليه الاستقامة .. قد تكون فيها بعض

الخشونة ، لكنها أفضل .. قل لي : تحب ايرجكا؟ كن صريحاً .. قل

الحقيقة وسأصدقك ..

- لنشرب أولاً .. أيها السامي إلينا بزجاجة نبيذ مبردة ، من

أجود أنواع النبيذ .. أم تفضلين مشروباً آخر؟

تذكر لقاءنا الأول؟ شربنا نبيذاً .. لنشرب ، الليلة أيضاً ،

نبيذاً ، لعلنا نستعيد الفرحة الأولى ..

- في الشعر يقولون الفرحة البكر ..

- لم أصبح شاعرة بعد .. وقد لا أصبح أبداً .. وما النفع؟ لمن

أكتبه؟

- جاءت زجاجة النبيذ .. تذوقها كرم وهز برأسه موافقاً .. ملأ

السامي الكأسين .. شرباً .. رجاها :

- لا تكثري .. تمهلي في البدء .. لا تكوني مجنونة ..

- وماذا يهمك أنت؟

- يبروشكا .. كوني عاقلة .. أنا لك .. صدقيني ..

- للرجل صديقه واحدة .. وكذلك للمرأة صديق واحد ..

- أنت صديقتي الوحيدة ..

- والأخرى .. ستقول لي إنك تعرفت إليها مصادفة ..

بالتساسة ، لماذا أنت غاوي مصادفات؟

- ذلك أن حياتي كلها مصادفات .. كنت في صفري ناحلاً إلى

درجة أن أمي توقفت موتي كل يوم .. مع ذلك عشت .. كبرت ،

تشركت .. ذهبت إلى الصين مصادفة ، وجئت إلى المجر مصادفة ،

ولقيت مصادفة ، ولقيت ايرجكا مصادفة أيضاً ..

أضفت :

- ومن ستلقى مصادفة أيضاً؟

- لا أدري ، لكن ذلك سيحدث .. وستكون المصادفة الأخيرة في

حياتي .. المصادفة الأجل ، الأقبح ، لست أدري ، لكنها ستكون

الأكبر بغير شك ..

- أنت لا تقول هذا لتغيطني؟

- أبداً .. أقولها لأشرح نفسي ..

- اشرح لي كيف التقيت ايرجكا ..

قص عليها مصادفته الغريبة .. تشتت الإتهام في عينيها .. قالت :

- هذا لا يحدث في مرة واحدة ..

- لكنه حدث ..

- أنا لا أصدق ..

- وأنا لا أسألك التصديق ..

- أتصور اللقاء بها كان على النحو التالي : ذهبت إلى الملهى ،

سمعتها تفني، رأيته جيلة جداً تحت الأنوار.. أرسلت لها زهوراً.. دعوتها إلى مائدتك.. توددت إليها، قلت لها إنك غريب.. ذهبت معها آخر الليل إلى بيتها. أعطيتها عنوانك.. جاءت فانبهرت.. هي فتاة وأنت فنان.. زوجان لائقان.. ثنائي فني مذهش.. كبتها بعد أن كسيتني.. ظفرت بنا معاً.. أنت صديقتها كما أنت صديقي.. هذه هي الحكاية.. لكنني، أنا، لا أريد.. إما هي وإما أنا.. أدع لك فرصة للتفكير والاختيار..

- سيكون علي اختيار البعد عن الجميع.. أنا لست هنا للدخول في علاقات مشابهة.. لديّ عملي، ولديّ كتابتي.. ايرجكا لا تغار علي كما تغارين.. لا تفعل في ما تفعلين..

- وما السبب؟ قل أنت.. من لا يغار لا يحب..

- والوثوق بالنفس؟

- هذا ضروري، من جهتي لا أثق بنفسي، لم أتمرن على ذلك.. أنا ضعيفة.. يرضيك هذا..؟ ضعيفة، أشك، أغار، أريدك لي وحدي، وحدي، أنفهم طلب المرأة هذا؟

- أفهمه.. الرجل يريد المرأة له وحده أيضاً.. لكن ذلك بصير في علاقة حب..

- أنا أحبك.. وأريدك أن تحبني.. لماذا غررت بي.. من المسؤول؟

- الحب لا يكون من جانب واحد.. لا يكون بهذه السرعة.. لست مسؤولاً عن شكوكك وأوهامك.. صارحك، منذ البدء، أنني لا أستطيع أن أحب.. إنني عاجز عن ذلك.. حدث هذا أم لا؟

- حدث، ولكن بعد ماذا؟ ألا تراه أمراً محجلاً أن أطلب، أنا الفتاة الصغيرة، وأنت.. بكفي.. بكفي..

أطرق ولم يقل شيئاً، قالت ما تريد قوله.. فهمه.. أنا الفتاة، وأنت المعجوز.. هذا ما أرادته لكنها لم تقلك الشجاعة.. ربما اندفعت فيه بغير وعي.. ولكن الإهانة حصلت.. لا بد من وقف هذا الحوار.. الصداقة تحتاج إلى تضحية.. لكنها أنانية.. أنانية لأنها محبة.. لماذا يبقى من الحب إذا لم يكن الحب أنانياً؟ الأفضل أن نغترق.. محال أن تفصلي على مفاسها، ضاعت لهفتي، باخت.. لن أهيجها أكثر مما فعلت.. لا نستطيع، تحت مشاعر نائرة، أن نقدر عواقب اندفاعها..

كان المقهى قد ازدحم الآن. تلالأت الشموع على الطاولات.. ترددت في الجو الكهفي انغام الكمان.. هذه هي موسيقى السيكان.. موسيقى تعبّر عن القلق، الترحال، التوحيش.. طبيعة أقرب إلى البدائية.. غرائز ساعية، تبحث عن تحقيقها بالعنف، بالصراع مع الذات، مع الآخر.. بإخضاع الآخر بالقوة.. عواطف فطرية.. فيها حزن، فيها فرح، فيها ضجيج، فيها شهوة متفجرة، وآلام متفجرة، كأنما هي صرخات احتجاج على شيء معاش، على واقع يعرفه العجري، يحبه لكنه يتألم منه أشد الألم..

طلب زجاجة نبيذ أخرى.. ساد الصمت بينهما. طال. تطاول، تغطى.. جثم على المائدة.. امتزج الحب بالكراهة في عينيها.. لاذ هو بلاسيلاية باردة كالفلاذ.. قرّر أن يتوقف عن الحوار الذي أصبح ممحكة.. الصداقة، بالنسبة إليه، أعلى من الحب، لكنها، هي لا تريد أن تفهم، ولا تقوى على التصديق.. ماذا عليه أن يفعل، في هذه الحال؟ ايرجكا كانت لطيفة. كانت صديقة. لم تطلب، لم

تشرط.. لم تطمح إلى الاستئثار.. ولن يحزني مودتها إلا بما
تستحق.. قد يدعها، يحنها، ينصرف إلى عمله.. لكن ذاك لم
يحدث إرضاء لسلطة خارجية.. لن يقع لأن امرأة أخرى تريده..

طاف المغني وعازف الكمان على الموائد، رنت ضحكات نسائية
من حواليه، تصاعد الدخان وانعقد في جو القبول.. راقب الوجوه،
اكتشف أن أكثرها غريب.. سباح من كل البلدان.. لغات
متعددة.. بعد نهار من التجوال، قصدوا القلعة الأثرية للاستمتاع..
لم ينجح بلد كما نجت المهر في جمع أغانيها الشعبية
وتطويرها.. هذا ما قاله نصر جيل.. ذكر اسم الموسيقي الشهير
بيللا بارتوك.. الفولكلور المهرى الأصيل.. السيكان جزء منه..
الذين هنا جاءوا لأجله.. ملأوا الهدوء.. الرثابة، اللطف، ضحروا
من التصرف المحسوب، وفق القواعد.. جاءوا ليتحرروا.. ليستقوا،
ليطلقوا.. ليمودوا، ولو لوقت قصير، غجرأ سعداء..

قالت بيروشكا لتقطع الصمت ليس إلا:

- تحب موسيقى السيكان؟

- كثيراً!

- سمعتها قبل مجيئك إلى المهر؟

- أبدأ.. صديقي نصر، عازف العود، هو من لفتني إليها..

- هل أنت صامت لأنك تصني.. أم لأنك انصرفت عني..

- أنصرف عنك؟ يمكن هذا يا بيروشكا؟ لقد فكرت قليلاً،

فكرت وأنا أصني.. هذه الموسيقى العجربة.. هؤلاء العجرب..

وأنت.. أنت العزيزة، القلفة، الزقة.. أنت تشهين، في قلب

أطوارك، تغلب هذه الموسيقى في تفجرها، في صخبها، ووداعها..
آه لو تقدرين كم في صدري من معزة لك!!

وصل المغني وعازف الكمان إلى مائدتها.. العزف يكون، يشتد،
على قدر الاستجابة.. كرم استحباب.. طرب، طغى الحبور على
وجهه.. ابتسم لبيروشكا.. ابتسمت له.. تصالحا.. هاما في
الموسيقى.. اندغيا بها.. صارا حكاية موسيقية.. والمعنى تحمس،
والفتيات العائلات، بالثياب المهرية الشعبية، المطرزة، المزركشة،
والراويل على الصدور يرحن ويحش..

وأعطى كرم.. اجزل العطاء.. تكلم العجربة عطاء.. عزف،
غنى، رقص.. عبر عن ذلك بما يستطيع، بما يملك.. فقالت بيروشكا:

- لا تنرف.. إنهم يعزفون للجميع، بعد كل شيء..

- لكنهم، في هذه اللحظة، يعزفون لي، لك.. لنا نحن
الاثنين.. ومن خلالنا للآخرين.. وهذا جيد.. أنا لا أريدهم ملكاً
خاصاً.. الفرحة، مع الجمع، تكبر.. العزف، في مقهى كهذا، أوقع
في النفس بما لو كان على أسطوانة.. أحب الناس يا بيروشكا،
أحبهم.. وقد يكون هذا تعويضاً عن نقص، تكفيراً عن ذنب.. لست
أدري.. المهم أنني سعيد، سعيد بك جداً..

مدت يدها، فوق الطاولة، وأخذت يده.. عريدت النشوة في
دمه.. نظر إليها.. أطال النظر.. التهمها.. أكلها.. شربها خمره
معتقة.. ود أن يبادلها عاطفتها الكبيرة بثلاث، لكنه في هذه الليلة،
لا يرغب أن يكون غيره في الغد.. غداً ستهبط جنباً القمر
وتحتطفه.. ستأتي، ومعها شعلة صغيرة، تضعها في صدره، بين
ضلوعه، ومن جديد، حين تغيب، يتفجر حنين مبهم مجهول..

تشتعل نار.. لمن؟ هذا هو سر القمر، سر جنية القمر، التي يوماً ما، يوماً قريباً أو بعيداً، ستتجدد على شكل امرأة، ومثلما بيروشكا الآن، تتعذب لأجله، سيتعذب هو لأجل تلك.. لكنه سيكون عذاباً لذيداً.. وعلى ركنيه كالتمدد، سيجد للآتية من درب لم يطرقة بشر بعد..

انتصف الليل، شرباً كثيراً. بيروشكا تبت نفسها، ألقت شكوكها، همومها، غيبتها، كدرها، وكل المشاعر المغايرة للحظة الفرح في بشر اللاشعور.. عادت قطرة أليفة. ولكن سكرى، طالعة ولكن امرأة... عاشقة لكنها قادرة على المساحة، في سبيل ليلة حب عجيبة كهذه الموسيقى..

دفع الحساب.. مثل أمامه مترحلة.. أراد أن يسدها فرفضت.. قالت له:

- ضع ذراعك على كتفي.. اعنصرني قليلاً.. قبلني هنا، في دهاليز هذه القلعة، قبلني عندما تخرج، حين نصير قبالة الدانوب.. ثم خذي.. خذي حيث شئت.. فقط لا تُعديني إلى الجامعة.. لا أريد العودة إلى الجامعة..

لم تعد، تلك الليلة، إلى الجامعة، تعذر عليه إقناعها بأن تفعل، حين خرجا من القلعة، طلبت أن تمشي قليلاً في الليل. كان راعياً في إرضائها، لوسائته أن تلعب بنجمة، لحاول، مع وعيه باستحالة ذلك، أن يأتيها بها. كان يسير، وهي تلمني برأسها على كتفه، والريح الطيبة، المسحورة، التي تأتي للعب مع القلعة، تمر بالشعر الجميل، وتعت به، وتلفح بشلاله، وجهه وعنقه. من عجب أنه كان في ذروة صحوه، كأنه لم يشرب خمرأ، مجرد وجودها معه، في جلياب الليل، استنفر وعيه لحراستها، كان يتلفت، وهما يسيران، حذر أن تحرق به عينا عذولتان. أن يقف رجل أو امرأة، وكلام يقال، عن أب وابنته. كان شرقياً.. رجلاً شرقياً. لم يقو على دفع شعور بأن شيئاً ما، بينها، يبدو تشاراً. وكان، في سره، يلحن هذا الشيء، هذا الشعور بفارق العمر، بينا هي تلتصق به، تلتحم، محتمة من خطر، رغبة في اتحاد أقوى، أقوى، كأنها تتدقأ في صدره، تحت ذراعه الملقاة على كتفها، أو كأن خشية تراودها من تركها في الحبل، والاختفاء، كشبح، مثلها، ذلك اليوم، طهر في المقهى، إلى جانبها، كشبح أيضاً.

وقفا على حدّ الحبل. كان ثمة، في ما يلي الطريق، حاجز

استنقي، وتحته الهاوية. تحته منحدر من أشجار، وبيوت مزروعة
بينها، تنتهي إلى الطريق الممتد على ضفة الدانوب، حيث تفتح
ورود من نار، في خط من السيارات لا ينتهي. وعلى الجسور
الحقمة، تفتح ورود أخرى، منعكسة في الماء، ساحجة مع تبارده.
والسفن النهرية، الطويلة، المسطحة، تمر من تحت الجسور،
والأخرى، الراسية، الشبيهة بالعوامات على الليل، ترسو على
الضفتين، تشع منها أنوار ملونة، ألوان مصابيح، مطاعم، ملاهي،
اتخذت من هذه السفن مقاراً لها.

رفعت رأسها وأعطته شفتيها، كانتا حارتي، عذبتين، وعلى
صدره، أحسن بنهديها، وهي تضغط، وما نفثا تطلب المزيد،
هامة: «قلبي أكثر.. أعنف.. أريدك.. أستهيك.. أستهيك
بجنون» وفجأة نسأله كأننا لتطمئن:

- أنت لن تعيدني إلى الجامعة هذه الليلة؟

- لن أعيدك..

- وسأخذني إلى بيتك؟

- سأخذك إلى بيتي..

- وماذا تقول البوابة عني؟ عاهرة؟

- لن تقول أنها شيء سيئ.. هي تعرف..

- وإذا جاءت أيرجكا؟

- لن تأتي أيرجكا..

- أنا أقول إذا جاءت..

- لكنها لن تأتي..

- لا اليوم ولا بعده ولا بعده؟

- لن أدعها تأتي أبداً..

- أنت لا تضحك مني.. أليس كذلك؟

- لا أضحك أبداً..

- ولا تحسني سكري؟

- أنت في صحو كامل..

- ليس تماماً.. لكنني أفضل..

- هذا بفضل الهواء المنعش..

- هل كنت لطيفة الليلة؟

- «أنت دائماً لطيفة..»

- ولم تغضب لأنني تكلمت على أيرجكا؟

- ولماذا أغضب؟ كان يجب أن تتصارع..

- لكنك تحبها..

- أنا لا أحبها.. هي صديقة لا أكثر..

- لا تقل هذا.. الصديقة في عرفنا، تعني...

- الصديقة، عندنا، تعني صديقة فقط.. ما رأيك أن نغضي إلى

البيت؟

- أنت تتهرب من أسئلتني..

- الليلة لا أسئلة.. شيء من الموسيقى.. ثم نوم.. هيا..

في الصباح كانت لديه مشكلة صغيرة.. يروشكا، التي أجهدت
نفسها كثيراً، لا تريد أن تستيقظ. كان قد ألبسها، نزولا عند
رغبتها، منامة صينية، وحين أفاق، كان نوع من حنان قد شاع في
نفسه، وهو ينظر إليها، مستغرقة في النوم، كدمية صينية، هادئة،
وادة، مستسلمة، وشعرها منفلس على الوسادة. أشفق عليها. رغب
في أن يدعها نائمة ويذهب إلى الجامعة، لكنه يعلم أن عليها أن
تذهب، هي الأخرى، إلى كليتها، هذا ما يجب، لأن عليها أن

تنجح، وعليه ألا يتسبب في رسوبها. كان يشتر في هذه النقطة، مسؤولية لا يقبل نقاشاً حولها.. أعد القهوة. حاول إيقاظها. ناداها، قبلها وهي نائمة، كرر المحاولات، لم تنجب، كانت لامسالية، تريد أن تنام، وترجوه أن يدعها، وأن يتعد عنها. لكنه أصر. أيقظها برغمها، حملها على أن تنهض، وأن تغسل، وأعد إفطاراً بسيطاً، وعندما، في آخر الأمر، خرجا من البيت، ويلقا الكلية، أحس براحة، وما إن أنهى دروسه في الجامعة، حتى عاد إلى البيت، واستغرق في النوم، ولم يرد على الهاتف، ولا على قرع الباب..

وفي المساء ذهب إلى نادي الصحفيين، فتناول عشاءه، وعاد يستر نفسه على الكرسي، أمام المكتب، في محاولة للعمل.. محاولة كانت فاشلة، ككل محاولاته في الغربة، وهكذا تقم على نفسه. عاقبها بالإصرار على عدم الخروج. ظل يقرأ إلى منتصف الليل، لم يكن سعيداً، كان خائباً، أشد الخيبات هي خيبة الفشل في العمل، عبتاً حاول التعزي. نام كدراً، ولا يعرف متى أغفى، ولكنه أشتت على جرس الباب، وكانت الساعة قد فاربت الثانية. دهر للوهلة الأولى. من الطارق في وقت كهذا؟ أنتكون ابرجكا؟ جورج؟ ضياء؟ حدث حادث لضياء، هذا المريض الذي ينوس كسراج على وشك الانطفاء، تحامل ومضى إلى الباب. سأل قبل أن يفتح:

- من؟

وجاءه صوت ادهشه:

- أنا بيروشكا.. افتح..

فتح، كان واجاً، في نظراته تساؤل، عتب، وبعض من غضب أيضاً. قالت بيروشكا:

- ألا تريد أن تستقبلني؟

- كيف لا؟ تفضلي.. ولكن ما بك.. كيف جئت.. من فتح لك باب البناية؟

- لم أستطع النوم، حاولت ولم أستطع، كنت بحاجة إليك.. شوقي غلبني.. ارتديت ثيابي، تسلت، هربت، أوقفت أول تكسي.. ولما صرت على باب البناية ترددت. كان الباب مقفلاً.. ماذا أفعل؟ أنا لن أعود بعد هربي من الحديقة.. لم يبق إلا أن أضغط على زر الجرس، وبقوة، ولعدة مرات، حتى أفاقت البوابة.. وعندما فتحت تملكها الدهشة.. لكن وجهي كان يتم عن قلقي، اعتداري، وابست لي.. لم تقل شيئاً.. هي تعرف.. كانت فتاة ونعرف.. أخلت لي الطريق.. هذه هي الحكاية.

- ما كان يجب أن تهربي.. لقد أثرت فضيحتين: في الكلية، وفي هذا البنى..

- إذا كنت لا تريدني فإذهب..

- بعد ماذا يا بيروشكا؟ لقد فات أوان الرجوع..

- بالنسبة إلي كل شيء ممكن.. لو كنت أعرف أنك ستقابلني بهذا البرود..

- آه يا بيروشكا، يا عزيزتي.. عن أي برود نتحدثين؟ إنني أريدك.. أردبك حقاً، لكن هربك، بعد منتصف الليل، من الكلية، عمل طائش، عمل لا يدافع عنه..

- مها يكن.. هربت وانتهى الأمر.. كف عن هذا التقرير.. لاطفني قلباً حتى أسترده أنفاسي..

- أعد لك فنجاناً من القهوة التركية؟

- لا.. أرغب في شيء بارد.. ماء، بيرة إذا أكانت موجودة، أو عصير..

- لدي كل شيء .. لنشرب شيئاً من البيرة .. هل أنت جائعة ؟
 - قليلاً .. حسرت نفسي في غرقتي طوال اليوم .. لم أحضر
 الدروس .. لم أكل .. ولم أستطع التركيز حينما حاولت القراءة .. لا
 أدري ما بي ..

- هذا ما يسمونه جنوناً ..
 - قل عنه ما شئت .. كان يجب أن آتي، وأتيت .. أنت
 السبب ..

- وماذا كان علي أن أفعل ؟
 - لا شيء .. لكن لا تعس في وجهي ..
 - أفرح لأنك توشكين على إضاعة مستقبلك ؟
 - لا أبالي بضياع أيها شيء .. أريد أن أبقى إلى جانبك ..
 - إلى جانبي ؟ ها لنعد شيئاً من طعام .. سأعديني ..
 - ليس قبل أن أرثدي المائة الصبينة .. يجب أن استعد ليلة
 أمس .. أنتشي حين يلامس الحبر جدي ..
 - كما ترغيبين .. أنت لست إلا قطعة لطيفة، لكنها مخزومة
 أحياناً ..

أعد بعض الطعام . جاء بزجاجة بيرة وقد حين ، راح ينظر إليها
 في منامتها الحريرية : بدت صينية حقيقية ، لولا أنها طويلة قليلاً ،
 وشعرها البيل مترسل .. وكان في هدوء ملاحظها شيء محير ، فهي
 آمنة ، مستلعة ، لا تعاني من ندم أو قلق .. وتطلب منه أن
 يتحدث ، أن يقول أي شيء ، وهو يرنو إليها مشفقاً ، يفكر ، مثلاً
 أن يكون سبباً في ما يجري ، متسائلاً عما إذا كان من الأفضل ،
 لمستقبل بيروشكا نفسها ، قطع الصلة الفارقة بينها ، متحملاً عذاب

الفراق ، تاهضاً بتضحية صغرة كي لا يضع العام الدراسي عليها .
 العام الذي يبدأ مع بداية الحريف هذا ..
 قالت بيروشكا :

- أنت لئ تعاقبي ، أليس كذلك ؟
 - إذا تكرّر ما فعلت اليوم ، كان عقابك شديداً ..
 - تقطع علاقتك بي ؟
 - من لمصابق لأوانه الكلام عن نوع العقاب ، لكنني أذكرك ..
 - وأنا أرفض الإنذار .. تجاوزت سن الرشد .. ليس لأحد أن
 يقيم وصاية علي ..
 - كوفي عاقلة إذن .. ما الذي دفعك إلى الحرب في هذا الوقت ؟
 - النوى .. دفعني شوقي إليك ..
 - هذا نصف الحقيقة ..
 - ونصفها الآخر ؟
 - أقول بصراحة ؟
 - يكامل الصراحة ..
 - نصفها الآخر أنك جئت لتري ما إذا أكانت ابرجكا
 عندي ..

فوجئت بأنه سير غورها . قالت :
 - لنفرض أن هذا صحيح ، أليس من حقّي ؟ ألت صديقي ؟
 أريد أن اطمش ..
 - والآن .. أنت ترين أنني وحيد .. ولا أكذب عليك .. كوفي
 مطمئنة بعد اليوم ..
 - أعدك بذلك ..
 - وعداً قاطعاً ؟

- أعيدك.. ألا تريد أن تصدقي؟

لم يصدقها.. ولم تفهمي بالوعد.. ظلت تهرب من الكلية ليلاً ونهاراً، أهملت دروسها. خرجت على النظام الداخلي للكلية. خرقته خرقاً قاضحاً. راجت الإشاعات حولها. كانت هي مصدر هذه الشائعات. تحدثت عن حبها لكاتب عربي، كاتب فنان، له بيت، عنده متحف، يدرس في الجامعة، وأنه سيتزوجها، وستذهب معه إلى بلاده، بلاد ألف ليلة وليلة، بلاد الشمس المشرقة.. مضت في تغذية أحلامها، تزويقها، تنويعها، وتصديقها أيضاً. شكتها الناطرة إلى إدارة الكلية، اتهمتها بالهروب، الفساد، إهمال الدروس، إشاعة جو غير لائق بين زميلاتها.. وبعد شهر استدعاه المدير، طالباً منها تقديم إيضاح عن تصرفاتها الطائشة، بعد أن واجهها بالوقائع، وبشهادات الناطرة والطالبات.. لكنه، هذه المرة، اكتفى بالإندثار، وبتهديدها.. وأبلغ كرم، عن طريق الجامعة، أنه يسلك طريقاً حرجاً في علاقته ببيروشكا، وينبغي له، بدل إغوائها، أن يساعد على الانضباط والدراسة. ثم سئل، بكثير من اللباقة، عما إذا كان سيتزوجها، كما تقول، مع التأكيد، سلفاً، أن هذا أمر خاص، خاص جداً.

عجز كرم، هنا أيضاً، عن شرح نفسه. ما كان ملزماً أن يقدم تقريراً عن سلوكه للعميد الذي استقبله، مع ألبوش، بكثير من المودة. اعتذر عن حديث، ليس للجامعة أيها علاقة به، لكنه من باب الاستعانة به، على إقناع بيروشكا بعدم الانقطاع عن دروسها، رغب أن يلفت نظره لفتاً مهذباً. كرم لم يزعج من الحديث. أكبر العميد، أكبر تقاليد الحرية الشخصية، تمس، في ذاته، أن تترسخ هذه التقاليد في بلده الذي لا يستطيع فيه أن يفهم علاقة حب صحية

إلا بإذن من القانون، أو بمغامرة قد تكلفه، وتكلف الفتاة خاصة، كثيراً من الأذى، لكن ماذا يستطيع، بعد كل شيء، أن يفعل بعلاقة غير متكافئة كعلاقته ببيروشكا؟ إنه ليس زميلاً لها، أو طالباً مثلها، أو شاعراً في مثل سنّها، عليه، هنا، أن يتصرف بمسؤولية، أن يستعد عما يعطي سلوكه طابع مراعاة فات أوانها، ومنذ زمن بعيد. الصداقة مفهوم، ومرغوبة، والفنان، في أي سن، نكون له معجبات، صديقات، وهذا مفهوم، مقدّر، ولو قال إن ما بينه وبين بيروشكا نوع من صداقة، بأي عمق كان، بأية صفة كانت، لكان قوله موضع احترام، سواء انتهت هذه الصداقة بزواج، أو ظلت مجرد علاقة جنسية، أو علاقة عابرة، لكنه سيكون غير مفهوم إذا أنكر أنه يحبها، وأنه يحنّ إلى مجهول، امرأة لم توجد، أو لا يعرف أين ستوجد، وقد لا تكون إلا نسج أسطورة سرقته، سحرته، كما تفعل جنبّة القمر..

قال للعميد:

- ما جئت إلى الجمر، ولست في الجمر، لأجل أشياء كهذه، صدقي.. أحترم بيروشكا، أعزها، لكنني أريد خيرها.. وسأعمل كل ما في وسعي، حتى لو بلغ ذلك قطع علاقتي بها، كي يستقيم أمرها، وتستقيم دراستها..

قال العميد:

- يسرني أن يكون المرء نبيلاً.. هذه نبالة منك.. اعثريني صديقك، ولسوف أوزورك، سأقفل هذا من كل يد.. يقال إن لديك متحفاً رائعاً..

- ليس متحفاً بمعنى الكلمة.. مجموعة تحف من الصين..

- مجموعة قيمة.. هذا ما سمعته، وقد أثارني.. الأشياء الشرقية

بالنسبة إلينا نحن الأوروبيين، تبقى مثيرة دائماً..

- يسعدني أن نلتقي إذن.. سيكون شرفاً لي أن تزورني في

بيتي..

ولكن اليوش، عندما غادر العميد، أبدى هذه الملاحظة:

- يا له من ثور، عميدنا هذا.. ما دخله في أمورك الشخصية؟ ثم

هذا المتحف.. اسمع يا كرم، بعد شهرة متحفك بت أخاف عليه من

شيئين: اللصوص ودائرة الآثار..

وقال كرم ضاحكاً:

- اللعنة على هذا المتحف، كم سبب لي من وجع رأس.

- أنت لن تقول لبيروشكا شيئاً، أليس كذلك؟

- ماذا ترى أنت؟

- استمر في علاقتك بها.. هذا طبيعي بين رجل وامرأة..

- لا أريد أن أتسبب في ضياع مستقبلها..

- ولماذا نظن أن مستقبلها سيضيع.. مجرد أن هذا الثور تدخل

فيها لا يعني؟

- ليس هذا.. لا أتوقف عند ملاحظاته، رغم احترامي لها..

بيروشكا طائشة.. ذات اندفاعات غريبة..

- مهما يكن.. العلاقات، حتى الجنسية منها، موجودة بين كل

الرجال والنساء.. في الجامعة وخارجها، بالزواج أو دونه.. لا

تستشعر ذنباً من هذه الناحية..

افترقا، كان أليوش يضحك: « اسمع يا صديقي، لو كان عندي

متحف كما عندك.. « قاطعه كرم: ولكن لديك شيئاً لو كان

لي.. « قال اليوش: « الشباب وحده لا يكفي، الفتاة تريد الشهرة..

أن يكون حبیبها مشهوراً.. أن تكون له مكانة فنية أدبية،

اجتماعية.. أي شيء، من هذا النوع، ثم أن تكون له سيارة، أو

متحف، وأن يكون ثرياً.. أما العمر قياًني، مجرداً، في آخر

الثلاثة.. الشعر الأبيض، الآن، موضة، لا يضاهيك أن شعرك أبيض

قليلاً، لست لي، أنا أيضاً، بعض الشعرات البيض.. ومعها، كما تعلم

بعض التحف..

في المساء اتصلت بيروشكا هاتفياً، اعتذر عن استقبالها. أكد لها

أنه مشغول جداً، وأنه مدعو إلى العشاء.. وفي الصباح التالي

اتصلت أيضاً، طلبت موعداً.. تذرّع بالدروس، والكتابة..

هذهها، إذا جاءت ليلاً، ألا يفتح لها الباب، وسمع، عبر الهاتف

صوت بكائها، غير أنه لم يبال.. قرّر أن يكون حازماً. غير أنه بعد

أيام، تلقى هاتفاً من جورج، قال له إن بيروشكا عنده، وأنها رجته

أن يتوسط عنده لاستقبالها، وأنها تبكي.. تبكي كليلة صعبة..

كان ذلك في نحو الساعة العاشرة ليلاً، وبعد قليل صعد جورج

وبيروشكا، وجاء هادي، ولم يمكنا سوى ساعة واحدة، شربوا خلالها

كأساً من الويسكي. وقال هادي، بناء على رجاء من كرم، إن على

بيروشكا أن تعود إلى كليتها.. تكلم بالهجرية، اشترك جورج في

الحوار. جلس كرم ينظر النجعة.. وكان هادي، في حوار

السطحي، الطويل، يؤثر أعصابه.. ثم لا يبالي، حتى خجل إلى كرم

أن صديقه نسي نفسه، غير أن هذا استمهل قليلاً، وقال وهو

ينفض:

- بيروشكا باقية.. قالت إنها لن تذهب ولو استعنت

بالبوليس.. لديها ما تقوله لك.. دُعها تبث عندك..

وقال جورج:

- هذا أفضل.. إنها ستعود إلى كليتها صباحاً.. تقضي الليل

معك فقط .. لا تكن قاسياً .. إنها تحبك .. ألا تعرف الحب أنت؟ أم
تكتبه في قصصك فقط؟
اشترط كرم:

- الليلة فقط .. تذهب صباحاً، ثم لا تأتي إلا يوم السبت ..
وقال هادي:

- ليلة السبت ستكون لدينا سهرة .. اتفقت مع نصر جيل
عليها .. وسيكون ضيوفنا بعض أعضاء لجنة التهيئة .. لقد حدثتهم
عن متحفك .. وعن لياليينا الشرقية ..

- سنتكلم في هذا قديماً .. أنا موافق من حيث المبدأ، ما دمت
قد اتفقت مع نصر .. ووعدت الضيوف ..
قال جورج:

- ما هي «الكوتا» المخصصة لنا؟

- أنت وصديقتك .. أجاب هادي.

- هناك بعض الأصدقاء أيضاً .. وسعوا الحلقة قليلاً ..
قال كرم:

- لا دخل لي في الأمر .. الفاتحة مع هادي ..

- أنا، قال هادي، لست من أنصار زيادة العدد، خاصة عدد
النساء .. لا تريد تشويشاً في الحلقة ..

قالت بيروشكا:

- أنا مدعوة أيضاً .. أليس كذلك يا كرم؟

- أسألي هادي .. أقول لكم الفاتحة بيده ..

وقال هادي ضاحكاً

- هذا يتوقف على سلوكك خلال الأسبوع .. إذا داومت على

الدراسة ..

قالت:

- سأداوم .. أعدكم بذلك ..

وقال جورج وهو يخرج:

- يا لها من بيروشكا رائعة هذه .. انظروا كم هي مطيعة ..
عظوظ أنت يا كرم!

بعد خروج جورج وهادي، ألقت بيروشكا بنفسها بين أحضان
كرم .. كانت عاتبة: «أنت سيء يا كرم، قالت، أنت لا تريدني ..
تتهرب مني» قال كرم: «هذا لمصلحتك .. أنا مسؤول عن نجاحك»
«ومن وضع هذه المسؤولية عليك؟» «لا أحد، وضعتها بنفسني»
«هذا لأنك لا تحبني» «أنا فعلاً لا أحبك» «لكنني، أنا، أحبك ..
أنت جعلتني أحبك .. أنت سيء يا كرم .. قبلي .. قبلك .. بكيت
على صدره .. بكيت دون سبب .. كانت مستعدة لمساعدته، وقد
ساعدته، وقالت فرحة:

- لن أضايقك .. سأحضر كتي معي بعد اليوم .. وقد تعلمت،
من زميلاتي، صنع طبق لذيق، هل لديك لحم؟

- في التلاجة

- ووجن؟

- في البار ..

- انصرف إلى عملك أنت .. دعني أهين الطبق، وسيكون
جاهزاً خلال نصف ساعة ..

لكنها، بعد ساعة كاملة لم تفعل سوى إضاعة اللحم والجن ..
كانت التجربة فاشلة .. وقالت معتذرة وهي تقف أمامه:

- شايوش كرم (آسف يا كرم) أضعت لك «الجن»

- لا تأسفي على شيء .. هيا .. لنأكل أي شيء .. ثم ننام، وغداً

صباحاً إلى الكلية.

- غداً صباحاً إلى القرية .. لزيارة والدي .. أخذت أذنًا من الكلية ..

- وماذا أعددت كهدايا ..؟

- لا شيء ..

- يا لك من فتاة مهملة .. كلي وتنامي الآن .. نامي جيداً ، وغداً صباحاً أصحبك إلى السوق ، ثم محطة القطار .

- أنت لطيف يا كرم ، لطيف جداً يا حبيبي .. تصنع الحب الليلة .. أليس كذلك ؟ أنت لن تعاقبني ..

ولم يعاقبها .. لكنه ، في الصباح ، كان عليه أن يعيد الكرة ، ويبدل مجهوداً لإيقاظها ، ومجهوداً آخر لتعجيل خروجها من البيت ، قبل أن يغوتا موعد القطار .. وفي الطريق عرجا على السوق فاشترى بعض الهدايا ، وبعض الفواكه المستوردة ، مثل الموز والبرتقال ، واشترى تذكرة القطار ، وقال لها ، وهو يودعها على باب القطار :

- فيسوت لاتاشرا بيروشكا (إلى اللقاء بيروشكا) .

- إلى اللقاء ..

- انتهي .. كوفي لطيفة .. كوفي سعيدة أيضاً

- وأنت ، كرم ، كن عاقلاً في غيابي .. سأعود بعد يومين ..

انتظري .. لا تنسي .. لا تذهب إلى ابرجكا .. تعدي بذلك ؟

- لا تكوني مجنونة .. لن أغادر البيت إلا إلى الجامعة ..

- وإذا جاءت هي إليك ؟

وتحرك القطار وهي تعيد السؤال :

- إذا جاءت هي إليك ؟

ولما لم تسمع جواباً صاحت :

- لا تفتح لها الباب .. لا تخني يا حبيبي !!

- ١٥ -

قرر أن يحفظ وصيتها ، بل قرر أن يحفظ نفسه في وصيتها . تذكر الذي طرد الصبارفة من بيت أبيه . هذا معبد وليس مغارة ، ليس كهفاً ، ولن يجعله كهفاً . أراد شيئاً إلى الطهارة ينتسب ، إلى الفن ، الثقافة ، والمودات . لكنه انزلق به إلى الدناسة . لعل الكلمة أن تكون أكبر من حجمها . هو لم يدرس متحفه غاماً ، لكنه لم يُصنَّه كما ينبغي . جاءت روزيكا وخطيبها ، جاءت ، بعد ذلك ، دون خطيبها ، جاء آخرون ، أخريات ، وكان عليه ، أمام الزائرين ، أن يعرض أشياءه . يتحدث عنها ، عن صنعها تاريخها ، قيمتها الفنية ، ويستجيب لطلبات ملحاحه ، في رؤية كل اللوحات المجدارية . هذا يعني أن ينشر اللغافات ، ثم يعيد لها ، ربطها ، توضيحها . وكان عليه ، أيضاً ، أن يخرج قطع البورسلين الصيني ، الأزرق والأبيض ، والمنحوتات الخشبية ، وينثرها في كل أرجاء البيت ، فإذا غادر الزائرون أعادها إلى أماكنها .

كل هذا كان محتملاً على نحو ما . كان يتلبسه شعور العامل في متحف ، فعليه أن يبرز بكثرة الزائرين ، وعليه أن يستفيض في الشرح ، وأن يكون مهذباً ، لطيفاً ، لا يضيق بالأسئلة ، ويتكرارها أحياناً . وإذا اقتقد السرور ، كان عليه أن يصطنعه ، فإذا عجز

وجب عليه ألا يظهر الانزعاج. كل هذا ارتضاء، إلا أن رؤية الثياب الصينية، وارتداءها، وانتظار أن تمل منها الزائرة وتنزعها، قبل التقاط صورة أو بعدها، كان يستنفد صبره، يخلق فيه قابلية الملل، التبرؤ، الانفجاء، إلا أنه يراكم كل ذلك، ويرهق أعصابه يوماً بعد يوم.

وإذا كان عزاءه في كثرة الزوار، أنه يتعرف من خلالهم على الناس، وأنه يخاطب، بسبب من ذلك، أوساطاً اجتماعية مختلفة، فإن طول مكوث بعضهم، وتقلب أمزجة البعض الآخر، وتكرار الزيارة، واندفاع دائرتها، والموانع التي لا تنقطع، واضطراره إلى الرد، وإلى سماع رجاءات، وضرب مواعيد، وتقديم القهوة، وقبول الدعوات، وتلبستها، كان يستهلك وقته، يضيي صحته، يحول بينه وبين أن يحتل بنفسه، وأن يقرأ، ويمارس عادته في تأمل الطبيعة، من نافذته، أو الذهاب إليها، في الغابة، أو على شاطئ الدانوب، وزيارة المتاحف، ومعارض اللوحات، وقبل كل شيء، التحدث إلى ضياء وحسن وجورج، والتمتع بصحبة الطلاب الذين اتسعت دائرة معارفهم، وكانوا يأتسون إليه، ويروون له ألواناً من قصصهم ومشاكلهم فيعجب لما فيها من صور اجتماعية.

إضافة إلى ذلك، كانت تنشأ، خلال الزيارات، بعض الروابط، كانت هذه الزائرة أو تلك، ترغب في أن تقيم علاقة معه. كان توس هذه العلاقة، واسعاً، يتراوح بين الصداقة، المودة، الحب، الحب، ومنها حاول الاعتماد، الاعتصام، التعفف، فإن بعض الإغراءات كانت توقعه في شياكها، وهكذا يجد نفسه منساقاً إلى ضروب من اللهو، والمهارة، وتشابك العلاقات المربك، الذي يزيد متاعبه، ويشوه البهاء الثقافي للمتحف في نظره.

ألبوش كان يهر بذلك. يضحك من نفوره غير المبرر من هذه العلاقات. يقول له «لا تكن شرقياً منزماً. جرب أن تتقبل الغرب وتنهم روحه. هنا مجتمع جديد يُبنى. كيف تفهم هذا المجتمع إذا لم تختلط بالناس؟ علاقتك بالمتقنين ضرورية. تعرف إلى الحياة الأدبية. أكثر من السهر في نادي الصحفيين». وإذا ردّ كرم بأن حياة الوسط الثقافي متعبة، تتطلب السهر، والشرب، واللهو، أجاب ألبوش: «يا أخي! هناك أدباء جادون أيضاً. هناك موسيقيون كبار. رسامون، فنانون، لماذا تريد أن تترهب لأجل بيروشكاك هذه؟ تقول إنك على علاقة صداقة بها. صداقة لا أكثر، ولنرض أنه حب أيضاً، ماذا يعني ذلك؟ هيا.. لنخرج.. قه أمسية أدبية اليوم، حفلة موسيقية، تصوير فيلم، مسرحية هابلية...»

وجاء ذات يوم، باقتراح: «لنذهب إلى مجمع صناعي، لدي مهمة هناك. مكلف بتحقيق إذاعي مع العمال.. ما رأيك؟...» وافق من فوره، كانت المدينة الصناعية تقوم على الدانوب، في منطقة أثرية جميلة، وكانت مشهورة بشينين: الصناعة وحساء السمك. وكان كرم، خلال الرحلة كلها، على بهجة قلما عرفها في حياته. لقد أتيح له أخيراً أن يتحدث إلى العمال. أن يسمع بعضاً من ذكرياتهم عن الماضي وبعضاً من انطباعاتهم عن الحاضر، وأن يلمس الفارق، ويختبر عطف السلوك، وكيفية المشي، ويتفهم حقائق مهمة عن النمو الصناعي، وحقوق العمال، ومجمعات سكنهم، ودخلهم، وأمنهم، وظروفهم الصحية، ويتقبل بعض الكؤوس في نواديهم، وفي منازلهم أحياناً.

كانت المداخن، قبعات العمال، سكاكينهم وهي تقطع شرائح الخبز والشحم، الأبنية الضخمة، الآلات، الصهاريج البخارية،

المدير، ورشات العمل النشطة كالحلايا، تستوقفه، تندّ، تدقعه إلى نوع من الدهش، نوع من الغبطة، وإلى شيء من التأمل الصامت، فيه مشاركة، وإعجاب، وفيه أيضاً مقارنة، بين حياته الحافلة وحياة هؤلاء العمال النابضة بالفرح والقوة.

وفي مدارس أبناء العمال استعداد طقوله، أشد الطلاب بعض الأغاني تحية له. شرحت معلّمة الموسيقى برنامج التدريب على الغناء منذ الصغر. رأى إلى الوجوه المعافاة، الثياب النظيفة، البناء المشمس، الحدائق، الأشجار، الزهور، وتذكر ماضيه.. فيوه المعلم الذي تعلّم فيه مبادئ القراءة والكتابة، وقال لألبوش: «كذبت أبكي» سأله: «لماذا؟» ألم تكن مسروراً؟ أجاب: «نعم». كنت مسروراً.. رأيت.. لكنني تذكرت.. كان صعباً ألا أتذكر، وألا يمتزج سروري بأساي.. لقد صار في الدنيا شيء جديد، جديد حقاً..»

غير أنه، في متحف المدينة، وجد نفسه بشكل ما، كان البوش يقوم بالترجمة بينه وبين الدليل. الآثار الرومانية لم تكن غريبة عليه. وكان الدليل يجهد ليؤكد الصلات القديمة بين المجر وسورية. كان الرومان، الذين يقاتلون في سورية، يستعينون بأبناء القبائل المجرية الأشداء، وهكذا حلوا معهم من حصص بعض الأواني والنفوش. جندي مجري، حارب مع الرومان، لكنه تزوج امرأة سورية، انضم إلى السوريين. قال كرم ضاحكاً: «تأييدكم لنا قديم إذن» قال ألبوش الذي وجد فرصته: «نحن نفهمكم أكثر من شعوب أوروبا الأخرى، عرفنا الاحتلال العثماني، ثم الاحتلال الألماني.. ناضلنا طويلاً، وتعلّمنا، يا أخي، أن نقدّر تضال الآخرين في سبيل حريتهم.. صدّقني.. إتنا معكم.. ألم تسمع ما قاله العمال؟»

استشر كرم بعد هذه الزيارة عافية نفسه. حتى أن المتحف غداً أجل في نظره. لقد خرج من إطاره. كان يخشى أن يظل محدوداً بعالمه، فلا يعرف من حياة المجر سوى المثقفين الذين يزورونه، وسوى بعض النساء وبعض الشباب، الآن يستطيع أن يقول إنني أعرف أكثر. خالط، في بودابست، نفسها، بعض الأوساط، دخل بعض البيوت، كانت دعوات زواره المقابلة، تضح بالكريم والكياسة، وكان يتحدث ويسمع، وتترحب دائرة اطلاعه وتختلف زوايا النظر، ودرجتها، وجد المجرين منفتحين، يعملون ويعيشون، وتراوح أراؤهم في العمل والعيش، لكنها لا تنكر أن ثمة أشياء جيدة، وأن هناك تقدماً، وأن الرغبة في الحرية تندّني، والذين هاجروا، يطلبون، وبلحون في العودة، والسلطات تساهل، وتستقبل توبة وعودة حتى الذين وقفوا ضدها في الثورة، والذين أتهروا السلاح، وكانوا مضطّرين، وفي الجمع الصناعي، قال له عامل نصف، ممثلي، قوي البيان، وهو يجلس أمامه على طاولة خشبية، ويشرب أقذاح السيد وهو يتلمظ: «إنني عضو في الحزب، وعضو في مجلس النقابة.. حسناً معنى هذا أنهم ينقون في وبرأيي. هذه الثقة لم تأت بنوصية، أنظر (فتح كفيه أمامه) هذه العقد في الأصابع، إنها من العمل، أنا ميكانيكي، وقد شاركت في بناء وتركيب مصانع كثيرة، أعطيت برهاني. زوج أختي يعرف هذا. ومن قرناً كتب إلي، بعد هجرته إثر الثورة المضادة، طالباً أن أسعى له في العودة، راجعت شأنه، وافقوا على عودته. كنت إليه، حضر، لم أقل له شيئاً، لست من أنصار الوعظ، تركت له أن يختار الحياة، يكتشفها بنفسه. بعد تسوية أوضاعه عاد إلى العمل.. مضى على ذلك عامان، جاءني قائلاً: «يا قريبي، أريد السفر إلى

إيطاليا مع زوجتي في هذا الصيف، لكنني، كما تعرف، لست موضع ثقة، أنت تعرف موقعي.. طئي أظهم لن يسمحوا بخروجي من الوطن ثانية.. أرجوك، قل شيئاً طيباً عني، اكفني، وفكرت في الأمر، تحدثت مع بعض معارفي، قالوا لي ليتقدم بأوراقه، فإذا واجه عقبة ما تساعدك.. أبلغته ذلك، نصحته أن يطلب جواز سفر وإذنًا لقضاء إجازته في إيطاليا، وعده خيرًا. لكنني لم أ تدخل.. منذ أسبوع عاد إلي ضاحكاً.. «ماذا؟» سأله، قال: «منحوني جواز السفر وتأشيرة خروج، وقال لي الموظف المختص: نحن نعرف من أنت. لكننا نمنحك جوازاً حسب الأصول. هذا حقكم كمواطن بعد مضي عامين على عودتك.. تستطيع أن تسافر مع زوجتك، وأن تأخذ حصتك من القسط النادر، وبمكثك أيضاً، ألا تعود.. نحن لا نريد إمساك الناس بالقوة» سألت قريبي: «وأنت صارحي، شعور؟ فأجابني: «لا شك في ذلك.. وسأكون عند حسن الظن».. أضاف العامل بعد أن شرب آخر ما تبقى من الزجاج، ومسح شاربته الكثرة بلفظ يده: «نحن نضحك عندما يظنكون في الغرب ويزمرون للحرب بحري.. لرغبته في الهجرة.. أنا أسألك: لو فتحنا باب البحر لمن يريد الهجرة من البلدان الرأسمالية إليها، أنظن أن البحر كانت تسع للراغبين عندئذ؟ هذه هي الحكاية.. تعلمنا أن نثق بأنفسنا، بنظامنا، بمواطنينا.. لماذا نضطرمهم إلى الحرب.. ليذهبوا بجوازات رسمية ويهربوا.. هذا أفضل».

بعد أسبوع كان كرم يتذكر كلام هذا العامل. سافر لمدة يومين إلى النمسا.. هناك لازمه إحساس بالضيق. فقدت إنسانيته بعض ركائزها.. خفت وزنه كإنسان.. ولم يسترجع شعور الاطمئنان إلا وهو يجتاز الحدود البحرية في طريق العودة. وعندما قص ذلك على

ضياء، قال هذا: «دوغري أوغلم (صحيح يا ولدي) أنا أيضاً مررت بهذه التجربة.. قلت في نفسي: يا ضياء، أيها الرجل الكاتب، أنت لا تعرف الغرب.. ينبغي إذن أن تذهب، أن ترى وتجرب.. والتسجعة؟ كدت أقفل تراب البحر وأنا أعود.. كرم! هل تحب أن هناك شيئاً بين أرض تركيا وأرض البحر؟»

وقال كرم في نفسه وهو يذهب وعجيء في غرفته: «يجب أن ضياء هذا محبول من الطبيعة.. أرجو أن يكون قد عرف، في الغرب، امرأة، أو صادق فتاة ما، لتكون تجربته كاملة.. لم تصور، هو الطويل، ذو الانحناء، والسترة الواسعة، ورباط الرقبة المخلول دائماً، يقع بين يدي النساء.. في حي ما من أحياء روما أو باريس، وضحك، إذ تذكر غوركلي، وكيف تعرض لمثل هذه التجربة، وكيف تمرقت سترته، وقال في نفسه: «لماذا لا تتطوع امرأة ما وتحب صديقي ضياء؟»

فجأة رن جرس الهاتف. كان المتكلم هو المبتز، في الملهى الذي تعمل فيه أيرجكا، قال له: «تعال، أيرجكا بحاجة إليك.. إنها بانتظارك..! «رغب في الاعتذار، قال له: «لا أستطيع الليلة.. إنني أعمل.. بلغها تحبتي».. لكن الهاتف رن من جديد، وقال المبتز: «أيرجكا لا تقبل اعتذاراً... إذا لم تأت أنت جاءت هي».

أعدّ قهوته وشربها بترقي. أشعل سيكارة. ذهب وأتى. وقف إلى النافذة، استدعى نسمة عابرة.. كانت طراوة الليل منعنة، رتل من النجوم معلق فوق، يشع كحيات ماس فوق مخمل سماوي. جاءت أشجار الحديقة، اقتربت، اقتربت، استشر ألفة معها. رغب أن ينسج على الليل، يظا هذا البساط العنسي ويمضي بعيداً، يمضي إلى المجهول هرباً من الانعاس، ثانية، في حياة عنكبوتية، لزجة، تلف

نسيجها حوله، حتى ليحس بقطنية هذا النسيج تملأ عينيه وفمه وأنفه، وتسد مجرى الهواء عن رتيبه.

رن جرس الهاتف للمرة الثالثة. بلغه صوت الميتر يسأل: «ألن تأتي؟» أجاب: «سأتي» لكنه، في داخله، اعترى أن يضع حداً لكل هذا.. هو لا يتكر أن العلاقة، حتى في الإفراط الذي صارت إليه، ما تزال إنسانية. وأنها، بالنسبة لكاتب، مبررة، لولا أن هذا «الكاتب» ينغمس في لهُو يحول بينه وبين تحقيق ذاته الإبداعية. إنه لا يارس حياً. يكذب على نفسه حتى في علاقته ببيروشكا. يلعب دور الذكر مع أنثى. لم يخلص لايرجكا، ولا حدد نوع صلته بها، كان يجب أن يصطفها، أن يبادلها عاطفة بماطفة، لكنه لم يستطع، لأن له علاقة ببيروشكا، ولم يستطع الوفاء لهذه، لأنه على علاقة بايرجكا، ثم ماذا؟

أسى أوصته بيروشكا، وهي تطل من نافذة الفطار، ألا يجنوا مع أبة امرأة، لكنه خابها مع روزيكا، وها هي ايرجكا تدعوه، وهو لا يستطيع، كما قال البوش، أن يترهب.. المهم ألا يفرط أكثر، وأن يضع حداً للزيارات، ويواصل حياته الاجتماعية على نحو ما فعل في زيارة الجمع الصناعي واللقاء بالعمال.

كانت ايرجكا في أغنيها الأولى عندما دخل، وأنه، أرسلت له قبلة في الهواء. صدح صوتها. صار أكثر حياة، أشد حاسة وحناناً.. صفق الحاضرون. صفق هو أيضاً.. أدرك أنها تغني له.. لم يفهم كلمات الأغنية. لغته الجبرية بسيطة، لا زهر يرسله لها، ليس إلا الحمر، وماذا، في تكريم فتاة، يفعل الحمر؟ لا بأس بتكريم العازفين.. أرسل زجاجة ويسكي. أحس عازف الكمان رأسه

شاكراً. لاحظت هي.. التحية وصلت، التكرم تم. «بحسن التصرف» قالت في نفسها.. وحين أقبلت، في ثوب أنيق، أعطته يدها قفيلها، وجلست وهي تبسم.. تذكرت أنه هرب وهي نائمة، كان في هروبه شيء، من ندم. فكرت: «هل يفضل تلك الفتاة الصغيرة بيروشكا علي؟»

جاء الميتر مبتسماً:

ماذا يريد أن يشرب السيد؟

- ماذا تود ايرجكا العزيرة؟

قالت ايرجكا:

- أنا صاحبة الدعوة الليلة..

قال الميتر:

- أوصت على زجاجة شامانيا مبردة، مع بعض المقبلات..

- حسناً، لتذوق الشامانيا المبردة..

- ولكنها شامانيا فرنسية.. ايرجكا هي التي انتنتها..

- في هذه الحال تشتريني متعة بالغة.. «كوسونيم سيبين»

ايرجكا (شكراً جزيلاً يا ايرجكا)

- كيريم سيبين (عفواً كثيراً)

وسألته ايرجكا فيما الميتر يملأ القدحين:

- تعلمت الجبرية؟

- قليلاً..

- نستطيع أن نتفاهم دولاً حاجة إلى ترجمة إذن؟

- أحسب ذلك..

- أين كنت طوال هذه المدة؟

- في البيت، في الجامعة، ومع بعض الأصدقاء..

- كتبت جيداً؟

- لم أكتب جيداً.. بل لم أكتب أبداً..

- خسارة!

- بل خسارة كبيرة.. لا أدري ما لي.. يجب أن أعود إلى

الوطن..

- تعتقد أن عودتك تحل الأزمة؟

- ربما..

- قلت لي، في المرة الماضية، إنك لا تحب.. إنك غير قادر على

الحب.. أليس كذلك

- نعم.. أذكر أنني قلت ذلك..

- هل كنت صادقاً؟

- كل الصدق..

- ما سبب هذا؟

- لا أعرف.. لا أستطيع أن أحب، أن أحب بمعنى، نحون..

لعل مثل هذا الحب قد فاتني، أو لعله لم يأت بعد.. إنني في أزمة.

قالت أيرجكا:

- لاحظت ذلك، فكرت فيه.. أنت، في هذه الحال، مريض

نفسياً، الحب، كما تعلم، مرض أيضاً، لكنه ينهي من مرض آخر،

هو عدم القدرة على الحب.. لقد كنت صادقاً معي.. كنت كريماً.

وأرعب في مساعدتك.. لذلك قررت أن أدعك ليبروشكا.. صاك،

معها، تتفتح قليلاً، تتحل عقبتك..

- لكنني لست معقداً كما تتصورين.. لست مريضاً تماماً.. الحب

ألوان.. إنني أحب الناس، الوطن، للفضية..

- لن أسألك أية قصة هذه.. أنا لست معنية بفضايا الآخرين،

لكن الحب، على ألوانه، ينبع من مصدر واحد، هو حب المرأة..

إذا كنت عاجزاً عن حب المرأة فأنت عاجز عن حب كل شيء..

هتف كرم:

- هذه سالعة! أنت تهمينني في هذه الحال..

- الآن، حان موعد أغنيتي الأخيرة.. بعدها مشرب بقية

زجاجة الشامبانيا ونذهب إلى البيت.. إنس ما قلته لك.. قد أكون

مخطئة.. إنني أجهل أشياء كثيرة، مع أنني خريجة جامعة.. هذا لا

يهم.. مكي لطيفاً، أرجوك.. هذه الأغنية لك.. لا ترسل أنها تحية..

بكفي.. أعرف قلبك.. إنني لست فتاة ملهى، وأنت لست زبوناً..

غادرته وهو غارق في يؤسه العاطفي.. أيرجكا قهمنه، ليس مثل

المرأة من بعدهم الرجل.. بكلمات قليلة كشفت عن جذور أزمة،

صبرته صاحب أزمة، فبلاً كان يعيشها ولا يحسن بها، الآن صار

مريضاً يعرف أنه مريض، هذا الإصراف الجنسي ليس إلا تعويضاً،

بما، من خلاله، أن يبلغ الارتواء العاطفي، لكنه، بعد عملية

الجس، يعود إلى الفراغ.. إلى فراغ رهيب في نفسه، إلى ظلمة

شديدي.. إلى جوع حقيقي لخبر هي التي قالت اسمه: الحب!

غنت أيرجكا، كان صوتها صافياً، دافئاً، ينادي، في غير ما

أعمل، حباً بعيداً، وكانت الموسيقى، رائحة، والحو الذي كان،

خلال الرقص، يضع بصحب الشباب، عاد الآن، مع الصوت

المعرد، إلى نوع من ابتهاج داخلي، كأنما جاءت اللحظة التي ينبغي

لكل إنسان أن يستعيد خلالها، في ومضة استرجاع، ذكريات هوى

قديم..

نادى الميتر وسأله: «ماذا تقول الأغنية؟» ابسم الميتر.. الشعر

لا يترجم.. كيف يقول؟ أليح كرم: «أرجوك، ما هو عنوانها،

مطلما ، الكلمات الأولى فيها ؟ قال المير : « هذه أغنية شهيرة ،
للشاعر اندريه أدى ، تقول : « في عيني ، يراك الناس أيتها المرأة » .
قال كرم : « شكراً ، فهمت » وقال في نفسه : « ليس في عيني أية
امرأة .. عيناى فارغتان . العين تمتح من القلب . قلبي بئر فارغة ..
وعيني بئرة فارغة .. عرفت الآن سبب إخفاقي في الكتابة .. »

غاض الرواء في قسامته ، شعر بأنه مذنب ، وحيد ، مهجور ، وأن
قلبا ما ، في هذا الكون ، لا يخفق مع قلبه ، لأنه عجز عن أن يجعل
قلبه يخفق مع قلب أبة امرأة في هذا الوجود ..

شربا من جديد .. وفي آخر الليل ذهب برفقة اميرجكا .. كان
يظن أنها ليلته الأخيرة معها .. هي أيضاً ظنت أنها ليلتها الأخيرة
معه .. في الغد ستاغر .. ستبقى شهوراً في الخارج ، وحين تعود ، ربما
لن تجده ، وقد لا يجدها ، فهي لن تعود إلى الملهى نفسه ، وليس من
سبب يدعو إلى اللقاء ، طالما أن الحب ، بينها لم يوجد ، ولن يوجد
أبداً ..

جنس فقط .. هذا كل ما يستطيع أن يمنحه .. وتفتكت النحة
برضى ، صديقين كانا ، امرأة ورجلاً كانا ، وحين الحمل الحسدان بعد
اتحاد شفي ، قبلها ، قبلها كلها .. عارية كانت وقبلها كلها .. وقبل
ظهر اليوم التالي أرسل لها باقة قمرنفل أحمر .

- ١٦ -

قما كان كرم يهبط الدرج ، في طريقه إلى حمام سينشيتي ، في
الصباح الباكر ، رأى شاباً يدخل الناية وفي يده حقيبة . الشاب لم
يره ، لكنه سمع وقع أقدامه بغير شك ، فلفظ في زاوية ما ، أو دخل
غرفة في الطابق الأرضي .

كرم لم يابه ، ولم يجد ما يلفته أو يعنيه ، وهكذا غادر المبى ،
وفي يده حقيسته الصغيرة التي تضم مشعة ومايو للسباحة .

وفي آخر الرواق من الناحية الشرقية ، قرع الباب ثلاث قرعات
متواصلة ، ثم تبعها ، بعد فاصل ، قرعة رابعة مفردة . أفاق محمد
حينش وفرك عينيه . أزاح ستارة النافذة . قال في نفسه : « لقد جاء ،
إنه هو : نديم الحمل . تعلم أخيراً أن ينقيد بالمواعيد . هذا لا بد منه .
الانضباط ، في مثل أحوالنا ، ضروري . لكم تبعت لكي أجعله
إنضاطياً » . وعلى الباب تكررت المحاولة . ثلاث قرعات متواصلة ،
وبعد فاصل ، قرعة مفردة ، وصاح محمد من الداخل :

- طيب ! طيب ! سمعت .. لماذا أنت مستعجل إلى هذا الحد ؟
قال نديم وهو يحتر جسمه ، مع الحقيبة الكبيرة التي يحملها ،
داخل الباب :

- أمازلت نائماً .. ؟ أعرفك دقيقاً .. كنت أحسبك تنظرني في
المجاز ..

- هذا ما كان يجب .. لكنني سهرت إلى ساعة متأخرة .. شربت كثيراً وغرقت في النوم ..

وبعد أن أغلق الباب أضاف:

- أدخل .. لا داعي للمجلة .. أنت لا تحمل أفيوناً حتى تخنط هذا الاحتياط ..

- ولكن الحقيبة مملوءة بالكائنات الأجبية والوسكي .. ماذا لو اشتبه بي أحد؟

- وماذا يضرك؟ تقول: هذا لاستعمالي الشخصي ..

- أنا الطالب أذكر كل هذه السيكارات وأشرب كل هذه الويسكي ..؟ من يصدّق ذلك؟ وعلى فرض أنهم صدّقوا، سيألوني من أين أتيت بها .. وعندئذ؟

- لا تكن جباناً .. أولاً لن يسألك أحد .. ثانياً تقول إنها وصلتكم من أهللك في سورية ..

- أنا الفقير، الذي يدرس الاقتصاد السياسي بمنحة من الحكومة المجرية، يرسل له أهله كلّ هذه الهدايا الفاخرة؟

- ولماذا لا؟ الحصول على منحة شيء، والفقير أو الغنى شيء آخر .. أكثر الذين يدرسون هنا حصلوا على منحة مع أن أهلهم ليسوا فقراء ..

أضاف، بنبرة أمرية:

- إذذهب واضع لي فنجاناً من القهوة، ريثما أفتح هذه الخزانة، وأرتّب ما فيها من بضاعة.

انصاع نديم للأمر. كان المطبخ يلي الغرفة التي ينام فيها محمد. الغرفة الثانية، على يمين المدخل، للزوجة التي لا تزال نائمة. مشى

حذراً، كي لا يوقظها، هم يعرف الست كما يعرف غرفته في قلعة الصيادين، هناك حيث يبيت الطلبة. إنه ينام مع زميل آخر، إذ لا قدرة له على استئجار بيت، مع أنه يشقّ إلى ذلك، ومحمد يسه بالعودة: «سيكون لك بيت مستقل يا نديم» «ومنى يصير هذا يا حش؟» «هذا متوقّف على نشاطك» «لكنني أبذل جهدي» هذا ليس كافياً بعد، «وقال في نفسه: «لو ملكت رأساً لعلمت لحثائي .. أخطر بنفسى، بدراستي، بمستقبلي في المجر، ومحمد يأخذ البصة وفشربها .. إنه داهية .. خلق ليكون مهرباً لا طالباً .. على كل فأت أوان دراسته .. مسألة الدراسة هذا حجة .. حصل على منحة .. مدد المنحة .. مدوها ثانية، ثالثة، كيف، يا ربي، يتوصّل إلى هذا؟ وكيف، في حركة بارعة، خفية، يحصل على هذا البيت؟ ظل يسعى حتى أصبح مترجماً في الإذاعة .. يترجم نشرة الأخبار للنجم العربي .. فعل ذلك ريثما حصل على هذا البيت .. ثم انقطع .. زعم أن العمل على القطعة لا يؤايبه .. إما أن يصح موظفاً كاملاً أو يترك .. ترك الترجمة والإذاعة واحتفظ بالبيت .. من يستطيع إخراجه منه؟ في المجر لا يلقون الناس في الشارع .. إنه يعرف القوانين جيّداً، يستفيد من الحقوق دون الواجبات، يقول إن له حقاً .. أما الواجب فيضحك: «مرحباً واجب ..» يقول أيضاً: «الشاظر يدبر رأسه، أنا دبّرت رأسي، وسأدبّرك يا نديم .. لا تكن لحوجا ..» لكن نديم تساءل وهو يطهو القهوة: «منى يدبّرني هذا الشيطان الذي استحوّني إلى هذه الورطة؟ أكاد أضيع دراستي .. إنه لا يبالي بهذه الدراسة، يقول: «كن مثلي .. أنا مسجّل للدراسة، لكنني أعمل شيئاً آخر، أكثر فائدة ..» ربما كان هذا ملائماً له، لكنني أنا أكاد أضيع المنحة، إذا لم أنجح، طردت من المجر .. أنا لا

أعرف كيف أدبر أمري.. وهو يقول: «لا تخف.. محتك سُدَّد.. هذه علي.. لا تتدخل أنت في شغلي، ولا تقلق، نقد ما أقوله لك.. عملنا يحتاج إلى شئين: «عدم المناقشة، ودقة التنفيذ».

أحضر القهوة وفي نفسه حق.. حبش بنام هائناً إلى الضحي، بعد سكرة لعينة إلى الصباح، وهو يرتجف في وقفة مريبة، في زاوية شارع خلقي، ربنا يتسلم البضاعة ويأتي بها إلى هنا.. وبعد ذلك يلقي عليه حبش مواعظ في رباطة الجأش، وعدم الخوف. لا يرى أنها خطر حتى ولو قبضوا عليه.. إنه يهون الأمر، يرى المسألة بسيطة: «هذا لاستهلاك الشخص»، حفيظة من السكائر والويسكي، وعلى إقناعهم أنها لاستهلاك الشخص، وأنها مرسلة إلي من سورية.. هذا الوعد، بحسب أنهم بلهاء حتى يصدقوا مثل هذا التلفيق.. وماذا يمينه صدقوا أم لا.. إذا وقعت فإنه سيكر معرفته بي، يزعم أنني أفترى عليه، في محاولة لإيقاعه.. أنا لن أستمري في هذا الانحراف، لن أعيش مرتعد الأوصال، علي أن انقذ نفسي منه. أهرب من وجهه. أقطع كل صلة لي به.. وفي حالة كهذه فقط أطمئن.. وفي جو الاطمئنان وحده أستطيع الدراسة.

كان حبش ما يزال جالساً على حافة السرير، البضاعة أمامه فوق طاولة مستطيلة. كان متورم العينين بشكل ظاهر، يبدو من فتحة القانيلا شعر أسود كثيف في صدره. رأسه صغير، والقسم الأعلى من جذعه ضيق، بخلاف القسم الأسفل، العريض، الممتلئ إلى درجة السمنة، كأنما تشكل قوامه على شكل هرم، فيه إفراط في الوسط، وضمور مع استطالة تبلغ الرأس ذي العينين الرجراجتين.. تناول القهوة دون أن ينظر في عيني نديم الذي أعدها له،

ترشها متمهلاً، أشعل سيكارة. سحب منها أنفاساً نهمة. قال بلهجته الصارمة نفسها:

- الزبائن لن يأتوا إلّا في الليل.. هذه البضاعة ستنفق كلها، وعلينا، بعد ظهر اليوم، أن نحدد كمية منها من مصدر آخر. دُع هذا الأمر علي.. دورك، في صباح الغد، أن تتسلم البضاعة في المكان الذي أعددته لك.. وسأكون، عند وصولك، صاحباً.. لا تقلق.. أما الآن فستنصرف إلى شغلنا اليومي المعتاد، هاك كمية من النقود المجرية، هذه مئة ألف من الفورنتات.. لدينا مجالات كثيرة لمبادلتها بعملات أجنبية.. هناك المقاهي والفنادق، حيث يتواجد عرب أو أجانب جاءوا للسياحة. إنهم ينتظرون أن نقدم لهم خدماتنا.. فورنتات مقابل دولارات أو ماركات غربية.. ولا بأس بالفرنك الفرنسي والويسري أيضاً.. الأفضل هي الدولارات.. تدفع أكثر في سبيل الحصول عليها.. أي مجال تختار لعملك: المقاهي أم الفنادق؟

قال نديم:

- سأذهب إلى الجامعة اليوم.. منذ أسبوع لم أحضر درساً واحداً.. فانتني محاضرات مهمة.. لا بدّ من التعويض كي أجمع.. إنني قلق جداً.. شغلة التهريب هذه تضعني أمام مصيرين: السجن، أو الطرد من المجر..

أشعل حبش سيكارة جديدة.. كان يسمع لامبالياً.. الذبابة التي وقعت في شبكة العنكبوت لن تنفلت من نسيجه الدبق بالسهولة التي تظن.. بعد العمل معه لا يجوز الانفصال عنه.. هذا تصرف غير لائق من جهة، وخطر من جهة أخرى. من يُقدم على ذلك

بمعرض نفسه للانتقام.. وهو، جيش، له أساليب كثيرة للانتقام،
بينها السجن، والطرود العوري من الحجر.. وعلى هذا فليس من سبب
للانزعاج.. ليدع نديم يقش خلقه.. يعبر عن صحوة ضمير لم يت كذا
يجب بعد.. المهم أن ما يطلبه سيفد.. وعلى نديم أن يختار: المفاهي
أم الفنادق.

قال وهو يخرج الدخان من فتحتي أنفه المفلطح:

- هذا اللغو الذي لا فائدة منه صار مرفقاً.. اشرب قهوتك..
إليك سحارة.. سأكل شيئاً الآن، ثم يخرج إلى الشغل.. اذهب
إلى مقهى «أم كي».. هناك تجد جوجا بانتظارك.. إجلس معها.
قدّم لها ما تطلب من مشروب. هي تنتظر زبائن، ونحن ننظر
زبائن.. الموقف واحد إذن، والتعاون جيد، لمصلحة الطرفين..
نستطيع أن نحسب زبوتك إلى غرفتها، هناك تبدّل له العملة.
وهناك تقدّم له جوجا جدها.. العربي زبون أفضل.. محروم
أكثر.. يريد امرأة بأي شكل.. تستفيد من تبديل عملته ومن
مكافأة تقديم جوجا إليه.

- لنذهب جوجا إلى المحيم.. صيرتني مهرباً وقواداً.. أنا لا
أستطيع الاحتمال أو الصبر أكثر.. لن أجلس في المدخل بينما يكون
الزبون مع جوجا في التخت.. أعصابي لا تتحمل..
- أعصابك ستتحمل.. ستعناد.. وستعرف اللذة في المستقبل..
القواد (وأنا لا أحب هذه الكلمة.. أفضل عليها كلمة الوسيط)
القواد له لذته أيضاً... يرى، يسمع، يستمتع.. في بريطانيا كان
رجال يارزون، يدفعون مبالغ لمعارضة أزياء شهيرة.. كي يروا من
فجوة في الجدار، إلى ممارسة الجنس أمامهم..
- هؤلاء شاذون..

- وما هو السيئ في الشذوذ؟.. نصف أوروبا شاذة.. اللذة،
في حال كهذه، تتضاعف..

- ولكنني سأذهب إلى الكلية كما قلت لك..

- لماذا؟ كي تتجح؟ وماذا يعني النجاح؟ شهادة.. وما هي
الشهادة؟ وسيلة عمل.. وما أنت تعمل، تريح أكثر.. وتبقى في الحجر
غائماً متنعماً.. أليس هذا أفضل من العودة إلى بلادك. حيث البطالة
ووجع الرأس؟ أم تظن أن العمل ينتظرك على الحدود؟
- مهما يكن، مهما يكن أريد أن أخرج.. إذا سقطت هذا العام
طرودي..

- لن يطرودك أحد.. هداياي لها فعل السحر.. سنتنقل إلى
كلية أخرى.. تبقى في الحجر ما شئت.. تفعل مثلي.. لو أردت
النجاح لحققته منذ زمن بعيد..
- لكنك نجحت في الدبلوم..

- وأمامي الدكتوراه.. هذه ستطول.. أنت أيضاً ستنجح في
الدبلوم، وعلى تدبير منحة الدكتوراه.. وبعد ذلك يكون لك
بيت، وزوجة، وتبقى في الحجر إلى ما شاء الله..
- هذه مغريات.. وعود كاذبة.. أهلي أرسلوني للدراسة والعودة
بأسرع ما يمكن..

- أهلك متخلفون.. الذي يعيش في الحجر مثل الذي يعيش في
سورية؟ فكّر أنت..

- ولكنهم ينتظرون عودتي لمساعدتهم..

- سأجملك تساعدكم.. لا تستعجل..

- لكنك تضعني في طريق خطرة.. إنني خائف.. دعني أكن
صريحاً معك.. إنني خائف..

- الخوف شيء طبيعي، خاصة في البدء.. لقد أعددت لك مفاجأة..

- ما هي مفاجأتك هذه؟.. تربية جديدة؟
- اتفقت مع جوجا أن تكون لك الليلة.. خذ النقود واذهب إليها.. بمجرد أن ينتهي عملكما تكون لك.. ستبقى عندها إلى الصباح.. حين تفرغ من زبائنها تكون لك.. رتبت معها كل شيء..
أضاف بعد صمت:
- الآن حان وقت الخروج.. أنا سأرتدي ثيابي، أما أنت فاسبقني إلى المقهى..

كانت مع نديم حقيبة يد صغيرة.. أفرغ محتوياتها على الطاولة، رتب نصف الأوراق النقدية وحشرها فيها.. لم يبق مجال للعبة السجائر.. وضعها في ساق جرابه تحت البطال.. تفقد الهوية الجامعية، حلق ذقنه، أصبلح ملابسه.. كان يرتدي شرة فضفاضة، صيفية، وضع ما تبقى من الأوراق النقدية في جيوبها الداخلية، تطلع في المرأة، له وجه طالب، شاب صغير وطالب.. لم يترك السهر والسكر آثاره على وجهه كما فعل مع جيش.. يستطيع الآن أن يخرج هادئاً، مطمئناً، فليس معه أي شيء مهرب.. غلبة سكاثره فقط كانت مارلبورو.. هذه جزء من عدة الشغل، يضعها على الطاولة، وفوقها الولاة الغازية من نوع رونسون.. شارباه الأسودان، إضافة إلى لونه الأسمر، يدخلان في مواصفات الشغل.. صارت له، بحكم الممارسة، فراسة في الأشخاص، في وسعه تمييز الغريب من دخوله، من تردده، من اختياره الكرسي، من تلفته.. يراقبه من بعيد.. إذا كان الجو خالياً، يمكن أن يذهب إلى طاولته، في حال الانتباه بوجود مراقبة، ينتظر حتى يخرج من المقهى فيتبعه.. لكل حال

موقف.. هو لن يخاطر بؤده أن يقوم بعمله دون أن يخاطر.. قيل له إنه أصبح مشبوهاً، لكن البوليس المجري لم يوقفه ولا مرة بعد.. إنه غير مراقب حتى الآن، وجلوسه مع جوجا، ثم خروجها معاً، بصرف النظر عن مهمته الحقيقية، جوجا مشبوهة جنسياً، يحسبونه على علاقة جنسية بها.. في هذا المجال الاهتمام أقل.. المراقبة غير شديدة.. في مسألة الجنس تساهل إلى حد ما.. جيش يتقن عمله.. له زبائن كثيرون.. له كذلك صديقات.. في كل مقهى، في كل فندق، له عاهرة.. لكنه لا يكشف اللواتي يتعامل معهن.. عرفه بجوجا فقط.. جوجا جميلة، شفاء، قارعة، مغرية ومنيرة.. إنها فح صالح.. دور هذا الفح، بالنسبة إليه، نصريف العملة فقط.. القوادة بعيدة عن ممارسته.. يكره أن يتحدث إلى هذا الدرك.. لن يبحث عن زبائن يريدون الجنس.. هذه مهمتها هي، هو سيحضر احتامه بالذين يريدون تبديل نفودهم.. وماذا في هذا؟ في كل سفارة موظفون يقومون بالعمل نفسه.. هؤلاء، موظفو السفارات، وحتى الكبار منهم، يزاحونه مزاحمة شديدة، ما إن يصل وفد، حتى يهمسوا في آذان أعضائه أنهم في خدمتهم.. ويفهم أعضاء الوفد.. في السفارات، في الفنادق التي ينزلون فيها، يجري تبديل العملة بأطمشان.. هؤلاء لديهم حصانة.. لا أحد يسألهم، في وسعهم، إذا شلوا، أن يقولوا إنهم يقدمون مساعدة لمواطنيهم، لكن أحداً لا يسألهم.. لو سألوا موظفي السفارات، ولأحقوا عمليات التهريب التي يقومون بها، لاضطروا إلى طرد أعداد كبيرة منهم.. ليس من سفارة يمكن أن تسلم في هذه الحال.. جيش قال ذلك وهو يعرف، وكذلك يعرف نديم.. ولو كان موظفاً في سفارة، لعمل مطمئناً، وحقق صفقات دون أن يتعرض إلى أي خطر..

خرج من البناية ١٩ في بترور أوتسا، سار في شارع بيضا أوتسا إلى نادي الصحفيين، هناك انتظر الباص رقم واحد، وعند تقاطع شارع الجمهورية بشارع لينين نزل من الباص وركب الترام، وبعد دقائق كان في مقهى «أم كي». لم يدخل رأساً. سار على الرصيف متمهلاً، راقب محيط المقهى، تفرس من وراء الزجاج بالجالسين في الداخل، جوجا لم تأت بعد. قد يكون لديها زبون. في هذه الحال تتأخر. العمل في صالات الاستقبال، في الفنادق، أسهل، تعرف القادم من حقائبه. تعرف الغريب من لباسه، تعرفه أيضاً من كلامه مع العاملين في الاستعلامات. حيش يربط هناك. يختار الأماكن الأسهل، لكنها الأخطر أيضاً، رجال الأمن، هناك كثيرون، الرقابة شديدة، لكنهم لا يستطيعون التدخل، خاصة حين يكون التزلي عربياً، ويتقدم حيش عارضاً خدماته، من الترجمة مع موظفي الفندق إلى المرافقة للتسوق في هذه الحال لا يستطيع البوليس أن يشبه مواطنان من بلد واحد، وقد يكونان صديقين، فكيف يمنع أن يتحدث أحدهما إلى الآخر؟ كيف يمنعها من الخروج إلى السوق، إلى النزهة، إلى المقهى، إلى المطعم معاً؟ حين يصير لك رأسال يا نديم سترابط هناك، في أبهاء الفنادق. أما الآن فانت محكوم. حيش معلّمك، ويريدك أن ترابط في الـ «أم كي»، وها أنت فيها. ادخل إذن. اشرب القهوة، راقب الباب، افتح عينيك وأذنيك. وحين تصل جوجا اشرب معها قدحاً من البيرة.. وشكون، ما دامت معك، محبة للنظر.. المهم أن يفتح الله عليك بزبون مليء.. بزبون يجعل مبلغاً طيباً، ويريد أن ينفق، أن يستمتع ويتسوق.

دخل المقهى حذراً، كانت النباتات الخضراء، في المساكب قرب المجران الزجاجية، وفي آنية أشبه بالبراميل، تعطي المقهى جواً

ربيعياً، يتناقض والسطوع الصيفي، لحرارة غير مألوفة، في الخارج. وكانت الموائد، والكراسي، وزجاجات المشروب. وشرائط الطاولات، كلّها تعطي انطباعاً حلوّاً، فيه عبطة. لكن نديم ما كان قادراً أن يشتط، كان الغلاف الخارجي لقلبه قد بدأ يتكلس، الرقض الداخلي، للمهنة القذرة، والاضطرار الخارجي، للمهنة ذاتها، للسقطة التي اندقع إليها، وكل الوضاعة المتولدة عن مهنة يتعة، تحجر كبده، تزيد سواداً حتى يصبح، يوماً بعد آخر، فحمة قذرة من ليل.

جلس في زاوية مقابل الباب، أحس أنه عاهر، وأن جلسته، في ترصد زبون ما زال مجهولاً، جلسة عاهرة، وتمنى أن تأتي جوجا بسرعة، شريكته في العمر، ليجد فيها صورة لنفسه، ويتخلص من وحدته، من وحشته المسورة بإحساس مهين إلى درجة اللعنة. لكنه، وهو يمارس شعوره بالذلّ هذا لمح رجلاً يدخل المقهى. توقف الرجل عند الباب، تطلع في الجهات الأربع للمقهى، وانحى إلى طاولة في الزاوية.

ارتعش نديم للمصادفة الحميدة. ها هو زبون، زبون مغر كما يبدو من وجاهته. إنه صيده المنتظر، عليه أن يراقبه عن بعد. يترقب في النهوض والدوران حوله. ربما كان على موعد مع أحد الطلاب، عندئذ تصبح مهمته أصعب. معها الخطأ فإنه لن يجرؤ، أمام طالب يدرس مثله في بودابست، أن يعرض خدماته بشكل سافر. إمتدت يده إلى الولاغة. أمسكها بأصابع متوترة. أخفاها في جيبه. انتظر قليلاً. لم يأت أحد، ظل الرجل وحيداً... نهض متمهلاً، مرّ أمامه دون أن يتوقف، تفرس فيه، إنه سوري أو لبناني، هذا ما استنتجه من هيشته غاب دقائق ورجع، كانت الآن

سيكارة في يده. اقترب من الطاولة متردداً. وحين رآه الرجل وبده سيكارة، حسب أنه يطلب ولعة. دنا وقد وضع السيكارة في فمه. قال بالعربية:

- عفواً.. لا أحل كبيرتاً..

قال الرجل وهو يشعل له السيكارة:

- تفضل..

أضاف:

- هل أنت عربي؟

- نعم، عربي من سورية، أدرس في المجر.. وأنت؟

- من سورية أيضاً..

- تشرقنا.. قلبي خفق لمراك.. يا ربحة الوطن..

- أضاف: هل من خدمة؟

قال الرجل:

- شكرآ.. تفضل إجلس.. إشرب قهوة معي..

جلس.. شرب القهوة. تحدّث عن بودابست، امتدح ما فيها من أشياء جميلة، بالغ في المديح، وفي ذكر الأماكن التي يمكن أن يزورها السائح.. ثم سأله:

- تريد أن تسوّق ولا شك..

فكر كرم قبل أن يجيب:

- أريد طبعاً.. هل هناك أشياء جيّدة يشتريها الزائر؟

- هناك أشياء كثيرة.. مصنوعات يدوية، خشبية، ومعدنية،

تذكارات، أفمشة.. و..

- ماذا أيضاً..

- الفرو.. فرو الفيزون.. إنه رخيص، ينصف ثمنه في الغرب..

- وبأية عملة أدفع؟

- بالفورنت.. العملة المجرية.

أضاف:

- أستطيع أن أخدمك في هذا المجال..

سأل كرم:

- تخدمني بأي شيء..؟ بالترجة؟

قال نديج:

- بالترجة وتبدل العملة؟

تغرس كرم في وجه الشاب، دقّق أكثر، نظر إلى ثيابه، وعندئذ تذكّر الشاب الذي رآه يدخل باب البنّاية في بانتروراوتسا وببده حقيبة كبيرة. قال:

- لكنني إذا أردت شراء الفراء، احتاج إلى مبلغ كبير..

- المبلغ، مهما يكن كبيراً.. موجود.. إنني مستعد.. قال كرم

في نفسه: «هذا واحد منهم..» وبقرق وسخط، سأله:

- تقدّم هذه الخدمة لي أم للجميع؟ سمعت عن الذين يعملون في

السوق السوداء، وعن تواجدهم في كل فندق ومقهى، وفي هذا

المقهى بالذات، لكنني ما كنت أتوقع أن يتعاطى طالب سوري هذه

المهنة.. ألا تعمل مع محمد جيش؟

- ومن هو جيش هذا؟

- تجاهل؟ غنم مهنته وتجاهل؟

- وماذا أعمل؟.. أنا محتاج..

- والمنحة؟

- لا تكفي..

- كيف تكفي الآخرين؟

- الغريب لا يستطيع تقدير وضعنا هنا.. هذا البلد اللعين،
ماذا أقول..؟ أودّ جمع أجرة السفر للفرار إلى الغرب..
قال كرم ساخراً:

- هكذا إذن!.. تشرب من البئر وتزعم فيه حجراً.. تتشبه
أيضاً.. وربما تتجسس عليه.. اسمع: أنت قذر، ولو لم تكن عربياً،
وسورياً على الأخص، لفضت عليك وسلمتك للبوليس.. ألا تحجل
من هذا السلوك؟ هيا، انفض عن هذه الطاولة. أخرج من المقهى
كله.. لا أريد أن أرى هذا الوجه ثانية.

وقف نديم والعرق يبلل جبينه.. لقد صادف أناساً رفضوا
عرضه مراراً، لكنهم لم يترعوه على هذا النحو. الذي يتكلم ليس
زائراً عادياً، ليس سائحاً، لا بد أنه صديق للمجر ويعرفها جيداً..
لا بأس.. إنها بداية سنة.. ليخرج قليلاً.. ليتوارى ثم ليُعد، حين
ينصرف..

طاف في الحارات القريبة، أحس أن الرجل صغره، وكله على
قفاء.. لمن حمش في سره، مهنة الهرب كمهنة القواد.. عار.. إنه
مسرّبل بالعار.. طالب جامعي ومهزّب؟ أما كان من الأفضل لو
درس مجد وحصل على شهادته وعاد؟.. ما أتفه حياته! كيف يستمرّ
فيها؟ وهذه الكمية من النقود في حقيبته وجيوب سترته.. يعود إلى
حمش ويلقيها في وجهه؟ يقول له: «أنا أقلمت عن العمل معك
يتوب..؟» ولكنه مدين لحميش، والسنة الجامعية ضاعت.. إذا لم
يسع له حمش في التمدّد طرد من المجر.. يا لها من ورطة! إنه
يعوص في مستنقع تنن.

حين عاد إلى المقهى كان كرم قد انصرف، كانت جوجا هناك،
تجلس وحدها على طاولة تراقب منها المارة على الرصيف. اقرب

وحياها. جلس صامتاً، كان يفضّ دلكه، كان عاجزاً عن «العمل»
هذا اليوم، لكن جوجا أخبرت أنها بانتظار زبون عربي من لبنان،
وأنة يريد تسديل كمية من الدولارات بعملة بحرية.. قالت إنها
متفاهمة مع حمش على كل شيء.. وحالما يأتي الزبون يذهبون
ثلاثتهم إلى غرفتها.

لم يقل نديم شيئاً، ظل واجماً مرتبكاً، منكسراً. سألته جوجا عما
إذا كان حادث ما قد وقع له، أو أن أحداً يراقبه، فأجاب سلباً.
طلبت له فتجاناً من القهوة، وراحت تسري عنه بانتظار الزبون
الموعود، الذي تأخر قليلاً..

حوالي الظهر كانوا ثلاثة ينحدرون باتجاه تقاطع شارع لستين مع
شارع الجمهورية.

قام نديم بدور الترجمان بين جوجا وصاحبها، لم يقل له هذا
شيئاً، لكنه عامله كفواد.. كانت نظراته إليه تطوي على احتقار.
أغصى نديم على هذه المعاملة، أطرق وهو يسير.. وعند تقاطع
الشارعين ركبوا سيارة أجرة انطلقت بهم إلى حي قديم في
بودابست.. وهناك صعدوا درجاً معتماً، فلما انتهوا إلى غرفة في
الطابق الثالث، تقدّمت جوجا وفتحت الباب، فنأخر حتى دخلا،
وتلقت حوالبه، وأطل من بسطة الدرج ليرى ما إذا كان ثمة من
يراقبهم.

كان بيت جوجا مؤلفاً من غرفة، ومجاز صغير، ضيق، يقوم مقام
الصالون، وكان الزبون تاجراً للأجبان، في الأربعينات، واسمه
مصطفى. كان مستجلاً، وكان معتقلاً، ولا يصدق أن جوجا تصل إلى
ذراعيه. لكن هذه لم تكن مستعجلة. خلعت جاكيتها الصيفية.

فاندفع إليها وعانقها. لم ترفض. قبلته بدورها. ولما طلب منها أن تتخفف أكثر فعلت. بقيت بالثلثة، وجلسا على خوان، أمامه طاولة واطئة، وقام نديم بخدمتها. جلب لها، كما طلبت جوجا، زجاجة نبيذ. فتح بعض العلينات. حل بعض ما في الثلاجة من طعام، وعندئذ دعت جوجا، التي كانت تجلس في حضن زيونها الآن، عارية الفخذين، أن يشرب كأساً معها. تكلم معها بالهجرية. قال إنه يريد تبديل العملة للرجل والانصراف. سأله كم يجعل من الفورتينات فلم يجبه صراحة. قالت إنها تريد مبلغاً كبيراً، وأنها تعطي نفسها مقابل ذلك دون أن تحدّد وقتاً.

ترجم نديم ما قالته.. طلب منه أن يدفع سلفاً، لكن مصطفى كان يريد أن يضاجعها أولاً.. وعدّ أن يدفع أي مبلغ تطلبه إذا كانت لطيفة وأرضته. قالت لنديم: انتظري إذن، سأجعله يدفع كثيراً، ثم دخلت غرفة النوم، ودخل مصطفى وراءها، وأغلقا الباب. بقي نديم في الخارج.. بقي في وضع قواد وجلسته. كان يسمع.. كان يشعر بالعار والقهر ويتمنى أن ينتهي كل شيء بسرعة.. ولم تتحقق أمنيته، فقد طالّت العملية الجنسية، وكانت جوجا تتصرف بغير حياء.. تتأوه، تصرخ، تضحك بصوت عال، وتتفنن في إرضاء زيونها، غير آية بنديم الذي تعرف أنه خارج الباب، وربما كان ينظر من ثقبه.. لكن نديم ظل جالساً لا يحس بلذة القواد التي حدثها عنه خيش.

أخيراً فتح الباب. خرجت جوجا عارية تماماً. غمزته وهي قرّ به في طريقها إلى الحمام. بقي الرجل في الداخل يرتدي ثيابه، تنفس نديم الصعداء. اقتربت اللحظة التي تبدأ فيها مهمته بتبديل النقود.. لكن جوجا، حين عادا إلى الجلوس على الخوان، طلبت

أجرها دولارات.. قبضت ٢٠٠ دولار. كان المبلغ كبيراً، لم تحصل على مثله من أيّا زيون سابق، لكن مصطفى كان راضياً، لقد أمتعته جوجا، وسألها، بواسطة نديم، عما إذا كانت تستقبله مساءً أيضاً، وأن ترخصي بقضاء الليل معه، فقالت وهي تضحك:

- أوكي.. أنا رهن اشارتك مادمت تدفع جيداً..
أضافت:

- جادفع إلى نديم شيئاً ما..

فدفع، وسأله «ألا تريد تبديل دولارائك بفورتينات؟.. يجب أن تكون معك عملة هجرية، أودّ السهر معك الليلة، في أحد المطاعم، وبعد ذلك تأتي معاً لغارس الحب هنا».

سأل:

- ومن يبدّل لي؟

- أسأل نديم.. أطلب منه أن يساعدك..

قال الرجل:

- بوذي تبديل كمية من الدولارات.. هل تساعدني في ذلك يا نديم؟

- لا أعرف من يقوم بهذا العمل.. لكنني، لأجل خاطرك،

مستعدّ أن أقوم بخدمتك بنفسي.. طمّني أنني أحلّ مبلغاً يكفي.. كم تريد؟

- كم تدفع مقابل الدولار؟

- ٣٥ فورتناً..

كان مصطفى يعرف، بما سمع، أن الدولار يساوي ٤٠ فورتناً في السوق السوداء، لكن نديم أصرّ على ٣٥ فورتناً فقط فرفض الرجل التبديل، وبعد مساومة دفع نديم ٣٨ فورتناً، وأخرج من حقيبته

وجيب سترته كمية كبيرة من فئة المئة فورنت، وراح يعدّ، والرجل يعدّ معه فلما بلغ العدّ عشرة آلاف فورنت، قال:

- كفى، لا أحتاج أكثر..

- ولكنك ستحتاج لدفع حساب الفندق، والمطعم.. وشراء الهدايا.. ولن تجد بسهولة من يخدمك مثلي.. في بودابست فروع جيد.. فروع الفيزيون، فمنه مضاعف في الخارج.. أنصحك.. تستطيع أن تربح ضعف ثمنه.. وستكون السيدة زوجتك مسرورة جداً بهذه كهذه لو قدّمتها لها.

- ولم تقدر فمن معطف الفرو؟

- لا أدري.. قد يصل إلى عشرين ألف فورنت.. لكنه تحفة، تحفة نادرة يا عم مصطفى.. أنا مستعدّ لخدمتك في شرائه أيضاً.

تقرّس هذا في وجه نديم الذي لاح فيه الشرّة الآن، وقال ساخراً:

- قوّاد.. تريد أن تشلّحني فلوسي كلها؟.. أخذت أجرة القوادة. وفرق تبديل العملة، وتريد أن تخدعني في مسألة الفرو.. تحسب أنني أجهل مقاصدك؟ قلت لك إنني تاجر أحيان.. معنى هذا أنني أعرف البحر، ولي فيها عملاء.. ولا علاقة لي بالفرو.. إنني لا أفهم فيه.. هيا.. اجمع فلوسك وانصرف.. دعني وجوجا وحيدين.

- أنا لا أسمع لك..

صاح مصطفى محتدّاً:

- اخرس!

تبدلت سحنة نديم تبدلاً كاملاً. امتنعت. احمرت أذناه.

وحدها.. يس الكلام على شفتيه. فكر لحظة في المراك. لكن مصطفى كان يستره بنظرات أحدثت ثقباً في جلده. لم يذب من الحجل. ما كان مادّة قابلة للذوبان. لكنه استشر انكساراً جديداً، تضاعل معه جسده داخل جلده. ظلت كلمة «قوّاد» ترنّ في أذنيه، وبقي يحاول ابتلاعها دقائق، فلما انصرف عنه مصطفى إلى تقبيل جوجا، وجد فرصته ليجمع ما دفعه له، وما تبقى من عمله المجرية الملقاة على الطاولة، وحين وضع كل أشياءه في جيوب سترته، بهض حاملاً تحفة أليد وقال لجوجا:

- أنا ذاهب..

غير أنه، قبل أن يتخطى العتبة، سألهما:

- ستكونين مشغولة الليلة؟

- لماذا؟

- حبش قال..

- ماذا قال؟ وضحكت بفجور..

أجابها:

- لا شيء.. لا شيء..

أغلق الباب وراءه منحدرّاً على السلم الحجري، وهو يتنفس ارتياحاً. لقد كسب اليوم شيئاً ما، شيئاً محرراً، لكنه، فجأة، تسرّع.. استدار ليرجع، فإذا رجل الأمن يصيح به:

- لا تتحرك.

حاول القفز لكن فوهة مدس ضغطت على ظهره، وقال له

رجل أمن آخر:

- هيا معنا!

- إلى أين؟

وقال في نفسه : « عملها حيش ممي ؟ » غير أن حيش كان قد سبقه إلى دائرة البوليس أيضاً ، وبعد قليل دخلت جوجا التي قبض عليها وعلى مصطفى ، وبقي الثلاثة رهن التوقيف .. إلا جوجا فقد أخرجت من باب خلفي .. وقال لها رئيس القسم :

- لمبت دورك بشكل جيد .. معلوماتك كانت صحيحة .. من أجل ذلك نَدَعُكَ تذهين .. لكن حذار من المراوغة .. لا تسي أنك تحت المراقبة أيضاً .. وأنتك طعم في صَّارَتنا ..

وقالت وهي تتناول حنينة يدها وتتصرف :
- أعرف كل شيء وأحفظ كل شيء .. إنني بحرية مخلصه ، بحرية طيبة ، برغم سمعتي السيئة .

عادت بيروشكا من قريبتها ، أحضرت له معها بعض الفواكه والزهور ، سأله كيف أمضى الأيام في غيابها . من جاء إليه ؟ إلى أين ذهب ؟ مَنْ قَابل ؟ كانت النضارة تنبع منها . شعرها فقط يجتاح إلى تسيريح . لكنه ، في التبعثر الذي صار إليه ، بدأ أخاذاً أكثر . هو لا يميل إلى الأشياء المصقولة . يجم بالطبيعة ، ليس في الطبيعة ما هو مصقول . وحشية الكائنات ، في الصورة التي أعطيت لها ، في الشكل الذي اتخذته ، في التعبير البدائي ، كانت تقننه ، وكان على مكتبه ، تمثال من خشب ، احتفظ بكل الصفات الطبيعية للشجرة التي صُنع منها . ولقد ارتاح إلى بيروشكا ، لحصلتين بارزتين فيها ، الطبيعة والدهش . جمالها ، مع هاتين الميزتين ، يعطي تأثيراً أكبر ، يخلف انطباعاً بأنها لا تتعمد ، لا تنتقي ، لا تتكلف ، في السلوك والكلام والاعجاب ، وأنها ، حين تحب ، يكون حبها نابعاً من قلب بري ، تغدقه بغير تردد ، بغير حساب ، كأنه المعجزة التي صنعت ذاتها ، وأنها ، في استجابتها لهذه المعجزة ، تتصرف بعفوية كاملة .

لم يقل لها إنه استقبل روزيكا هي لا تعرف روزيكا ، ولا سب يدعو للكلام عنها ، ما دامت تجهلها . قصتها صارت من الماضي . لقد قرَّر ألا يراها بعد ، ولا يستقبلها ، ويستعذر للبارمان فيراتس إذا

حدثه عنها ، أو جرب أن يكون أداة اتصال بينهما ، كذلك لم يقل إنه ذهب إلى أيرجكا . انتهت العلاقة بهذه أيضاً ، انقفاً ، بغير كلام ، على إنهاء ما بينهما . هو لن ينسى نهايتها ، صداقتها ، عاطفتها النبيلة ، قدرتها على النفاذ إلى الأعماق ، كلماتها الحقيقية عن أزمته ، لكنه لن يذهب إليها ، وإذا ما اتصلت به بعد العودة من السفر فسيكون لبقاً ، وسيعتذر بأدب ، ويقول لها صراحة إن له صديقة ، وإنه يريد أن يخلص لها ، كل شيء . كان حسناً حتى الآن ، الذين عرفهم ، من النساء ، أعطيته انطباعاً جيداً عن المرأة المصرية ، هذه التي تنصرف بحرية ، باستقلال ، بإرادة في أن تحب ، تصادق ، تمارس الجنس ، دون رخص وفي جو صحي ، جو اجتماعي له من أوروبا هذه الحرية في التعامل ، لكنه يفترق عنها في أن الحرية الممارسة تخائب الابتدال ، وبيع الجسد ، والقبول بالفسر ، تحت أية ذريعة ، ومهما كانت الظروف . وليس معنى هذا أن بودابست ليس فيها فتاة تقدم على تصرف مغاير ، لكن عدد اللواقح يقبل الارتمان للمال قليل ، وعدد البغايا أقل ، في بلد ، في عاصمة ، كانت قبل التحرير ، كما قال ألبوش ، تضم مئات الألوف من العاهرات والمثولين .

تناولا الغداء في نادي الصحفيين القريب . كان حذراً وهو يدخله ، لشعوره العصبي على الفهر ، بأنه كهل ، وصديقتة شابة صغيرة . خلافاً لذلك كانت بيروشكا مزهوية ، راغبة في أن تعرض صديقها الكاتب ، وأن تفاخر به . وقد أكسبها هذا الإحساس حالة من التشوف ، وأضفى على تصرفها مرحاً زائداً ، وجسارة في أن تتولى هي طلب الشراب والطعام ، وأن تقترب منه حتى تكاد تلتصق به ، وتأخذ يده أمام كل من حولها ، غير هابة ولا مقتصدة .

وخلال الطعام ، سألتها عن القرية ، عن الريف المصري ، عن الحياة

هناك ، الحياة التي لا بد أن تختلف كثيراً عنها في المدينة ، في العاصمة خاصة . قال إنه لاحظ ، وهو قادم إلى بودابست في القطار ، أن الريف المصري جميل جداً ، ونظيف ، وعلى درجة من الرقي لم يعرفها في الأرياف الأخرى ، وسألها عما إذا كان هذا صحيحاً ، وأن الريف قد تطور بعد التحرير ، وكيف تجري عملية الإنتاج ، والتعاون ، والتطبيق الاشتراكي في الزراعة ، وقد أجابته عن كل ذلك بصدق . لم تعط صورة كاملة ، لا نقص فيها ولا عيب ، لكنها صورة مشرقة ، قياسية إلى الماضي ، يوم كان الفلاح أجيراً ، لا يملك أرضاً ولا بيتاً ، وكان الريف فقيراً ، بائساً ، متحللاً أيضاً .

ثم صحتت وهي تقول :

- انتبه يا كرم . لا أريد أن أعشك . إنني أتكلم من موقع الإيجاب ، أعني من وجهة نظر مؤيدة ، فأنا ، كما ينبغي أن تعرف ، عضو في النسبة ، ووالدي ، قبلي ، كان في الحرب ، ومن مناضلي الريف القدامى .

قال كرم ضاحكاً أيضاً :

- شهادتك ، إذن ، مطعون فيها .

- أنا أقول الصدق ، ويشد ما أعرف ، ولك أن تأخذ كلامي على الوجه الذي تريد . وقد أن الأوان لأن تعرف أفكارتي ، وأمل ألا تختلف ، إذا كانت لك أفكار مغايرة .

- أفكار مغايرة تماماً . أنا إعطاعي ، ولا أريد أية كلمة عن التقدم .

قالها وضحك . شرب لحب بيروشكا باعتبارها رقيقة فكر ، فوق أيها صديقة ، ود ، في هذه اللحظة ، أن تكون أقرب إليه . أن يجن بها كي يحبها ويتزوجها .

قالت بيروشكا:

- أنا لا أصدق أنك إقطاعي، أو عدوّ للتقدم.. وإلا فما الذي
جلبك إلى الصين؟

- ومنحني؟

- هذا كثر ثقافي.. الثقافة ليست ضد التقدم بل معه.. ثم ماذا
يعني هذا؟ نحن أيضاً، في البحر، تلك الفرد بيتاً أنيقاً، وسارة.. وقد
تكون له فيلا ريفية، وقطعة أرض لإنتاجه الخاص، يستطيع أن
يبيعه للمستهلكين.. الحكومة لا تتدخل في هذا الأمر..

- كم هو جميل أن يتحقق الحلم يا بيروشكا.
- أي حلم تقصد؟

- حلم الحياة.. حياتنا هناك، في الوطن..
- أنت؟

- نعم.. وإلا لماذا هذه الغربة؟ لماذا هذا التشرد؟
- اسمع لي، في هذه الحال، أن أشرب نخباً كبيراً..

قال كرم:

- بودي لو أذهب إلى الريف معك.. ولكن ماذا يقول والدك؟
- لا شيء.. وسيكون مسروراً أن يعرف أنك تشاركه أفكاره..
- لا شك أنه سعيد الآن..

- ليس تماماً.. يقول إن العادة ستكتمل في المستقبل..
سعاده، الآن، في البناء، في التسريع لبلوغ هذا المستقبل..
- هل تعذب كثيراً في حياته؟

- كثيراً.. اشترك، أيضاً، في مقاومة النازيين المحتلين.. وبعد
ذلك ناضل لبناء التعاونيات الزراعية.. ولكم تعذب لأجلها.. كان
يعمل ليلاً نهاراً، ويتألم كثيراً..

قال كرم مستغنياً:

- يا إلهي يكون التحرير وبطل الأمل قائماً؟
- والذي يقول إنه تعذب بعد التحرير أضعاف ما تعذبه قبله..
كان إنشاء التعاونيات صعباً جداً، الفلاح الذي حصل على قطعة
أرض بعد انتظار طويل، حرص، في البدء، على الاحتفاظ بها..
- وهذا حق..

- لكن والذي يقول: ليس من مصلحته.. لا بد أن ينضم إلى
الحياة التعاونية، وقد رفض الفلاحون ذلك، فقام الذين من أمثال
والدي، بإنشاء تعاونية، اثنتين، ثلاث، وبعد التجربة أدرك
الفلاحون أن العمل التعاوني أكثر فائدة وأفضل مردوداً، وهكذا
انقلب الوضع.. في البدء كانت الحكومة تدعوهم للانضمام إلى
التعاونيات، وبعد ذلك صاروا يقبلون عليها بكثرة، وصارت الدولة
تعتذر وترجوهم أن ينظروا قليلاً...

قالتا وهنفت:

- ولكن كفى.. لماذا هذا الإلحاح في طلب المعلومات، هل تنوي
كتابة بحث عن المشكلة الزراعية..
- طبعاً لا.. لكنني كنت أحسب أن الأمور استقامت بعد
التحرير مباشرة.

- بعد التحرير كان كل شيء متهدماً.. كان أنقاضاً.. ثم جاءت
الثورة المضادة، وأنت سمعت بها ولا شك..
- سمعت.. حدثني أليوش..

- إذن أنت لن تكرهني بسبب أفكارتي..
- بالعكس.. كان بودي أن أحبك..
- ولكنك تحبني.. أليس كذلك؟

- أحبك .. أنا أعني حياً آخر .. مثل حب روميو وجوليت ..
 - أنا لا أتمنى مصيرها ..
 - ولا أنا .. هيا تنصرف .. لدينا سهرة في المساء .. نيت أن
 اليوم هو السبت ؟
 - لا أحب السبت بسبب هذه السهرات .. تذكر السهرة
 الماضية ؟

- أذكر فربك يا قطي الصغيرة ..
 - هل ستأتي ايرجكا الليلة أيضاً ؟
 - ايرجكا لن تأتي .. لن تأتي مطلقاً ..
 - والنساء الأخريات ..
 - لكل امرأة صديقتها ..
 - وأنت ؟

- صديقتك فقط ..
 - لا أصدق .. أحس أن لك علاقات أخرى .. هذا التحف
 اللعين ..

- سنرسله إلى جهنم ..
 - بل نعيده إلى الصناديق يا حبيبي ..
 - سنفكر في هذا مستقبلاً ..

في البيت أعد لها قنجاناً من القهوة . كانت القهوة سائغة .
 شربتها بتلذذ ، لكنها رفضت التدخين ، كرم وحده دخن بينهم . كان
 الشراب يزيد في شراسته إلى السيكرة ، وكانت بيروشكا تراقبه
 مشفقة . تخاف على رتبته .. قال لها : « لا تخافي .. لن أعيش طويلاً ..
 ولا أريد ذلك .. لست يائساً ، ولكن لا أريد أن أصير عجوزاً .. »
 « تخاف الشيخوخة ؟ » ليست الشيخوخة ، بل مطاردة الحياة .. حتى

الآن ، أنا من يطارد ، ولا أريد أن تتبادل الأدوار « ماذا تحسني ؟ »
 « لا شيء » ، ولكنني أرغب ، في وقت ما ، أن أقول للحياة وداعاً .. أن
 أقول لها شكراً .. انتهت الدورة « يا حبيبي ، يا كرمي العزيز ..
 أية أفكار ينطوي عليها هذا الرأس الجميل ؟ .. أنت لا تقول هذا
 لتحترني .. أليس كذلك ؟ أريدك ، الآن ، صعباً .. أريدك أن
 تحسني ، أن تغتلي ، وأن تمارس معي الجنس .. إنني يشوق إليك ..
 أنت تعرف ذلك .. مضت أيام ولم أرك .. كنت ، في القرية ، أفكر
 بك .. أفعل ذلك في النهار ، وفي الليل ، وحين أستلقي في الفراش ،
 كان النوم محفوف .. لماذا ، يا حبيبي ، أنا مجنونة بك إلى هذا
 الحد ؟ .. »

قال كرم :

- أنت مجنونة لأنك غير مأزومة ..
 - كلامك مبهم .. أوضح إذا أردت ..
 - لا أستطيع .. بل لا أقدر .. أنت لست معقدة ، هذا ما أردت
 قوله ..

- وأنت ؟

- لتكلم في شيء آخر .. ما رأيك ، بقليل من الوسكي ..
 - أنت لا تبهدي سكرى ..

- أريدك ، كما أريد نفسي ، خارج دائرة التفكير الملعون .. لقد
 تكلمنا ، في النادي ، يا بكلي .. كدنا نصير خبيرين في الزراعة ..
 الآن ، ينبغي أن نضع التفكير جانبا .. لا أقول نساء .. نحن لا
 نسئ ، ويجب ألا ننسى ، لكن شاعرنا قال : « لكل أمر في حبه
 خطب » ، أي نستطيع أن نتكلم .. وحتى أن نخطب ، حول أي
 موضوع ، في وقت هذا الموضوع ، أما الآن ، وأنت لدي ، في بيتي ،

فأريدك أن تكوني غير ما كنت في النادي، ولهذا أقترح أن نشرب قليلاً، قليلاً جداً، مادماً في انجم مع أنفسنا..
- أنت رائع يا كرم، يا حبي، أنا لم أكن أعرف أنك إنسان بهذا الشكل.

- الآن عرفت.. لا أريد أن أستغل هذه المعرفة.. لعلها، بالنسبة إلي، أن تكون ثقلًا في وجداني، لكنني صادق مع نفسي، الآن، يا بيروشكا، صرت عزيزة أكثر، عزيزة إلى درجة تفرض علي أن أكف عن علاقتي بك، فهذه العلاقة لن تستمر أبداً..
- ولماذا لن تستمر أبداً؟ أنت لا تحاول تخوبيني، أليس كذلك؟
أنت لن تنفصل عني.. قل إنك لن تنفصل..

- أتمنى ذلك.. ولكن انطوي، والدك بيتي مجتمعه، وأنا، هل أكون جديراً بحبك، إذا عشت في مجتمع لم أسهم في بنائه.. أنا أيضاً يجب أن أبني مجتمعي، ولكن متى؟ هذا ما أجهله الآن، لكنني، بكل تأكيد، سأفعل.. ولأنني سأفعل فإن علاقتي بك، في الصدق الذي أريده، لا يمكن أن تستمر.. أنا لن أرضى بأن أخدع أحداً، وخاصة بيروشكا.. لندع هذا اللغو، فهو سابق لأوانه. تريدني شيئاً من الموسيقى؟

- أريد بالطبع، كما أريد جواً رومانتيكياً، كالذي كان، في تلك السهرة التي هربت منها.. لنرُخ الساتر، نغلق الباب، نشعل الأضواء الملونة، نشرب، نشرب، دون أن نحسب حساباً لأحد.. نعيش لحظتنا كاملة.. موافق؟

- نصرقي كما تشائين..

نصرقت.. أغلقت الباب بالفتاح. أغلقت النافذة. أشعلت

الأضواء الملونة، انتفت ما تريد من الموسيقى وجاءت إليه قائلة «الآن أنا لك، أفعل بي ما تريد.. خذ روحي.. تمتع بجدي، بكل جدي.. كن لطيفاً أو عنيفاً، بل كن عنيفاً.. أرجوك.. أريد أن أموت، أن أموت في هذه اللحظة، ودون أسف على شيء..»

شرباً.. شرباً أكثر. قال في نفسه: «يا صديقي هيدجي» عندنا مثلاً، أنت كنت صادقاً، الذي عندكم ليس عند غيركم. عندكم الأشياء تحلو. الأرض الناس، النبيذ، الطعام، والنساء، كل شيء غيرهم في هذا الكون.. «عندنا مثلاً» أشهد، أنني كنت عندكم ورأيت.. ايرجكا كانت رائعة. كانت فتاة، كانت إنسانة، وحتى روزيكا، المتسردة، كان تمردها قسراً، أما قلبها فكان باقوتة.. وبيروشكا هذه.. بيروشكا التي كانت تخاف أن تفترق بسبب الأفكار.. عززت الأفكار ما بيننا.. وفيراتس اللعين، هذا البارمان الرائع أوصاني ألا أكون غجرباً.. ولكن يا صديقي، كل نساءكم، كل نساء الدنيا، تريد من الرجل أن يكون غجرباً.. لماذا إذن تريد أن تجعل مني حصرياً لطيفاً؟

خلعت بيروشكا سترتها. خلعت بلوزتها أيضاً. بان الكتفان، بانَّت رمانتا الكتفين، بان الصدر، توهج السباح المورّد، وقع النظر على مجرى النور، عند الحذرين الناهدين، عند الذرونيين الأعلى في الذرى. تشهّى اللهب الشبقي، صرخ، من العنق، صوت مندّي بشهوة حمراء: «قبلي» لم تكن، هي، تسمع ما يصدر عن العنق من هتاف. كانت مصدر الهتاف، كانت الأداء، وكان هو الملتقي، وكانت تجعل ما ينبغي، في تلك اللحظات التي يومض فيها شوق مجنون، ويرف كطائر النار في كل ذرة، كل بقعة، كل مسام، في الجسد الغني، الناضج، كخوخة صفراء تنادي: كلوني!

- هكذا نكتب؟

- لا، ليس هكذا. أكتب بصورة رديئة. أكتب نفسي حروفاً،
لكتي، الآن، أكتبك كلاماً.. اجلسي..

جلست. رفعت القمص عن الفخذين، عرضتها للنور، قدمتها،
على مائدة الشراب، شربتي سمك أبيض، مكتنز، يتسقع عليه رداء
مقتل. ماذا يقول الفخذان العاريان للكأس الحالم؟ كيف تبحر
الرؤية على ملأ البثرة المشربة بماء الورد؟ كيف يأتي الكأس
وينتحر كرساً على مرمر عمودين من لحم؟

- لشرب يا بيروشكا..

- ولكنك تكثر من الشراب يا كرم.. أنت تحبني اليوم. لم تعد
كرم الذي أعرفه..

- ماذا تغير في؟

- عيناك..

- ماذا في عيني؟

- لا أدري.. شيء لامع، خفيف.. له أسنان.. أسنان أحسها
تسب في لحمي.. ضحك كرم..

- الذي يهش اللحم هو القرش..

- في عينيك قرش إذن..

- احذري إذن.. قد يأكلك..

- بودي لو يفعل.. دعه يأكلني مرة وإلى الأبد.. عندئذ
أستريح..

- تعب أنت؟

- ليس التعب الذي نمرقه عادة.. في شوق يحرق أعصابي..

- تريدني أن ينتهي؟

رغبت أن تضي في إلقاء ما عليها من ثياب، قطعة قطعة..
أوقفها.. لا تعرضي كترك اللعين دفعة واحدة.. قال لها.. في واجهة
المعد البوذي يقوم بمدار.. في مدخل هذا البيت توجد ستارة. أن
يزال الجدار، أن تسقط الستارة، تقتحم العين كل المفاتن، يحدث
امتلاء مفاجيء.. شبع بظامن الجوع في النسخ الجحيمي.. لا، ليس
هذا ما يجب. اعرضي، هذا الجفاء، جزءاً جزءاً، دعني النظر
يوقف لمائه المغموم، وهو يندفع، بسرعة برق، بين البؤيين ومرسى
الرؤية، تمهلي، أرجوك، عند الشعر، الجبين، الشفتين، العنق، فلك
الأررار، ربوبي الكتفين، وبعد ذلك، أتيجي له أن يسقط قليلاً
قليلاً، من الصدر إلى السرة، إلى الخوض، إلى العمودين المكلثمين
الذين يرتكز عليها، إلى الفخذين المشددين، والساقين،
والقدمين، وهكذا يتملى الآندر، الناظر، التأمل، كل مكان اللذة
التي تضج في الإهاب الغض لا امرأة في ربيع العمر.

قالت بيروشكا وقد سقط الشريط الليلكي عن أحد كتفيها:

- ولكن ما تقوله شعر..

- كلا، هذا نثر يغار من الشعر.. بحسب..

- إذن أنت سعيد يا كرم؟

- جداً يا بيروشكا، يا عزيزتي، يا بيروشكا، يا فتاتي الحلوة..

- ماذا أفعل أيضاً؟

- لا شيء.. ابني هكذا.. لا تتحركي، أو تحركي، استديري..

أقبل، أدبري، دعيني أنظر، أنشئ، وأشرب، أشرب حتى الحطوف

معك ونستحيل إلى غمامة بيضاء..

- أنت تهذي..

- شيء من هذا..

- ليس سريعاً.. أحب أن أبقى هكذا.. هذا الخدر في جسدي،
وهذه الرعشة.. هل هي بفعل الشراب؟..
- وشيء آخر..

- ما هو؟

- لا اسم له..

- لا اسم له؟ هل هناك أشياء لا أسماء لها؟

- كل الأشياء التي تحتها بعمق تبقى بلا أسماء.. الأسماء، يا
بيروشكا، تحدّد الأشياء، تجعلها.. كيف أقول؟ هل هناك اسم
للحظة الكبرى؟
- أية لحظة؟

- اللحظة التي تموت فيها دون أن تموت.. تلك التي تأتي بداية
ونهاية معاً؟..

- كرم.. يا عزيزي.. أنا لا أفهم.. لا تكن سورالياً.. قلني،
الأفضل أن تقبّلي.. عندئذ يكون التعبير مفهوماً، يصبح له اسم:
اللذة.. أليس كذلك؟

نفض واحنواها.. قبلها في خدّها، في عنقها، في شفتيها.. فعمم..
فتح فمه كأنه يريد أن يأكل فمها المشقوق عن أسنان بيض، جميلة،
منسقة، خافت وأبعدت فمها..

- أنت لست قرشاً يا كرم.. تذكر أنك لست قرشاً..

- كرم صار قرشاً.. أنت صيرته قرشاً..

- كن لطيفاً إذن.. أرجوك..

- لا تخافي، أحاول تقليد القرش، لكنني لا أبلغ ذلك.. أنا
لست إلا حيواناً ناطقاً مسكيناً..

- أنت مجنون.. لم أعرفك شewanياً إلى هذه الدرجة.. خذني
إلى الفراش.. تعال.. لا أطيق الصبر أكثر..

نزعتم قميصها، ساعدها في نزع ما تبقى.. فتح الخوان الذي
استحال إلى سرير.. استلقت عليه: قطعة بشرية متمدّدة، مستعدة،
متفتحة، ومثلت تحت غاية من شعر خرنوبي، وتاجاً فخذين، ونهدان
نافران، متباعدان، كأنها على جفاء، رغم القرب واللمس المشترك،
وحلمتان وردبتان، مثل كرزتين في نياشير النضج..

- تعال! (صاحت) لم أعد أطيق الانتظار.. خذني..

- ألا تخافين؟

- ليس قبل أن أموت.. أما قلت إننا، الآن، نسوت..

- يا بيروشكا (قال لها وهو يقرعها) يا صغيرتي.. بوذي أن
أكون لطيفاً.. ألا أجعلك تتألمين.. هل تحسّين بألم؟ لا تصيحي،
نحن في النهار.. عضي على شفتيك، تقبّلي كما ينبغي، هل كل
شيء على ما يرام؟

- على ما يرام يا حبيبي.. على ما يرام تماماً.. أنت بارع..

- أنت غجرياً..؟

- أحبك ولو كنت غجرياً.. أهكذا يفعل الغجر؟ أهذا ما
يسمونه معزوفة غجرية..؟ اضغط أكثر.. أريدك كلك.. كلك.. لا
تحف علي.. لا تحف..

- ولكنك تتنين.. أهذا من ألم؟ اهسي في أذني.. تأوهي في
أذني.. لا تصرخي، أرجوك..

ولم تستطع إلا أن تصرخ.. وتضاعدت، على مدى دقائق،
عمميات مشتركة، ومزقوس شديد الصلابة شديد الطراوة، على بحري
قنطرة غضة الملمس، وكانت حركة، حركة متوافقة، إيقاعية،
وقالت بالفرنسية (الآن)، وظلّت تردد الكلمة، بإيقاع
مصارع، مصارع، إلى أن تقطع، وتبعثر، وتناثر حروفاً متباعدة، لم
تلبث أن خفتت، وتلاشت تدريجياً..

كانت سهرة السبت موقفة. ضمت وجوهاً جديدة. أعطى الساهرون أنفسهم للبهجة. عود نصر جيل متح الآهات من الأعماق. ردّد ضياء كلمته التقليدية «مُحكّم» وسجد حسن أمام العود، وهو يتصاعد، أعلى فأعلى، في تقسيم من نغم عجم عثيران. كان يصيح: «يا! يا! يا! يا!»، ويطوح برأسه بيناً ويساراً، والدمع يتحير في مآقيه حيناً إلى تيريز.. وألبوش العجب بالمقدمة الموسيقية لأغنية «أنت عمري» يصيح: «جميل والله يا أخي، جميل» وفناة مجربة، فتتها الجو الشرمي، خلعت حذاءها وجلست أرضاً، بعد ذلك غنوا «يا بنات اسكندرية» وغناها ضياء بالتركية، ووقف وهتف: «اسطنبول! أمان جانم، اسطنبول مُحكم، بالله مُحكم» وعندما عرف نصر مقطوعة رقص «الهوام» لسامي الشوا، رققت فناة عربية، وأنزل جورج عصا المينج الأثرية وقدمها لها.. وعلا التصفيق، وجنّ القوم..

في ختام السهرة رفضت بيروشكا العودة إلى الكلبة. قالت إنها مجازة. أقسمت أن هذه آخر ليلة تبيت فيها خارج الجامعة. رضح كرم لتوسلاتها. قرّر، في نفسه، أن تكون هذه آخر سهرة تحضرها. أمسى الآن أكثر حرصاً عليها. لقد وعد عميد الكلبة ألا يشغلها عن

الدراسة. أن يحملها على الانتظام، ويوقف انسياقها وراء لحو قد تدفع غنه عاماً دراسياً كاملاً. زاد في تقبله للواقع أنه غداً صباحاً في العاشرة تماماً، سيصطحبها معه إلى قرية «كود» على الدانوب، تلبية لدعوة ألبوش..

كانت بيروشكا، في ذروة سعادتها. لعبت، الليلة، دور سيدة البيت بإتقان. كان هادي، طوال الوقت، يمس في أذن كرم: - أنظر كم هي أليفة.. لن تستطيع الانفصال عن هذه المجنونة.

وكان بهيج، الموكل بالمطبخ، وضبط النظام، يكشر عن أسنانه الكبيرة وهو يضحك:

- أنت، يا بيروشكا، مثل رائغ للفوضى.. لولا كرم لشطبنا اسمك من اللائحة.

وجاءت إلى كرم عتجة:

- بهيج يهددي..

- يمزح معك..

- أأنت راضياً عن عملي؟

- كل الرضا.. فقط لا تستهلكني «الجن» في صنع أيها طبق

لعين، كما فعلت في الماضي..

- ولكن هادي يقول أطباقي فاخترة..

- هو كذلك.. ولكن لا تجهدي نفسك.. دعي الأخريات يعاونك..

- لا أحتاج إلى معاونة.. ليس للأخريات علاقة بالمطبخ..

- وما الضرر، يا عزيزتي؟

- أنت لا تعرف.. الضيفة، إذا دخلت المطبخ، عدت نفسها من

أهل البيت..

- فهمت .. أنت تخافين ..
 - لا أخاف .. ولكن لا أريد .. لنحافظ على سافة مع الجميع ..
 هذا أفضل .. أليس كذلك ؟
 - هو كذلك .. أنا لن أكون صديقاً لأحد سواك .. أنت صديقتي الوحيدة .. اطمئني ..

- ولن تعطي موعداً لأي واحدة من الموجودات ؟
 - لن أعطي مواعيد بعد اليوم ..
 وقال هادي ، الذي كان يراقب ويسمع :
 - هذه الجنونة ستلحق بك إلى جزر واق الواق ..

- سأضع حداً لجنونها ، في الوقت المناسب ..
 - أشك في أنك تستطيع ..
 - أنت لا تعرف عنادي ، حين أعزم امرأة ..
 - ولماذا تعزم مثل هذا الأمر ؟ نادراً ما رأيت امرأة بهذا الإخلاص ..

قال كرم وهو يهر برأسه :
 - هذا ما يخيفني .. لينها لم تكن مخلصه ، أو لينها لا تبقى مخلصه يا هادي ..

هذه الكلمات الصادقة في أسفها ، ظلت تعيش في ذاته الليل كله . وعندما ، في الصباح ، أفاق وهي نائمة ، وادعة ، استعادها من جديد . « لماذا يربكننا الآخرون بإخلاصهم الذي لا تتطليه » ؟ كان الهدان وهي مستلقية ، قد وجدا مظلماً من الغميص الداخلي ، بمحاليته الرقيقتين ، والدانتيل ذات التخارم تستريح على الصدر والفخذين ، كأنها لتعذب ، أكثر ، لتفجر فيه رغبة لا تترنوي ، لكنها ،

في نقص الإخلاص ، تبعث شعوراً أسيماً ، فهي رغبة محدودة بمدى الجسم ، سورة بالشهوة لا بالحب العظيم .

أفطرا جيداً ، كانا جاثمين . أخرج من الخزانة بلوزة حريرية متعولة بالألوان ، وقال لها : « هذه هدية من المتحف » . تقبلتها شاكراً . لكن سؤالاً داخلياً أزعجها : « لماذا يضعني في غربة عن متحفه ؟ أليس المتحف لنا نحن الاثنين ؟ كلما شعرت أن المسافة بيننا التفت ، وأعادها بحركة ، لفترة ، إباءة ، كأنها يريد أن يذكرني بالحقيقة ، الحقيقة التي تشعرني بأنه لن يكون لي ، أو لن يكون لي إلى الأبد ؟ »

جاء ألبوش بسيارته الصغيرة . قال إن عليهم أن يقضوا نهاراً كاملاً في الغربة . وأن هناك بعض الضيوف أيضاً ، وأن الفيلا ، أو الأرض الخاصة ، التي يملكها والد زوجته ، تقع على الدانوب مباشرة ، وقفة بيت ، وكوخ ، وبستان ، ويمكن أن يسبحوا في الدانوب ، بل يجب أن يسبحوا ، ولهذا يستحسن أخذ ثياب للسباحة . لكن هذه الثياب لم تكن متوفرة ، ولا سبيل إلى شرائها واليوم أحد ، فقال كرم :

- من جهتي يكفيني أن أكون على مقربة من النهر هذه المرة .
 قال ألبوش :
 - بل يمكن أن تكون على سطحه .. لدينا قارب صغير .. هل تحسن التجديف ؟
 قالت بيروشكا :
 - أنا سأكون ضيفة .. لكنني أخاف التيار .. هل هو سريع جداً ، هناك ؟
 - إذا نزلنا النهر ، ومضينا مع التيار ، نصل بودابست في ساعة

واحدة.. الصعوبة تكمن في التصيد، في الذهاب ضد التيار..
وقال كرم:

- سنرى كل شيء على الطبيعة.. لنمض..

اختارت البشارة بهم قلب بودايت. انتهت إلى الضواحي.
مرت بأحواض بناء السفن.. خرجت إلى الفلاة.. كان اليوم
صحواً.. الشمس تلاحقهم باسمة، والحضرة، عن الجانبين، والبيوت
الريفية بفرميدها الأحمر.. والسيارات، والدراجات النارية. كانت
المدينة تخرج من جلدها، والناس يتجهون، من جهات مختلفة، نحو
الطبيعة، والدانوب، عن بين الطريق، يسيل في مجراه العريض،
والسفن، صاعدة هابطة والساحون، على الضفاف، والذين تعروا،
معرضين جسومهم للشمس، والاستراحات، على الجانبين.. وقفت
كرم.. نمت أن تحففت البشارة سرعتها، أو أن يترجلوا ويسيروا..
لكن ألبوش ضحك.. «دع الرومانتيكية يا أخي.. هناك
بنظروننا، وينبغي ألا نتأخر».

كانت قطعة الأرض الخاصة التي يملكونها مستطيلة، ضيقة
ومستطيلة.. وحين دخل كرم من بابها المطل على الطريق، حسب
أنها لا تزيد عن عشرات من الأمتار طولاً. لكن الأرض كانت،
بخلاف ما يبدو على واجهتها، طويلة جداً، تنهي على ضفة
الدانوب، في منحدر ذي درج حجري، ومن حواله الأشجار
المتنوعة. وكانت ثمة، في مواجهة هذه الملكية الخاصة، أرض واسعة،
مزروعة بالبندورة. كان الموسم في أوجه، وأقراص البندورة
الحمراء تتدلى، وتترامى على الأرض، دون أن يقطعها أحد. قال
البوش: «هذه الأرض ستظل مشاعاً. ليس من أيدي عاملة لقطاعها».

قال كرم:

- كيف هذا؟ أرض مزروعة وليس من يحنوها؟
- لا تعجب.. مئات الألوف من أشجار الكرز، والبندق، تظل
دون قطف.. مباحة لمن يريد.. هذا بسبب نقص اليد العاملة.
لم يصدق كرم. وجد الكلام غريباً. خضار، ثمار، وليس من
يحيي؟ كيف هذا؟ لكنه، عندما دخل المزرعة الصغيرة، ووجد،
عند بوابتها، شجرة ضخمة من التوت الأسود، والتمر يساقط على
الأرض، دهش..

قال ألبوش:

- هذا التمر يسمونه، بالجرية «أير»..
تقدم أيضاً، كان الشمس، الخوخ، الدراق، بلأ الأرض، تحت
الأشجار، وقال ألبوش:
- عندنا أيضاً، ليس من يقطع..
- لكنكم تزرعون.. من يزرع يجمع..
- نحن لا نستطيع أن نجمع كل هذا الثمر.. وهذه مشكلة..

رحب العم، والد الزوجة، بكرم وبيروشكا. كان في الداخل،
أمام باحة البيت، ضيوف آخرون، وكانت الباحة تطل على
الدانوب.. وكانت ثمة، في الباحة، طاولة، وعليها زجاجات التبيد،
البيرة، البالنكا.. ومن عادة المجرين، أن يستقبلوا ضيفهم بالخمير..
وبالزهر.. وكانت في الحديقة، أنواع من الورود، وتذكر هيدجي
Chez Nous Par Exemple (عندنا مثلاً) وقال بيروشكا:

- هل أنت سعيد يا كرم؟
- جداً يا بيروشكا.. ما كنت أصدق.. ما رأيك في أن نغني
إلى الدانوب..؟

- أنا أفضل أن تدخل هذا الكوخ .. دعنا نكتشف ما فيه ..
كان في الكوخ سرير ، طاولة .. مرآة جدارية صغيرة .. أغلقت
الباب :
- قبلي !

- ولكنهم هناك ، في الباحة ..
- أعرف .. إنهم يقدرون .. أنا صديقتك .. ومن حتى أن أخلي
بك .. للناس حريتهم ، حتى في المدينة ، كيف إذن في الريف ؟ ..
قبلها عجلًا ، خائفًا .. كان الرجل الشرقي في ثيابه ، ضحكت
بيروشكا « لو لنا الليلة هنا ، لأعطونا هذا الكوخ .. ما رأيك في أن
ننام ؟ »

قال كرم :
- لا أدري .. هذا ما تقرره في ما بعد .. لنخرج الآن .. أحس
عبونا نحدث في من الجدران ..

خرجوا .. لم تكن ثمة عيون .. كانت الأشجار ، الحضرة ، وكومة
كبيرة من الأخشاب والأحطاب .. كان الكوخ منعزلًا ، وكانا
قادرين ، على المكوث فيه ، لكن كرم كان غريبًا على الجو ، ووجد
اليوش يتحدث إلى ضيوفه ، ولم يلحظ حتى غيابها ، فأطمان ،
وحاول ، بغير شعور ، أن يبعد الريبة عن نفسه ، فقال :
- ما أجل هذا الكوخ الضائع بين الأشجار !
قال اليوش :

- يمكن أن تسترجع فيه بعد الغداء ..
- وهل يمكن هذا ؟

وضحك اليوش :

- لماذا لا يا أخي ؟ الناس في البحر ، لا ينظرون من ثقب
الباب .. لا يراقب بعضهم بعضا .. تصرف بحرية .. تريد لباساً
للباحة ؟ ، هيا إلى الدانوب ..

كانت هناك ، على الشاطئ ، شجرة كبيرة قديمة ، جذرها في
الضفة ، وغصونها تمتد فوق الماء .. وكانت فيها أرجوحة ، وكان
الناس يسرون حفاة ، على حافة الماء ، فخلع حذاءه ، وفعلت مثله
بيروشكا ، وسارا ، بينا توقف اليوش ، ينتظر دوره ليتأرجح ..
قالت بيروشكا ، في نبرة غمر :

- لينك ، يا كرم ، كنت مجرباً ..
قال كرم :

- لن أقول لا ، ولن أقول نعم أيضاً .. لست أسفاً ، ولا هارباً من
المكان أو الزمان ..

- أما أنا فأسفة .. لينك تقيم في البحر وينتهي الأمر .. تقيم لأجلي
على الأقل ..

- كم كان بودي يا بيروشكا .. لكنني لن أفعل .. هناك شيء
ينتظري ..

- وطنك ؟

- وشيء آخر .. لا أدري ما هو .. لكنه ينتظري .. وستقلب
حياتي ، عندئذ ، إلى درجة مخيفة ..

- تصير شخصية كبيرة ؟ مسؤولاً كبيراً ؟

- لا أفكر بهذا .. ما أريده ، شيء آخر ، بعيد عن هذه
التصورات .. أن أقول ما أريد .. أن أكتب .. أن أصير كاتباً .. ربما
هذا ..

- وماذا ينقصك هنا ؟

- الجنون.. أن أخلى عن عقلي قليلاً..
 - ولكنك مجنون على نحو ما.. أعني لست كسائر الناس..
 تتصرف وكأنك تبحث عن شيء..
 - لكنني لا أعرف ما هو هذا الشيء..
 - أليس هذا جنوناً؟
 - قد يكون كذلك، لكنه، في الغربة جنون عقيم..
 - تراه بشر هناك، في بلدك؟
 - لنجد هذا يا بيروشكا.. في هذه اللحظة، وهذا الدانوب،
 وذلك البستان، والكوخ والسرير في الكوخ.. ماذا يحتاج الإنسان
 أكثر؟
 - أنت رومانتيكي لعين يا كرم..
 - كنت أظن أنني عكس ذلك.. حسب نفسي واقعياً..
 - تصرفك يقترب من البوهيمية..
 - هذه قشرة خارجية.. من الداخل أنا.. أعيش واقع الغربة
 بأعمق ما تكون الغربة.. أنا وحيداً، صامتاً..
 حدثها، بعد ذلك، عن الإيطالي الذي لم يبق له من عمل سوى
 تبديل أمكنة المظلة، وعن نلسون الذي يقرأ الماركسية في الغي
 صيفاً، ويقرأها وهو يتشمس شتاءً، وعن الناس الذين أضعفهم
 الغربة، والذين، في الغربة، فسدت أخلاقهم، وقال لها: «لا أريد
 لنفسي هذا المصير.. يجب أن ينتهي هذا الترف كله..»
 حين عاد، ظهراً، إلى المزرعة، اقترح كرم أن يأكلوا على
 الطريقة المنغولية.. لم يفهم الحاضرون ماذا يقصد.. قال لهم: «ألبوش
 يريد أن تأكل لحماً مشوياً في الفرن.. أنا سأطعمكم لحماً مشوياً خارج
 الفرن، وكل ما أحناه بعض الأسياخ.. هل لديكم أسياخ هنا؟

«قال اليبوش: «لدينا في المزرعة أسلاك، نستطيع أن نصنع منها
 أسياخاً.. إذا كان هذا هو المطلوب..»
 صنعوا الأسياخ.. أتى كرم باللحم وقطعه إلى شقف صغيرة.
 أشعل ناراً، ناراً كبيرة، من حطب الشمس.. شك اللحم بالأسياخ..
 أتى بزجاجات البيرة والتبذ.. قال: «سأكل حول النار.. تشوي
 اللحم، وحين ينضج شك السج من طرفيه، ونغضم اللحم منه،
 ونشرب من الزجاجات، هذا ما يسمونه الطريقة المنغولية..»
 صاحت جملة ألبوش:
 - يوزش ماريو (يا يسوع ابن مريم، ورسمت الصليب على وجهها
 نعود إلى الممجيبة؟
 وهتفت الصبايا:
 - نعود، نعود.. ملنا الشوكة والسكين..
 قالت بيروشكا:
 - ها أنت مجنون يا كرم.. هذا الغداء لا ينقصه الجنون..
 وقال البوش هامساً:
 - ولكنك، بالأعبيك الغريبة هذه، تفنن هؤلاء الفتيات.. كل
 هذا تعلمته من الشرق الأقصى؟ اللعنة على أوروبا.. لابد أن أسافر
 إلى هناك، أنا أيضاً، وسأعود ساحراً بلحية هندية.
 نجح الغداء بأكثر مما توقع كرم.. كانوا يرون، في الأفلام، كيف
 تشوي الطريقة على السقود.. كان ذلك في الغابات.. هنا البستان
 يقوم مقام الغابة. وهنا النهر، والنساء.. والخمور.. كانوا يرفعون
 زجاجات البيرة ويتبارون.. من ينزلها عن فمه فارغة.. وبالأوراق
 الخضراء كانوا يسكون السيخ الساخن، وينهشون اللحم.. كان
 المشهد طريفاً، ورغبوا في النقاط الصور.. تهمجوا.. داروا حول

النار، وحتى العجوز التي نادت يسوعاً منتقمة فعلت مثل الآخرين، وكانت مسرورة، لكنها لم تفلح، ولا مرة، في إقراغ زجاجة بيرة دفعة واحدة.. وهذا ما أسفت لأجله.

بعد الغداء قالت يروشكا:

- لنذهب إلى ذلك الكوخ.. إنني على ما يرام.. على ما يرام تماماً.. أريد أن أكون معك، على ذلك السرير..

قالتها ومضت. كانت راغبة. ولم يجرؤ كرم على اللحاق بها. كان ذلك فوق طاقته على تحدي الشاعر من حوله. لكن اليوش الذي كان يضحك، مغشياً، صاح به:

- ماذا تنتظر، ألا تريد أن تسريح؟

وقال جوه وقد نغمه السكر:

- اذهب واسترح على صدر عاهرتك الصغيرة.. لقد سبقتك..

قهقهه الآخرون. ارتبك كرم. لكن البذاءة التي أدخلت السرور على القلوب، دفعت العم إلى الاسترسال في الإقداغ. قال وهو يفتح رجليه:

- إنها الآن تسلقي على ظهرها.. لا تدعها تنتظر طويلاً، سيتعب فخذها..

وقالت زوجة العجوز:

- هذا كثير يا أشتفان.. لا يليق..

- ما هو الذي لا يليق؟ إنني أتكلم لغة عصرية تماماً.. هيا..

سأجعلك ترفعين ساقيك أنت أيضاً..

غطت العجوز عينيها بيدها، بينما صاح صوت:

- لكنك عجوز أيها الأب أشتفان.. عجوز جداً..

- ليس كما تتصورون.. ثم إنني أخذت حبوباً هذا الصباح، حبوباً مجربة..

صفق الحاضرون.. كان الضحك عاماً الآن، اندفع العجوز بأغنية فلحقه الآخرون.. كانت أغنية جماعية، صاخبة، مرحة، وقد عجب كرم، من كثرة الأغاني الجماعية في المجر، ومن شعبيتها، واندفاع المجرين في غنائها كلما طاب لهم ذلك، وراح العجوز، في اندفاعه السكر والمرح، يلقي بعض الأشعار، كأنه أحد أبطال شكسبير، وختم حفلته الشخصية بخلع قميصه، وراح يبروال الثورت، ينحدر على الدرج حتى بلغ شاطئ الدانوب وألقى بنفسه في الماء..

لم يحاول أي من الموجودين منعه، أو إبقائه. كانت زوجته تضحك، وكذلك اليوش.. قال لكرم:

- شف، يا أخي، كم هو قوي الأب أشتفان.. الآن سيجترد في الدانوب، سيصحو من سكرته، وهذا أفضل علاج له. إنه يعمل في مزرعته الخاصة في عطلة نهاية الأسبوع، وينهض باكراً، في الفجر، فيقطع الدانوب سباحة، وقد احتفلنا، هذا العام، بعيد ميلاده السعين، ورقص حتى ساعة متأخرة من الليل، رقصاً غريباً، متواصلاً، كأنه في الخمسين.. هذا نموذج لجيل من المجرين، كافح طويلاً، واستطاع التلاؤم مع النظام الجديد، بل كان من بناته..

قال كرم:

- إنني سعيد يا اليوش بهذه النزعة، سعيد بأكثر مما تعبر الكلمات. القرية، المزرعة الخاصة، الدانوب، وهذا الغداء على الطريقة المنغولية، والغناء.. يحيل إلي أنني أنفهم الروح المجرية.

قال اليوش:

- الشهور التي أمضيتها في المجر، كانت مفيدة.. لم يكن ممكناً، ولا ضرورياً، أن تعزل لأجل الكتابة.. كان يجب أن تعرف المجر أولاً..

- هذا ما كان يجب.. لكنني..

في هذه اللحظة خرجت بيروشكا من الكوخ. كانت قد نامت قليلاً، لم تحقق كما كانت تصبو إليه، لكنها نامت قليلاً، نطقت، ردت شعرها الذي ذرته الريح على وجهها. نادى كرم إليها، كانت غنة صوتها ما تزال وطبة بذلك السائل الشقي الذي دخلت به الكوخ. لقد خابت أمينتها. ما أشد فجعة المرأة، حين تحمل بوليمة جنسية، ويستهي حلمها إلى لا شيء؟ في هذه الحال تحتاج إلى قوة إرادة كي تظهر شعورها الجنسي المتوقظ، كي تحذعه، أو ترغمه على الحضور، كي تلقى به إلى اللاشعور، وتظهر، من جديد، أنها غير مبالية، وأنها قادرة على أن تناسك..

طلبت ماء بارداً. اقترح اليوش فنجاناً من القهوة. سألت عن العجوز، وما إذا كان قد نام، قال كرم: «تصوري يا بيروشكا. قطع الدانوب سياحة وهو على تلك الحال من السكر. طنني أن الماء البارد نفعه. غطس، في البده، عدة مرات. ابتد رأسه. تبخرت الحمر من مسامه. يا للجسم الصلب المطواع! هذه ميزة جيرة الدانوب. بستان أخضر، يافع المضرة، وضفة وارفة الظلال، وعمل في الأرض، حتى يعرق الجسم، ثم سياحة في الدانوب، ونوم عسيق. إن جسداً يتشكل من رياضة متتابعة الحلقات كهذه، حري به أن يقاوم.. لقد قاوم العجوز. شرب كنور، وكحوت غطس في

إنني أقترّب من فهم الشعب المجري، وهذا ما أريده.. أن يعيش المرء، ليس كمن يسمع.. بوذي أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع في الريف، في رحلات على الدانوب، في الذهاب إلى بحيرة «البلاتون»، في معايشرة الناس، في التعرف إليهم، وعلى هذا النحو فقط، أستطيع القول إنني عشت في المجر وعرفتُها.

- إذن ستخرج من المتحف؟

- اللعنة على المتحف.. إنني مللت، مللت.. خمس سنوات في الصين ولم أعرف الشعب الصيني، لم أدخل بيتاً صينياً، هنا يختلف الحال، لكن انظر.. انني لم أعرف، حتى الآن سوى بعض النساء.. هذا جيد، في البده، كي تتعلم اللغة المجرية.. اللغة لا يمكن تعلّمها من المدرسة أو الجامعة وحدها.. من المرأة أيضاً.. لكنك تعرف، من رواياتي على الأقل، أن عليّ واجباً.. أعرف ذلك وأقدره.. أنا أيضاً.. كيف أقول؟ كنت أهتم بأن أقضي إليك بغير ملل: انتهيت من جمع الوثائق اللازمة لوضع كتاب عن إسرائيل.. سأشرح كل شيء، يجب أن يطلع القارئ المجري على الحقيقة. أن يفهم عدالة القضية العربية..

- آه أيها العزيز اليوش.. (هتف كرم) إنك تقدم مناصرة طيبة لقضيتنا بكتابك هذا.. إنني مستعد لمساعدتك، لدي بعض المراجع، وإذا خطر لك أن تستفسر عن شيء.. تعال إليّ في كل وقت.. لا تتردد أبداً..

- سأفعل يا أخي.. أعرف أن بعضهم سيحاربنني لأجل هذا الكتاب، لكنني لا أبالي.. أنا عضو في الشيعة..

- هذا جيد، جيد جداً.. إنني أشعر، أمام قرارك هذا، بتقصيري.. بتقصيري الشديد..

الماء، ويعد أن قطع الدانوب جيثة وذهوباً، خرج ونام ببعض الألعاب السويدية، ثم نام..

شربوا القهوة. كانت لذيدة جداً. وكانت الشمس، قد تعلقت برؤوس الأشجار، من خلال أشعتها الذهبية الغاربة. إنه الأصل. وقالت بيروشكا:

- ما رأيك، يا كرم، لوعدنا إلى بودابست بالبحارة.

- وهل يمكن هذا ؟ ما رأيك يا عزيزي ألبوش؟

- يمكن، شريطة أن نقطع الدانوب إلى الضفة الأخرى، حيث مرسى السفن النهرية مقابلنا تماماً..

- ولكننا لن نقطع الدانوب سباحة..

قال ألبوش:

- بعضهم يفعل هذا.. هنا لا حرج من ركوب السفن بشباب السباحة.. لكنني سأوفر لكما قارباً صغيراً نقطعان به الدانوب إلى الضفة الأخرى.. انتظرائني.. لدي قارب هنا، نسب لحالي، وهو شاب قوي، ولديه قارب، ويمكن أن يجتاز بكما الدانوب بسهولة..

جما حوائجها. ودعا بعض الذين تدوّقوا معها «الوجبة المغولية». كان القارب ينتظر عند نهاية السلم الحجري، وعندما نزل فيه وابتعد بها، لوحا بالأيدي لألبوش الواقف على الضفة، فلوّح لها بدوره، وانساب القارب يفعل ضربات مجدافين قويين للفتى الذي تطوّع بحملها إلى الضفة الأخرى.

كانت الشمس، الآن، قد توارت، ذهبت إلى موعدها، في طرف الأفق البعيد، حيث يمتد الدانوب الأزرق، وكانت سفينة الركاب الصغيرة، الجميلة، اللأى، بل المزدحة بالركاب، تتحدر مع التيار

باتجاه المدينة، وكان كرم وبيروشكا يقفان على حاجز السفينة. كانا صائين، مغممين بشعور قدسي من المهابة والإعجاب، وكان الماء يصطفق على جوانب السفينة بتؤدة، والرياح منعشة، والغروب بهي، ووضع كرم كفه على يد بيروشكا فوق الحاجز، وقال في نشوة:

- بيروشكا، يا عزيزتي، ما أروع هذه الرحلة.

وصل هيدجي عائداً من الصين. كان يعرف أن كرم في بودابست، برغم أن هذا لم يكشف إليه أنها رسالة. وذات مساء، عند الغروب، قرع الباب عليه، كان كرم، في لحظة «الانخفاف» هذه، كما كان يسميها، لا يعطي أية مواعيد. كان حريصاً أن يشهد تلك الدقائق وحيداً، متكئاً على حائز النافذة، متابعاً بريح من شفق وحنان، بقايا ذهبية تلمع نفسها عن الذرى، فيما العصفير، بزقزقة نشطة، جماعية، متداخلة، يودع بعضها بعضاً قبل المبيت، والهدوء مهيب، والنظر يركز، في عدسة شديدة الحساسية، كل المنظر المفتوح، للحدائق الخلفية، ذات الخضرة المخورية، وفي هذه الحديقة أو تلك، ملاعب أطفال خالية، ومقاعد فارغة، تعمر في الصباح وبعد الظهر، من قبل مستحمين بالشمس أو مقيلين من العجائز.

كانت المرأة، بالنسبة لكرم، طبيعة، وكانت الطبيعة امرأة. وكان يسمي، في شعور مضمر وملحاح، أن يأكل المرأة والطبيعة ويستريح. يستشعر، حيال كل منها، برغبة نهمة، ويتعب من رغبته النهمية، ويغمض عينيه، وهو أمام الأشجار العالية، وأسطحة القرميد الأحمر، مستعيداً صورة قرية ماء، في مكان ما من جبل

لبنان، وناقوس دير للراهبات، ونشيداً ابتهاجياً: «اسجدى لله يا نفسي فقد وافى المغيب، واستريحى من عناء الفكر فالفكر رهيب». وكان في وحدته هذه، يلوذ بالصمت، مستمتعاً بوقته، مستجماً على طريقته، والروح المنمتقة ترفق على النور المودع وتغرب معه في بحر لا يسوره مدى.

هذا التوحد أضرب به قرع الجرس. أحدث نوعاً من صدمة في مشاعيه. عادت الروح الهائجة إلى قفصها الصدري. هربت الرؤى، استعاد، في ومضة استرجاع، واقعه، فتحوّل عن النافذة وذهب إلى الباب يفتحه.

- سرفوس! (مرحباً) صاح هيدجي الواقف على الباب..

وهتف كرم:

- سرفوس. أخرجها مخطوطة، حارة، على طريقة المجرين. أضاف وهو يعانقه: «هوج فوج» (كيف الحال)؟

قال هيدجي وفي عينيه الزجاجيتين الزرقاوين القاع فرح مبلى:

- يا صديقي.. يا كرم.. ها أنا أجذك أخيراً.. وأين؟ في بودابست. لا أصدق!

قال كرم وهو في غمرة فرحة غامرة:

- نعم في بودابست.. تأمل «عندنا مثلاً» اعترف.. عندكم أشياء رائعة.. رائعة أكثر من كل ما رأيته..

- والأروع أنك تتكلم المجرية.. متى تعلّمتها؟ كيف؟.. وماذا تعمل.. تكلم.. تكلم كثيراً..

- سأتكلم.. ولكن ليس قبل أن نشرب كأسين من «الماوناي»

- «ماوناي»؟.. غير معقول!.. وهذا المتحف.. حدثني حسن..

فهني هو الذي أعطاني عنوانك.. قالا لي أشياء كثيرة.. صورك بصورة أمير من الشرق!

- يالغان.. كل من حولي يبالغ.. ها أنت تراني وحيداً..
- لكنه ليس وقت الفراش بعد.. جئت باكراً كيلا أزعجك..
اسمع لي، اسمع لي.. دعني أُلقي نظرة على المتحف...

وحين صَبَّ الماوتاي صاح:

- كأسك.. إنني أشرب بحب صديقي العزيز..
أضاف فجأة:

- اسمع يا كرم.. أنت على موعد الليلة؟

- ليس تماماً.. لماذا؟

- سنخرج معاً إلى إحدى حانات النبيذ.. هناك، وسط الرائحة الزكية، والدخان، وغاذج الشاربين، وثرثرتهم، تتحدث.. هناك سجد بودايت.. هل ذهبت إلى إحدى هذه الحانات؟
- ليس بعد..

- ماذا رأيت من بودايت إذن؟

- بعض الأشياء.. بودايت كزهرة اللوتس الصينية.. تتفتح على مهل..

- ألدبك كثير من هذا الماوتاي؟

- ليس كثيراً.. إنه لا يقدم إلا لصديق عزيز جداً، وبكمية محدودة.. لديّ نبيذ مبرد..

- هاته.. وتعال حدثني.. لكم أنا مشوق لسجلك..

حدثه كرم عن كل شيء ويتفصيل.. كانت ابتسامة سميكة قد غمرت وجه هيدجي وهو يرى زجاجة نبيذ مبردة أمامه. شرب كظلمان. حمرة وردية شاعت في وجهه الأبيض، عيناه الزرقاوان وقد

رقد شيء ما داخلها. لسانه انطلق في كلام متواصل. عبّر عن سعادته بهذه الكلمات «لشدّ ما أنا مفتيح أنك وجدت المجرّ كما وصفتها لك».

قال كرم بالفرنسية مازحاً:

- عندنا مثلاً! chez nous par exemple!

يا صديقي! يا صديقي! ردّد هيدجي.. لم أقل هذه الكلمة لسواله بعد هفرك.. ولن تراني أقولها! لذلك الروماني الجاهل، تصوّر! سألتني: كم عدد سكان بودايت؟ قلت: مليونين.. تعرف ما قال؟ «عجيب كنت أحسبها كبوخارست» تأمل.. يقارن بين عاصمة عربية، وبين قرية سخيقة ضائعة في أوروبا.. إنه لا يُطاق.. هذا الروماني الأحق لا يُطاق.. لقد أدت له ظهري بعد هذه المحادثة..

قال كرم:

- أنا لا أعرف بوخارست..

- ومن الخير أنك لا تعرفها.. من يعيش في المجر ير رومانيا مقاطعة.. أنا أتحدث الآن عن واقع، عن واقع صرت تعرفه.. لنشرب إذن، إنني على مزاج طيّب.. وقال بالفرنسية: Je me sens bien! لذلك، وغمر بعينه، ثم أفرغ كأسه وملأها كرة أخرى..

كان اعتداده بالمجر قد امتلكه تماماً الآن.. كثرت المجر، كثرت، صارت ربع الدنيا، نصفها، كلّها.

ولما فرغت زجاجة النبيذ طلب زجاجة أخرى، وقال لكرم: «لن أجعلك محرجاً بوجودي.. إذا جاءتك ضيفة ما، فأنا مستعدّ للانسحاب.. أقهم اللعبة.. كنت شاباً.. كنت شاباً جيلاً أيضاً.. أنت

تري.. ولكن «عندنا مثلاً».. عفواً.. إلى المجمع هذه الكلمة.. في
بودابست يمكنك أن تقضي وقتاً طيباً جداً.. طيباً إلى أبعد حد..
تستطيع أن تستمتع.. أنت، مثلاً، غريب.. لكنك استمتعت.. غير
أن هذا المتحف (قالها وغمر بعينه) هذا المتحف مصيدة.. أنت، يا
كرم، خدعتني.. أقولها صريحة.. لم تطلعتي، في بكين، على كل
مقتنياتك من المتحف.. أنت كنت هناك قبلي.. كنت في الزمن
الطيب.. زمن مخازن المتحف.. الآن تغير كل شيء.. الدولة
وضعت يدها على كل شيء.. جمعت مخازن المتحف في مخزن واحد..
لكنك قلما تعثر فيه على تحفة حقيقية.. كل معروضاته من
المصنوعات الحديثة، كلها عن الكومونات.. إلى الشيطان بأية لوحة
عن الكومونة الشعبية.. ألم يعد في الصين ما يرسم غيرها؟

قال كرم:

- وأنت أيضاً، يا صديقي، لديك تحف جميلة.. يودعي أن
أزورك لأرى متحفك..
- ستزورني يوماً.. سنتق على ذلك اليوم، أنيكو بشوق
إليك.. لكن لا تتوقع أن ترى أشياء كثيرة.. هناك أشياء غير
معروضة.. هذه ليست للمعرض.. أنت تفهم.. سأبيع بعض المتحف،
ولكن لا أريد أن يغشي أيّ ابن عاهرة..

قال كرم:

- أنا بعت قسماً من تحفي.. بعتها بأسعار عالية.. في فيينا..
وبالدولار..

- انظر! صاح هيدجي وهو يجرّ من قهر.. أنت تستطيع أن
تفعل ذلك.. أنت أجني.. يمكنك أن تسافر وأن تأخذ تحفك

وتبيعها حيث تريد، وبالسعر الذي تريد.. أما أنا؟ اللعنة.. لن
أبيع تحفي بالفورنت.. لست أهله إلى هذا الحد..

- لكنني أمزح يا هيدجي..

- أنت لا ترح.. حتى ولو كنت ترح فانت تملك إمكانية
الفعل، هذه التي أنا محروم منها.. لا تهون علي.. أعرف أن مصير
تحفي إلى النار.. أنا لا أستطيع أن أقيم معرضاً في بيتي، ولا أن
أستقبل ضيوفاً، أليكو ستعارض ترفض دخول أية امرأة.. اللعنة
على الزواج.. لقد كانت زوجتي عبثاً علي في بكين، وهي عبء علي
في بودابست، مسكينة يا تحفي.. يا تحفي العزيزة، أنا غير قادر على
التمتع بك، أو على بيعك.. آه لشد ما سوف أنالم.. اسمح لي بكأس
أخرى.. أريد أن أسكر، أن أنسى..

- ولكنك كنت طيباً منذ قليل..

- نعم، نعم.. كنت طيباً.. أحاول أن أكون طيباً.. ألا أفكر
بتحفي العزيزة ومصيرها.. لكنك أنت، لامت جرحاً في صدري..
- في هذه الحال أعذر عما أثرت من شجونك.. ما كنت أظن..
ما خطر لي أنك بحاجة ماسة إلى قنّها.. ثم لماذا لا تبيعها بالفورنت؟
ستعود عليك بمبالغ طائلة..

- قلت لك لن أكون أهله إلى هذا الحد.. ثم ليست مسألة بيعها
هي التي تضنني.. مجرد تفكيري أنني ساموت وأتركها.. أنا الذي
كنت خبيراً في الصين، وأنا من تقشّ حتى اشتراها.. ثم فجأة،
ذات يوم، أتركها وأمضي.. ولن؟ لزوجتي؟ لأولادي؟ أنا
صاحبها.. أنا، أنا..

- ولكننا سنموت جميعاً، وسنترك كل شيء..

- وهنا التراجيديا .. لذلك ، اسح لي أن أشرب أيضاً .. اللعنة على الموت .. ابن العاهرة هذا ..

حين أتى على زجاجة النبيذ الثانية كان قد سكر تماماً . عيناه الزرقاوان تمنا عن قلق بالغ . ضحكه انقلب إلى هستيريا . بشرته الحمراء وشت بعذاب دفين .. وحين وقف ، حدق في ما حواليه من تحف ، وقال بصوت نصفه شكاة ونصف بكاء :
- أنت تمتعت بأشياك جيداً .. قالوا لي كل شيء .. أخبرني فهمي ..

- لكنني لست سعيداً كما تظن .. هذا المتحف تسبب بعض الإزعاجات أيضاً ..

- لا أصدق .. بكفي أن تنظر إلى هذه التحف ..
- ولكن في الدنيا تحفاً أخرى : الطبيعة ، المرأة ، الإنسان ..
- أنا أحدثك عن الملكية .. أن تلك الأشياء بنفسك .. أن تصبح حرّ التصرف بها .. أنفهم يا كرم ؟
- أفهم .. ولكن أنت ، وبعد هذا الزمن .. ما الذي ينقصك ؟
لم يجب هيدجي .. بدا الحق واضحاً على قسامته . ربما قال شيئاً كان يوّد الاحتفاظ به لنفسه .. لكنه لم يرتكب خطأ فاحشاً .. التحف ملكية شخصية أيضاً .. مثل البيت ، والسيارة ، وقطعة الأرض . غير أن الإفصاح ، على هذا النحو ، ما كان ضرورياً .. إنه بفعل السكر .

على الباب توقّف وصافح كرم . ترتجّح في وقفته .. اغتصب ابتسامة . ضحك فجأة .. عادت الالتاعة إلى عينيه الزرقاوان الزجاجيتين ، سأل :

ألا تريد العودة إلى بكين ؟

- لا .. أبداً ..

- لماذا ؟ لماذا لا تفعل ما دام ليس لأحد سلطة عليك ؟

- وأنت ؟ تريد العودة ؟ تريد مزيداً من التحف ؟

- أنا ؟ .. انظر .. لقد استدعوني .. كان يجب أن أبقى أيضاً ..

لكنني عدت .. اللعنة ..

قالها ومضى في خط متعرج ، أقرب ما يكون إلى الحدار ، وقبل أن يهبط في المصعد أبدى هذا الرجاء :

- أستطيع أن أزورك دائماً ؟ أنت أيضاً ستأتي لزيارتنا .. سنحدّد موعداً .. سنفعل ذلك يوماً ..

فيسون لا تاشرا .. (إلى اللقاء) .

وقال كرم وهو يلوح له بيده :

- فيسون لا تاشرا هيدجي !

وحين عاد إلى غرفته ، استشر فرحة أقل مما كان يتوقّع عند لقاء هيدجي . قترت هتته حتى عن التقاط الزجاجات والكؤوس الفارغة . ترك المائدة الصغيرة كما هي . وضع يديه في جيبي بنطاله وراح يذرع البيت ، عثراً غرقته والمشى ، مثله حين تبوخ الأشياء في ناظره ، حين تنفي نفسها ، متحوّلة إلى سلب مطلق ، باهظة روحه الثقافة كزجاج دمشقي ، زجاج قابل للكسر من لمسة ، لكنه لا يتكسر رغم مئات اللمسات التي جرت عليه . في حال كهذه تنفّه حتى معزّاته . تصبح الطبيعة ملاذاً وحيداً . يتمنى أن يذهب فيها ، أن يدخلها ، أن يلاها عينيه وأذنيه وفمه ، أن يتوحّد بها توحّداً باثياً .

هذه الابتهالية الطقسية ، لنفس عاشقة ، وغير مدركة أنها عاشقة بعد ، وغير عارفة أين هو العشوق ، وأية رياح ستحملها إليه ، أو

تحملة إليها، والتي تتعب، تسغب، تثور، تنقلب ثورتها مقتاً لكل ما هو أقل من مثل أعلى رومانتيكي، ما تلبث أن ترتطم بالواقع، ويناس الواقع، وطموحاتهم الصغيرة، وسعيهم وراء منافع ذاتية، أو تعلقهم بما هو دون الهدف الإنساني النبيل، في العمل لحياة أفضل، فتتأذى الشاعر المرهقة، وتتغرب، وتلوب على ما يبعث الطائنية فيها، من خلال تحقق ما، على أية صورة من صور التضال.

«عندنا مثلاً جاء بعد طول انتظار. جاء عاقلاً كمثات وآلاف من أمثاله، حتى الصورة الطريفة التي أخذها عنه في الصبح، وهو ضائع بين حانات النبيت في بودابست، تشقت الآن. ترققت بضربة سكين حادة. بلده، المجر، لا يمر عليه بالمقدار الذي تصوّر. مستعداً للتغرب ثانية في سبيل مزيد من التحف... وهو يشقى بهذه التحف شقاء كثيراً، يعجز معه عن التمتع بها. ملكيته لها تأكله. تتضخم على حساب إنسانيته. تغتال حبه للجمال، للثقافة، لمعجزة الفن في الأشياء، ولا يبقى إلا التعلق بالجانب المادي، الجانب الذي يستبد بالنفس، يصيرها كهفاً يرثع فيه عن ودود.

وذا، في هذه الساعة، أن تكون ابرجكا إلى جانبه. ما كان أحد قادراً أن ينوب منابها. لا يبروشكا، ولا ضياء ولا حسن. لكن ابرجكا مسافرة. ربما لا تعود أبداً. إنها في سفارة فن لبلادها. هي وحدها فهمت أزمتها النفسية، فهمتها دون أن تسأل عنها. أدركت بحساسية الأنتى أنه يتعذب، وأن عذابه ناشئ عن عجز في أن يطمئن، وهذا العجز لقلق مبرح سيطول، ما دام غير قادر على أن يحب، وأن يحب مجنون كامل، يشقى من جنون قلقه شقاء كاملاً أيضاً. في هذه الحال صديقه حبيب أفضل منه. إنه رئيس القسم

العربي في إذاعة بودابست، ويبدو قرير العين بعمله، وحبيبته الصغيرة، وبيته الصغير، والجلسة الصغيرة، على كأس، أمام وجبة شهية من طيخه، ثم يذهب إلى الفراش، كالملايين من الرجال مع الملايين من النساء، فيلعب لعبته الصغيرة، ويستم، وينام مبتسماً، ويفيق مبتسماً، ويذهب إلى عمله مبتسماً ككرة أخرى.

ولقد خاض كرم صديقه حبيب بغير ذنب. لم يستطع أن يكتشف الجاهل النفسي الرضي فيه، ولا طائنيته التي تحمله بعيداً. عجل إليه أن حبيب لا يفكر بالوطن، ولا بالمثل، ولا بالقضية، وحاكمه على ذلك، وأصدر حكمه بالابتعاد عنه، ورغم ذلك ظلت ابتسامة حبيب التي تكشف عن جذور أسانه النسبية، معلقة على شفتيه، يقابله بها كلما التقاء. وهذه الليلة دعاء إلى العناء، على طبق سمك من صنع يديه، وسيقابلة بالابتسامة ذاتها، ويتحدث عن الطبق الذي أعدّه بشكل يجعله يشتهي أن يأكل، إضافة إلى أن السمكة من كرم، ولم يزد حبيب على أن تطوع بتحضيرها. ذلك أن كرم مر بال بازار ورأى السمك حياً يسبح في الحمام، قابض سمكة، ولقها بكيس ورقي وحملها إلى البيت، لكن السمكة ظلت تنفّس، ولما كان كرم مشغولاً، فقد وضعها حية في البراد ونزل إلى الطريق، وهنا فكر في أنه ارتكب حماقة، وتصور نفسه حياً في براد، فعاد أدراجه وأخرج السمكة، متوسلاً إليها أن تموت، ورفضت السمكة توسلاته، فملأ البانيو بالماء، ووضعها فيه، وبعد قليل استردت أنفاسها، وأخذت تسبح، ولما عاد مساء وجدها تسبح بنشاط كامل، وعندئذ احتار في ما يفعل، فهو غير قادر على قتلها، وهي لا تموت كرمي له، ولا يمكن إبقاؤها في البانيو.. وقصّ حكايته على حبيب، قابض هذا، وفي المساء صعد معه إلى غرفته،

وهناك تناول السمكة من الماء، وضرب رأسها على حافة البانيو، فتحطم الرأس ونزف الدم، لكن ابتسامة حبيب ظلت معلقة على شفاهه.

هذا المنظر الدامي، لرأس السمكة المحطم، أقصد الرؤية الشعرية التي ينظر بها كرم إلى كائنات الوجود. اعتبر حطم رأس السمكة على حافة البانيو قسوة غير مبررة. كان يفضل أن يدع السمكة، على أرضية المطبخ، حتى تموت، مثلاً بفعل الصيد على شاطئ البحر. ابتسم حبيب لهذه الرقة المفرطة، وأفهمه أن أية فتاة في البازار، تعمل في السمكة، تفعل كما يفعل. بل إنها تضرب رأس السمكة بساطورها قبل أن تشق بطنها، لكن كرم أضمر ألا يأكل من لحم «ضحيتته»، وساعد الاعتكار الذي خلفه هيدجي في نفسه على زيادة نفوره من تلبية دعوة حبيب. وهكذا، في اللحظة الأخيرة، هتف إليه معذراً. أثر البقاء في بيته، غير مكثرت حتى بالتحف الذي كلف، في الشهور الأخيرة، عن استقبال الضيوف، بإصرار منه. كان يمارس رغبة في معاندة ذاته، فما دام عاجزاً عن الحب، والكتابة، والعيش في الغربة، فإنه سيجعل نفسه، عن طريق الزجر، تدفع فن السوء الذي تأمر به. وقد شجعه على هذا السلوك، ضياء التركي، قال له، بطيبته الأبدية: «احذر يا كرم أن تنزلق إلى هاوية المتعة الرخيصة.. هنا النساء كثيرات، وهذا المنحرف يغري بالزيارة، ولديك أسباب أخرى تجعل من اللهو طريقاً إلى الجحيم.. أنت لا تريد أن تصبح مثل أدامو الإيطالي، أو كبريانو اليوناني.. أنت لديك قضية.. احترس يا بني، تذكر أن ناظم حكمت كان يسكن البيت الذي تسكنه، وأنه كان يكتب. وعندما نقول: يكتب، يعني يخدم قضيتك، يهبها نفسه، وليس معنى

هذا أنه كان ناسكاً، لكن العلاقات الاجتماعية شيء، وقضاء الوقت في استقبال الزائرين، والانغماس في الجنس شيء آخر.. لقد اعتقل حبش.. نال جزاءه.. فما معنى هذا؟ معناه أنه ضاع، لكن الضياع له أكثر من طريق.. هذا ما أقوله لنفسه أيضاً، وكذلك أقوله لزوجتي وينتي وابني، الغربة مصيدة.. وقليلون جداً الذين نجوا منها، تذكر كلامي.. إنني أحدثك كآب..»

ولم يمكن كرم بحاجة إلى مزيد من النصائح. هو نفسه تحول إلى منتج للنصائح. كان واعياً داخله. يعرف ماذا عليه وماذا يجب، وكيف يجب، لكنه ما كان قادراً على تطبيق كلماته على الورق. كان أهون عليه أن يسك بالريح ويعلقها من جدائلها على جدران المنحف. من أن يستدعي الحروف ويلعبها. صارت ريشته خشنة. سكت حرائق في أرض صخرية. وقال في نفسه: «لماذا؟ لماذا؟.. كيف لا تطاوعني الأفكار كيف تتأني علي إن شربت أو صحت. إن القهر الداخلي، لإنسان مأزوم، يمكن التغلب عليه باصطناع مسرة ما، بالشرب، بالرقص، بالجنس، وهذا ما فعلته، لكن الشعور بعدم القدرة على الكتابة، هي الأزمة اللعينة المستعصية، لأنها مرتبطة بالقلب، وباليد، وبالتركيز. لا يمكن الانفعال وحده، الانفعال زهر لوز ينفث ولا يعقد، تينة عاقر، تجهل أوراقها، لكن الخصب بعيد عنها. إن أصعب ما في الحياة أن يفعل الكاتب، ويظل انفعاله عتيقاً، فهو، في حال كهذه، كانفعال الرجل، ثم ارتداده عاجزاً عن المرأة.. الارتواء بعيد.. وظل في الذات يحرق كالنار..»

مضت شهور الآن على ذهابه وبيروشكا إلى قرية «كود» وركوب السفينة النهرية، واستقبال ذلك الغيب المهيّب، وبده فوق

يدها على حافة السفينة. وفي نوبة ضعف، أو جنون، قرّر أن يترك
بيروشكا. صار الميل إلى تعذيب نفسه حكمة، بمن في تعذيبها،
فتسمن في طلب التعذيب من جديد. الحكمة تتأكل، في نوع من لذة
تدمي، تزيد موضع الحكمة، تعمقه، توسعه، وتظلّ، في حلقها
المفرغة، مرضاً جليداً يشدّ متعته من سرطانيته ذاتها. وإذا كانت
بيروشكا، قد انتهت إلى حبّ يقرب من الهوس، فقد انتهت، أيضاً،
إلى يقين يشبه الاعتقاد الكامل، أن كرم إنسان شاذّ، وفيه غرابة
أطوار لا تفهم، وأن عليها أن تتقبّله كما هو، أو تدع نفسها له، إلى
أن يقرّر ما يريد.

كرم قرّر بأسرع ما تصوّرت. قرّر أن يفصل عنها. رومانيتيكنه
أضافت بعداً جديداً لأزمة عجزه. كان، في ذاته، يارس شعوراً
بالليل، ونيله كان أنانياً، ككل صفة من هذا النوع. الكرم،
الاعتداد، الفروسية، كل هذه القيم، تشدّ في ذاتها، من خلال
المعطاء، ممارسة لذة مشبوهة: الإرضاء الشخصي. وإذا كان قد
توقّف كثيراً أمام «كانك تعطيه الذي أنت سائله» وأعجب
بالبيت، فإنه لم يفلن أبداً إلى أن الإجابة على السؤال، بنقطة كرم
غير محدودة، تنطوي على لذة ممارسة التشوّف، أو الانتصار من
خلال جعل الآخرين مدينين للمعروف. وقد كان، حبال الناس
معطاء. كان يحسّ بنقص ما، نتيجة أزمته، ويبحث عن تعويض،
بتطويق أضياف الآخرين بإحسانه. ومثلما تهبّ الريح الطلع الذي
يخصب، كانت حياته طلعاً معروفاً لو انقطع عنه لما بقي له شيء..
وليس عتق الآخر، عبداً كان أم محبوباً، إلا هبة تقايض لذة، وفي
نشأتها، أعنت بيروشكا، وهبها لذاتها. اعتزل حبّها، دون عناء،
واحتمس فعلته في ذمة النبالة. استعاض، بهذا الفعل لممارسة القوة،

عن ضعف داخلي يشده إلى فقر مدقع في المواطف تجاه حب المرأة،
ولم تفهم بيروشكا دوافع تصرفه، ولا استطاع أن يشرح نفسه لها،
وحين ارتدّت توسلاتها خائبة، قرّرت، هي الأخرى، أن تهجره،
وأن تحب آخر، أن تكذب على نفسها، فراحت تقيم علاقات
جنسية، بغية النسيان، إلى أن كانت حفلة في بيت أحد الأصدقاء،
وكان معها عشيقها، وفوجئت بوجود كرم. لم تسلّم. تجاهلته.
أظهرت بيروشكا هدوءاً خيالياً، واحتفاءً حاراً بالعشيق الذي معها. لم
يأبه كرم، الفيرة وليدة الحب. هو لا يحب. ظلّ لامبالياً، انصرف
إلى الاستمتاع بوقته عن طريق الشراب، ولم يرقص إلا مرة
واحدة، مع سيدة البيت. كان، من ناحية الحب، معافى، لم يكن
يحب، وبيروشكا تعرف ذلك، وكانت هي تحب، ويعرف كرم ذلك،
لكنه حين رآها مع صديق جديد، أثر الابتعاد عنها، ومرة لم يسمح
لعيبه أن تلقيا بعينها. وراح صراع صامت يدور، وبشكل غير
متكافئ، بين معافى ومريضة، ودام كذلك إلى ما بعد منتصف
الليل، حين جاءت صاحبة البيت طالبة منه أن يذهب معها، نهض
دون اكتراث. لم يفهم سبب الدعوة.. ما كانت له بصاحبة البيت
علاقة، لكنه، كياسة، لم يرفض دعوتها. سار معها في الجاز، إلى أن
دخلت المطبخ، وهناك رأى بيروشكا تبكي.. توقّف في العتبة
مبهوتاً. لم يفو على عدم التأثر. كان يحب بيروشكا على طريقته:
المعزة. هنا كان صادقا. كان معزّاً، قادراً أن يبذل، أن يمسح الدمع
بمديل أبيض مجزوء من روجه، وكانت بيروشكا، يفعل حبّاً
وسكراً، جديرة بأن تنصرف بشكل يحترق المألوف، ولو أراد أن
تقبّل يديه، رجليه، لفعلت، لكن ذلك لن يزيد في معزته لها، ولن
يجلب، من ناحية أخرى، حبه لها.. وحين اندفعت إليه، بعد أن

خرجت صاحبة البيت وأغلقت الباب وراءها، طوّفته بذرّاعها
العاريين، وانهمرت دموعها على صدره، وهي تشيح: «كرم! كرم!»
وأجابها «بيروشكا! ما بك يا صغيرتي.. ماذا يبكيك؟» «أنت،
ماذا فعلت؟» «لا شيء.. وهذا أقطع ما يكون الفعل.. لقد
صيرتني عاهرة.. صرت عاهرة، منحت نفسي لكثير من الرجال،
انتقاماً، نسياناً، لكن ما فعلته زادني جنوناً.. أنا لم أنتقم.. لم أنس،
لا أريد الانفصال عنك.. لماذا لا ترينني؟ أليس لك قلب؟ أريد أن
أراك، أن أتحدث إليك، ثم نفرق.. يجب أن تسمعي قبل أن
نفرق.»

بعد أسبوع رتب هادي موعداً لها في أحد المقاهي القريبة من
«بانتزورا وتسا». كان هذا شرط كرم للقاء. ربما خشي، إذا جاءت
إليه، أن يضعف، وأن يعود إلى ممارسة الجنس معها، وعندئذ تعود
العلاقة، كان يعرف ألا شيء يُذل الرجل مثل شهوته، ولا يريد أن
يتجن نفسه بتجربة لا يثق بأنه سيخرج منها سليماً. وعندما دخل
المقهى كانت بيروشكا بانتظاره، أمام طاولة في الزاوية، وكانت
هادئة، رائعة، وشعرها السبل ينفلش على كتفها، وطبّته عند
صفحة الوجه، تعطيها شيئاً بمثلات هولبود. وقال في نفسه، بغير
وعي: «يا للفاتنة» وسرعان ما ازدهى: هو كرم المهادي، اعتزل
معاشره هذه الفاتنة. وهبها لنفسها، كي تختار من تشاء من الرجال،
وأن تجد الحب الصحيح، المتبادل، بينها وبين الآخر.

تكلمت بيروشكا، اصغى إليها بانتباه ومودة. شرب معها قليلاً،
لم يجهد نفسه ليتحصن ضد لهفتها. عدم القدرة على الحب كان حصنه
الذي لا يحترق. ولم تزد كلمات بيروشكا، عن الحب، المعاشرة،

الزواج، سوى في الارتطام بحصنه المنع. وبمنطق واضح، هادي،
أكد لها أنه يعرفها، لكنه لا يستطيع أن يحبها.. وقال لها إن ايرجكا
قد سافرت، وكانت هي تعلم ذلك، وقال لها إنه لم يعد يستقبل
زوّاراً في متحفه، ولا سهرات لديه، وأجابت إنها تعرف ذلك من
هادي، لكنها توسلت إليه أن يبنى صديقها فقط، فأجابها إن هذا
ليس في مصلحتها، وأنه لا يريد أن يلهو بها، ما دام لا يحبها ولا
يفكر بأدنى تفكير بالزواج منها.. وقالت حزينة، غائبة:

- هكذا إذن يا كرم؟
- هكذا يا عزيزتي بيروشكا..
- أنت لم تتحلّ عني لخطأ ارتكبته؟
- أبداً..
- ولست حاقداً عليّ..
- بل أنا أعزّك..
- ولن أراك بعد؟
- أرجو ألا يحصل ذلك..
- لتشرب إذن كأس الوداع..

شرباً.. كانت الدنيا غائبة، كان الفضاء نسيجاً رمادياً..
الشمس مكفّنة بالرماد، ورأس السيكرتين أيضاً، والريح تلعب مع
الظلال في الخارج، ومطر رذاذ، وفي المقهى رواد ساهمون، والجو
عجاج دخان، يهبط، يهبط، يشكّثف..

وانتهت الجلسة..

خرجاً.. هبطا درج المقهى.. صارا تحت المطر.. كان يلبس
واقياً، أسكت به من ياقة الواتي، فبكته، قبلها، لكنها ظلت

مسكة بالياقة.. وظلت عيناها معلقتين في وجهه، ودموع تسكب
وتشق مجرى على الوجنتين.. وظل الرذاذ يتساقط.. وظلت
واقفة، تشد به من باقته، والرذاذ يتساقط..

لغة بغير كلام..

ودموع بغير انقطاع..

ومطر، مطر، مطر..

- ٢٠ -

عادت ايرجكا من رحلتها الفتيّة الى الخارج. نظرت الناس، حيثما
ذهبت، الى البحر في عينيها، رأوا بلادها الجميلة في جمالها، في
صوتها، وفي البؤبؤين الملونين، كيبؤبؤي نمر من لاهور، تتسوّج لمعتها
برجة من عسل ولبل. وقد هتفت الى كرم منذ وصولها، قالت له إنها
تنت، في أيام السفر، لو كان معها، غير أنه أجابها: «من الأفضل ألا
تذهب معاً، الى أي بلد.. إنني لا أميل.. ولا أطيق، ان تتكرّر
قصة أزيد واردة ان كان ويسين». سألته: لماذا؟ أجاب: لأن
رحلتها انتهت بأساة.. حين شق الشاعر نفسه، بعد أن انفصل عن
تلك الراقصة الجهنمية. قالت ايرجكا: «هل أفهم من هذا انك
تغار؟» وقال ضاحكاً: «كنت أغار لو املك هذا الحق.. كل ما في
الامر انني لا أرغب بالجلوس في خلفية المسرح».

المصادفة القريبة في لقاءها، كان مقدراً لها أن تذهب الى أعلى،
أو تهبط الى أسفل. أن تكون علاقة جنس بحتة، أو علاقة صداقة
فيها جنس تنغذى به.. وكان نادراً، حتى في البحر نفسها، أن تقلك
نفس كل هذا النسل الذي انطوت عليه نفس ايرجكا. وكان
يتساءل، هو الذي عرف غير قليل من النساء، عن سرّ هذه الصداقة
التجوهرية، التي لا تنتمي الى الطهر ولا الى العهر، ولا تنسب الى

رهبة أو رغبة، بل تمنح نفسها كالحبة، كالزهرة التي تسر السرى.
ولقد أثر فيه اتصالها الفوري، غيب رجوعها، تأثيراً كريماً، فهذه
الفنانة، المشهورة في بلدها، وخارجها أيضاً، هي التي تملك إضافة في
السعة، بالنسبة إليه هو، الكاتب المجهول في العربية، حتى مع
الافتراض انه تمكن من الفوز بهذا اللقب. وكان مفهوماً، لو أنها
تعرف العربية، وقرأت رواية واحدة مما كتب. كان تقديرها، من
وجهة الإعجاب، يكون مبرراً، لكنها وقد منحت وذاً نادراً، منذ
تعارفاً، ودون ان يكون للمتحف اي اثر، او لكرمه، على فرض
وجوده، اي دخل، فإن هذه النقحة من الساحة، عزت عليه،
جعلته مديناً، تعوزه القدرة على المكافأة.. واذا كان قد عزا تعلقها
به، في لحظة ما، الى تضجها الأنثوي، فإنه سرعان ما أطرح خاطراً
كهذا، يحصر صداقة عزيزة، في زاوية متعة يستطیع أياً شاب أن
يوفرها لها بأكثر مما يفعل هو. إن ما بينها كان أكبر. لعله الصديق
الغني، في النزعة الإنسانية الكامنة في أعماق كل منهما، «مهما يكن»
قال في نفسه، ابرجكا أكبر من امرأة، أعز من فتاة.. إنها بلد
بذاته، إنها الجمر كلها، هذه البلاد التي منحتني أكثر مما أستحق من
كرم وحفاوة..»

في الليلة ذاتها أرسل لها سلة زهور. كان يريد أن يعبر عن
سعادته بعودتها. بفعل ذلك من بعيد، دون أن يقتحم حياتها. فقد
انقضى الشتاء وهو يعاند نفسه، يصلبها كما يقول، متلمساً السامر.
ويرى الدم على أصابعه غير مبال، شاعراً على هذا النحو أنه السيد،
وأنه لن يكون، ولا في أي يوم، أدامو أو كيريانو أو نلسون، هؤلاء
هؤلاء الذين يتابعون لعبة اللامبالاة تجاه الحياة، بعد أن أقصوا عن
ذواتهم كل ما هو عام، ولم يبق لهم سوى الخاص، الخاص جداً، العهد

بدخلهم وراحتهم. أما جيش الذي حنّ بالسجن ثلاث سنوات، فقد
كان واحداً من عشرات ما زالوا يواصلون سلوكهم السيء، وكان
جورج يروي قصصاً عن هذا السلوك، لكنه يثق أن تشدداً ما
حبالهم سبباً، وأن نشاطهم المريب سيلقى جزاءه من كل بد. ولكم
تحدث الى كرم عن ذلك، وكما قال له: «معك، يا كرم، افتح قلبي.
انت جدتي يا يكلي. في البدء خشيت عليك. المتحف، والبار،
والسهرات، والنساء، وكنت أتساءل: إلام سيفضي هذا كله؟ وهل
فردية الكاتب - وأنا أعترف له بها - مطلقة؟ إن تميزه، صوته
الخاص، يحته عن التجارب والتحريب، امور تضعه خارج دائرة
الحدود التنظيمية. لهذا يضيق الأدباء، غالباً، بالانتهابات الضيقة.
ولكن حين يربط الأديب، تلقائياً، نفسه بقضية ما فهو يعطي نفسه
لها». وكان كرم يزداد إعجاباً بجورج، بقدر ثقافته وحبه للمطالعة،
بفهم، من كلامه، أنه ليس مثل أدامو الايطالي، وأن له أكثر من هم
تسدل مكان المظلة. فوق طفله التي حجب عنه واجبه. كتقدمي،
حبال أطفال الآخرين، الأطفال الذين يموتون جوعاً. وتقضي عليهم
الأوبئة، والحروب، في بقاع كثيرة من الدنيا..

وقد قال له جورج يوماً هذه الكلمات التي أفعنته سروراً:
«أنت يا كرم، بادرت الى موقف إيجابي، موقف مستند من
القناعة، من الضمير، فأوقفت مهزلة المتحف، وتخلصت من
إغراءات الجنس التي زادت عن حدها. فرضت على نفسك نوعاً من
حياة قاسية.. كي تكتب.. ومع أنك لا تكتب، كما تقول، لسبب
نفسي لا أفهمه أنا، فإنما الأعمال بالنيات.. ما دمت في الطريق
السوي فكل شيء سيبصر. ستكتب.. تحزن الآن تجارب تكتبها
في المستقبل.. هذا شأنك، انت تميز بين ما يجب وما لا يجب.. هذا

يرضيني، يرضي ضياء التركي أيضاً، نحن نتحدث عنك... يقول
ضياء إن روح ناظم حكمت التي ما تزال تحوم في فضاء بينك
ستشجعك وتلهمك...».

وقال له، في يوم آخر: «إنني، يا كرم، لا أميل إلى مبالغتك...
كانت عندي بيروشكا اسم.. يكت.. شكت طويلاً.. فأتصلت بك
محاولاً أن أصلح بينكما فرفضت.. إنها تحبك.. ماذا أذنبت حتى
تقاطعها على هذا النحو؟ ألا تحبها؟» وقال كرم: «المسألة، يا
جورج، ليست مسألة حب..» «مسألة ماذا إذن؟»، «لا أستطيع أن
أشرح نفسي»، «يجوز.. مزاج أدباء.. غير أنني أقول لك عن
قناعة: بيروشكا تحبك، وهي جميلة، وستكون زوجة طيبة.. فكر
في ذلك»، «فكرت.. فكرت طويلاً.. أنا لن أنزوجها، ولن ألهو
بها...»، «أنت لديك ايرجكا»، «ولا هذه أيضاً.. العيش لا يتنافى
مع الاستقامة.. أن تعيش فهذا ضروري.. إنني أعيش.. لست جدتهاً
على نحو صارم.. في قلبي حب يسع الكون، لكنه لا يسع أيها ابن
عاهرة ينسى قضيبته، أو يعيش دون قضية.. افهم شكواك إذن،
وأشاركك فيها، لكنني أسألك شيئاً واحداً: أن نقتع بيروشكا أنني
أعزها ولا أحبها.. هذا كل ما في الأمر»، «وما الفرق، إذن، بين
المعزة والحب؟»، «هناك فرق.. أعفني من الشروح.. أنا مرتاح
هكذا.. سأحب يوماً، سأحب بمنون، ولكن متى؟ لست أدري..
ربما لم أعر على تلك المرأة بعد.»

اتصال ايرجكا المفاجئ، أيقظ المواطف والمواقف والكلمات. راح
يستعيد ما متلماً، كما لو أنه يتذوق لقمة طيبة. إنه راض عن نفسه
على نحو ما. لقد اوقف الانزلاق في الوقت المناسب. ربما لم يكن
انزلاقاً بالمعنى التام، لكنه كان يراه كذلك، ليرى انتصاره في وقته

انتصاراً ماجداً. وحين أرسل، الليلة، سلة الزهور إلى ايرجكا،
قال في نفسه: «لو أن هناك من يوصل لي سلة الزهور إلى القمر! كان
فرحاً، مزهواً، وبرغبة في الدعاب، هتف إلى صديقه البارمان
فيراتس قائلاً: «أيها الساقى العظيم، يا أروع السقاء في بودابست
كلها، هل تعرف من يوصل لي سلة زهور إلى القمر؟» قال
فيراتس: «أنت تعرف أنني أرسل خوراً لا زهوراً»، «في هذه
الحال، أبعث بـ زجاجة ريزلنغ يا صديقي». وما هو عنوان عاهرتك
أيها الفجري؟» «أكتب لديك: القمر، شارع الحوت، جنية
القمر»، «ومنى ستصعد إليها أنت أيضاً؟»، «أنا لن أصعد إلى أيها
مكان.. ليس لي جناحان. كل ما أستطيعه أن آتي إليك، ليلة
الست، أحجز لي مائدة». اتصل في الغداة بايرجكا.. كانت ما
تزال في إجازة راحة بعد السفر. وكان كرم قد اتقن الهجرة..
حياها بأدب كبير. كانت معزتها قد زادت عن المعزة
نفسها. روحها الغنية الغنية. أسرته، وكان يشعر بالتقصير،
إنه لم يذهب إليها مسلماً، وقال لها معذراً: «أنا، يا ايرجكا، كما
تعلمين، ما زلت أعيش أزمي». وقالت ايرجكا «وتلك الصغيرة
بيروشكا؟» «انتهى ما بيننا»، «ومن هي صديقتك الآن؟»
«أنت»، «انت لا تريدني أن أصدق.. أليس كذلك؟»، «صديقي ولكنني
عدت بكامل عقلي من الرحلة»، «أنا لا أفرح.. سأمر عليك مساء
الست.. حشرت مائدة في مرقص جيد.. أرجو أن يسمح وقتك
يقبول دعوتي»، «ألا يمكن تأجيل ذلك؟»، «لا يمكن يا صديقي،
أرجوك» وأجابته: «اتفقنا».

نام بعد ظهر السبت إلى الغيب، رأى حلماً غريباً. ألقى نفسه
في مركب شراعي، وسط بحر هائج. كان معه خلق كثير، وكان

بعضهم يبكي، والزورق يتخط بين الأمواج. وبدأت المياه تغمر السطح، وعبثاً راح الرجال يحاولون إصلاح القلوع، فكل شيء يتمزق، وكل شيء ينهار، ومن حول المرك ظهرت أسماك غريبة، لها أجنحة وأرجل، وأيد، وسنات قردية، كانت تمد أكتافها ذات الحالب، وتنتزع الركاب واحداً بعد آخر، وتغيبهم في الماء، حتى لم يبق سواهم.. وطفق بصارع، وسط الريح والمطر تلك القروء السكية، ممكاً بصاري المرك، صارخاً في طلب النجدة.. وفجأة رأى موجة كبيرة مقبلة. تندرج قادمة من الأعماق، فأغمض عينيه رعباً، لكنه، حين فتحها، رأى امرأة تجلس على قمة الموجة.. امرأة ليس أجل منها بين النساء.. مدت يدها إليه، وسحته من الغارب، واستطاع، وهو يعجب لنفسه، أن يثني على الماء، وأن يصعد إلى المرأة.. التي ابتسمت له، ابتسمت كما تجتبه القمر تماماً. فصاح فرحاً: «أنت؟» وأفاق دون أن ينتلج جواباً..

ظل مستلقياً يتابع الحلم بعينين سارحتين وراء تهاويل. كان سعيداً إلى درجة لا تصدق، وكان يتمنى لو طال الحلم، لو تحقق، وحين نهض كان ما يزال تحت تأثيره، فأعد لنفسه فجاناً من القهوة، ثم اغتسل، وشرب كأساً من الويسكي المنلوج، استناغ طعمه كأنه لم يذق مشروباً بهذه العذوبة، وفي الساعة الثامنة غادر البيت، وسار متمهلاً إلى بيت أهرجكا..

طرق الباب متلهفاً، وصاح حين فتحته:

- أقبلتك! قالها على الطريقة المجرية وهو يمد يده..

فقالت بنبرة حارة:

- سرفوس كرم (وأعطته خدها فقبله) كيف أنت؟ ماذا فعلت

بغياي؟ هل انفصلت جدياً عن تلك الصغيرة؟

- جدياً يا عزيزتي.. تقضي شهوراً ولا أراها..

قالت ضاحكة:

- لولا أنني أعرف.. لقلت إنك رجل كسائر الرجال.. قسوت

على بب متلهفاً، وصاح حين فتحته:

- أقبلتك! قالها على الطريقة المجرية وهو يمد يده..

فقالت بنبرة حارة:

* سرفوس كرم (وأعطته خدها فقبله) كيف أنت؟ ماذا فعلت

بغياي؟ هل انفصلت جدياً عن تلك الصغيرة؟

- جدياً يا عزيزتي.. تقضي شهوراً ولا أراها..

قالت ضاحكة:

- لولا أنني أعرف.. لقلت إنك رجل كسائر الرجال.. قسوت

على يبروشكا بالانفصال عنها.. ماذا أذنبت المسكينة؟

- لا شيء، وهذا ما يؤلني.. في نوبة طويلة ومستمرة من محاسبة

النفس، قررت أن أتوقف عن اللغو بها.. وجدت ذلك منطقياً، ما

دمت أرغب أن أكون صادقاً مع ذاتي..

- وصدقت مع هذه الذات؟ ألم تعاشر غيرها؟ أليس لك فتاة؟

امرأة.. قل، ما هي أخبار متحفك؟ ولكن، قبل ذلك، ماذا

تشرب؟

- كأساً من الويسكي مع الثلج، إذا كان متوفراً.. كيف كانت

رحلتك؟

- موفقة جداً.. خاصة في باريس.. هناك يتذوقون الفن.. يا

للمدينة الغائنة! اشتركت في مهرجانين للأغنية، وكان تقدير

الأغنية المجرية جيداً.. لدينا، في هذا البلد، ما ينالني به..

- لديكم أشياء كثيرة تباعون بها.. لكم أحب بودابست يا
ايرجكا.. أشعر فيها وكأنني في وطني..

- ومع ذلك تشكو.. ترفض الإقامة الدائمة..

- هذا ما ينبغي.. إنني لا أشكو، ولكن أن أبقي!!

أفهمك تماماً.. حين يكون المرء خارج وطنه برغمه، يارس
إحساساً بالنفي.. حدثني عن هذا الشعور بعض المهجرين الذين لقبتم
في أوروبا وأميركا خلال رحلتي.. لا تكن عكر المزاج.. لا تضع
المرارة، ولا تقصر نفسك على الكتابة.. إنني، حين أكون نعيبة،
لا أغني، وإذا فعلت لا أكون ذاتي.. يكون ذلك مفتعلاً، كعمل
تؤديه لكنتك لا تحبه.. أين سهر الليلة؟.. لاحظ أنني لم أسهر
خارج البيت منذ عودتي.. وكنت سأرفض، لولا أنني أريد أن أصححجة
لصديقي الكاتب الذي لا يكتب، ولا يحب، ويحاسب نفسه
ومجلدها، لكنه، الليلة، سيكون طيباً معي.. أليس كذلك؟

في مرفس وأم كي، رحب بها البارمان فيرانس ترحيباً
غامراً.. قبل يد ايرجكا.. استأذن أن يعلن في مكبر الصوت أنها
موجودة في الصالة، غير أنها رفضت ذلك.. كانت تعرف أن المرفس
غير المفهي، وأنه مكان لا بأس به، لكنه دون مستواها، ولا تدري
لماذا فضله كرم.. وحين شرح لها أن ذلك يعود إلى صداقته مع
البارمان فيرانس، ربت على يده الموضوعة على الطاولة، في لفنة
تساعجية، ما دام الوفاء للصداقة هو الذي جمه على أن يفعل ذلك..
اقترح كرم أن يواصل شرب الويسكي ما دام قد بدأ بها، فلم تمانع،
لكنها، حين جاءت زجاجة «دبل» كاملة، رجت كرم ألا يكثر.
قال:

- أشعر بنشاط للشرب الليلة..

- مها يكن، لدينا في البيت ما سوف نشره بعد العودة.. أم
تريدني أن أرجع وحيدة؟

- لقد أوصاني صديقي فيرانس ألا أكون غجرباً.. وأحسب أن
عودتي صاحباً ستكون مضمونة.. إنني فرح يا ايرجكا.. فرح بك
الليلة..

- ولكنك مهتاج قليلاً، ككل أصحاب الحساسية المفرطة.. هل
تراني غير مدركة فرحك في؟ إنك، معي، على ما يرام.. أنتعرف
لماذا؟ لأنك لا تحتاج إلى الكذب، ولا أنا أطلبه.. أعرف حجم
علاقتنا، ونوعها، كلانا ترك مسألة الحب جانباً، وهذا أفضل.. معي
تستطيع أن تكون صديقاً بغير حرج.. أنت غير ملزم حيالي بشيء..
استوعب مشاعرك.. حين تتألم، تتعب، تشك في الآخرين، تعال
إلي.. المرأة أقوى على الصداقة من الرجل..

- لكنني، في هذه الحال، سأكون مديناً لك.. إنني، أحياناً،
أكاد لا أفهم.. لماذا تتدقن علي كل هذا اللطف؟

- لأنني أريدك.. هل أنا غامضة؟ ألا يعرف الرجل أن يأخذ
الأشياء ببساطة..؟ نعجني، هذا كل ما في الأمر.. أنت، تلك
الليلة، أردت أن تدفع.. تصرفت بعقلية رجل تجاه امرأة.. لا
ألومك، حتى عندنا، لم تنتف العقيلة الذكورية.. أنا لن أدفع لك..
هذا بسبب إلى العقيلة إياها.. أنا أكثر مدنية.. أكثر حضارة،
وموقفك مني معيار.. موقف الرجل من المرأة معيار حضارته..
وأنت، حتى الآن، اجتزت نصف الامتحان.. حين لم تطوئني على
اسك، لم تعتبرني، حتى بمعيار الوفاء، وكلما يفهمه الرجل، ملكاً لك،
قطعة من متحفك.. وهذا يرضيني.. لقد عرفت كثيرين قبلك،
وكل رجل، ما إن ينام في فراشي، حتى يعتبر نومي معه، التزاماً

نجاهه.. فهو يفرض نفسه عليّ، أو يحاول ذلك على الأقل.. وبين هؤلاء فنانون، أو يزعمون بحكم المهنة، انهم كذلك.. أنت، وربما بسبب أزمته، لم ترتب لنفسك أيّا حقّ عليّ.. دعني، إذن اشكر أزمته.. فلمعلّمها أن تكون دليلاً على اختلافك عن الآخرين.. إن فناناً عاقلاً، مهندساً، جدياً، جسّوياً، لا يلائم مزاجي.. في الفن شيء ما زائد عن العقل، أو على الأصح، شيء ما ناقص عن العقل، وهذا ما يجعله حارّاً أكثر، مجنوناً على نحو ما، وأنا أنفر من البرودة ورجاحة العقل.. الرجل العاقل ملّ يا صديقي..

بعث فيرانتس بياقة زهر. جاء في آخر السهرة وسأل عما يطلبان. مازح ابرجكا بقوله:

- صديقي كرم عجري، أو من زمرة العجور، أو من الذين لديهم استعدادات عجزية: أحذرك منه..

- ليكن ما يكون.. العجور أيضاً طيبون، وبعضهم ظرفاء، ولكن ماذا فعل؟

- لا أستطيع أن أقول.. هذه دعاية..

وقال كرم حين انصرف فيرانتس:

- يتهمني بأنني أرفع رجلي المرأة أكثر مما يجب..

ضحكت ابرجكا:

- لم ألاحظ ذلك، أو لعلّي نسيت.. هل رَفَعَ رجلي المرأة بأكثر

من يجب علامة عجزية؟

- هو يزعم ذلك.. يقصد العنف.. الشراسة..

- وأنت؟

- لا أذكر أنني كنت شرساً..

- وماذا في ذلك؟ كن يا صديقي عجرياً الليلة.. أريد، إذا

كنت تعرف ذلك.. أن تمارس الحب معي على الطريقة العجزية.. انظر هذه كأسى الثالثة... وأنت؟ أريدك صاحباً كما وعدت..

- لكي أصبح عجرياً حقاً يجب أن أسكر..

- ولكن ليس الآن.. كفى ما جلسنا في هذا الوكر.. لا أرغب

في الرقص.. هيا..

في بيتها عراها بيديه، وعدّها ألا يكون عجرياً قبل أن يفترعها.. استلّقت كحواء.. كانت أفعى لاهورية كاملة، وكانت للأفعى رؤوس تطل من مسامها. كانت سرّتها شفاء.. وكانت حلمتها وردتين، منفرجتين. وقال لها: «ثاني.. أريد أن أشرب قليلاً أيضاً.. لا أدري لماذا أحس بأنني مفارقتك... حلمت اليوم، بعد الظهر حلماً عجيباً.. رأيت جنبة القمر..» قالت وقد قطعت. ورفعت ذراعها إلى أعلى فبان الإبطان، وبان الشبق وهي تعضّ على شفتها في حركة تقطر شهوة: «تحقق حلمك يا صغيري.. ها هي جنبة القمر أمامك.. لك كل جسمي، فقط احذر وجهي، احذر عيني، لا أريد علامة عليها.. لا أحب فضائح الجنس..»

في الضحى، حين أفاقا، دلّته أكثر من المعتاد، شاقها أن تكون سيّدة بيت، وأن تعدّ الإفطار. سقطت عصيراً أولاً. وسأته كيف يفضل البيض، وعندما عرض عليها المساعدة رفضت. كانت تضع مريّة مزهرة، فوق معطفها الحريري، وقالت له إنها سعيدة لبقائه إلى جانبها، لعدم هربه كالمرّة الماضية، وعلى طاولة الإفطار أخبرته أنها مطلّقة، وللمرّة الثانية، وذلك لأنها لا تريد لأيّ رجل أن يستبدّ بها.. وما سهّل عملية الطلاق أنها لم تنجب.. وتلك، كما فهم، مأساتها.. لقد كانت، هي الأخرى، تعيش مأساة خاصة.

وقبل خروجه، سألته بلهجة جدّ طبيعية:

- سمعت الأخبار أمس؟

- أبدأ.. ماذا هناك؟

تردّدت قليلاً، أدركت أن كرم لا يتابع الأخبار المجرية، ولا يقرأ الصحف أيضاً، كان مزعجاً أن تخبره لكنها كانت تحبس أن الوضع خطير. وأنه يجب أن يعرف. قالت هاتفة:

- ولكنها الحرب!

قال دهشاً:

- كيف؟ بين من ومن؟ ولماذا لم تخبرين ساء؟

- حسبك تعرف.. ثم لم أثنأ أن أقصد سهرتك.. (أضافت)

الأخبار متيرة.. الحرب متوقعة بين العرب وإسرائيل.. ليتنا سمعنا نشرة الأخبار هذا الصباح.. تعال، سنحاول التفاوض أنها إذاعة.. لا تقلق..

لكن كرم كان قد استبدّ به قلق غريب، قلق يمازجه ندم قاتل، منذ ايام لم ير جورج. لم يسمع الأخبار، وبينما الحرب موشكة على الوقوع، كان هو في أحضان امرأة. اللعنة على الغربة! إغراءاتها كانت أقوى منه، برغم كل ما بذله ليتفادى الانزلاق. صاح وهو يودّعها:

- عليّ أن أذهب.. يا لي من جاهل كبير..

انطلق من الباب الى الدرج. لم ينتظر المصعد. قفز الدرجات عائداً الى بنتزور اوتسا، وهناك، في بيت جورج، كان بضعة طلاب، وراديو ترانزستور من الحجم الكبير، ووجوه يحتم على الوجوه. أحسن أنه جاء متأخراً. كان عليه، هو كرم المجاهدي، أن

يكون متنبئاً للأخبار أكثر من سواء. وإذا كان كمشفق، يهتم بالقراءات الأدبية. فإن تحولاً خطيراً على هذا النحو في الوضع العربي، كان جديراً بأن يلفت، وأن يجعله يسهر الليل في التواصل مع ما يجري، وما يطرأ من تطوّر، تزداد فيه حدّة التوتر الى درجة الحرب، لكنه، بدلاً من ذلك، سهر في المرقص.. لهذا بدا وكأثر شعوراً بالذنب يتلبّسه، وكان بطبيعته، المبالة الى التلذّذ بمثل هذا الشعور، مثقلاً بتيكيت الضمير، لكن جورج، الذي فتح له الباب، وسأله عن الجديد في الأخبار، أعلن أمام الجميع أن التطورات كانت سريعة، ولم يكن بالإمكان، لتعدّر التفاوض الإذاعات العربية، سوى الاعتقاد على الاذاعات الأجنبية وأكثرها غير موثوق، وهم الآن ينتظرون ما تقولوه القاهرة ودمشق.

قال طالب يعرف الانكليزية:

- عبدالناصر طلب سحب القوات الدولية من شرم الشيخ وأغلق المضيق.

وقال آخر كان لنوء في السفارة:

- عقدت هيئة الأركان المصرية السورية اجتماعاً مشتركاً، ووضعت القوات في البلدين في حالة الاستنفار القصوى. وقال جورج:

- اجتمع رؤس الروابط الطلاب العرب ليلة أمس، وقرّروا عقد اجتماع دُعي إليه جميع الطلاب العرب الذي يدرسون في بودابست.. وقد تحدّد موعده في المركز الثقافي المصري الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم.

قرّر كرم أن يشارك في الاجتماع برغم أنه ليس طالباً. سأل جورج عما إذا كان ذلك ممكناً فأجابته أن حضور الاجتماع مباح

للجميع . دارت ، بعد ذلك ، مناقشة حول التطورات ، وحول ما إذا كان العرب على استعداد للمعركة ، فكان رأى الأكثرية أن مجرد طلب سحب القوات الدولية من شرم الشيخ يعني أن مصر وسورية مستعدتان للمعركة جيداً . وأعلنت القاهرة ، بعد قليل ، أن القوات الأردنية وضعت في حالة الاستنفار أيضاً ، وأن مشاورات عسكرية ، بموجب ميثاق الدفاع العربي المشترك ، تدور في العواصم العربية . وقال كرم : على كل عربي في الجمر ، أن يذهب إلى سفارته ويضع نفسه تحت تصرفها ، ما دامت السفارات العربية في بودابست هي المراجع المختصة للبت في أمر سفرهم واشتراكهم في المعارك عند نشوبها . لكن جورج أبلغه أن هذا قد حدث ، وأن السفارات العربية أبلغت وأعطيت أرقام الموانئ ، ونحن الآن تحت الطلب .

لم يصعد كرم ، طوال ذلك اليوم ، إلى بيته ، تغدى عند جورج . وبعد الظهر رافقه إلى الاجتماع ، وهنا وجد حشداً من الطلاب ، وبينهم المحققون الثقافيون ، وكان طالب مصري يدرس الرسم قد وضع خريطة للوطن العربي ، أشير فيها إلى فلسطين المحتلة - إسرائيل - باللون الاسود ورسمت أسهم بالأحمر ، على نحو ما في الخرائط العسكرية ، تنبّه رؤوسها من سباء والجولان والضفة الغربية إلى إسرائيل ، ثم تكلم شخص لا يعرف كرم من هو فقال : «ان سحب القوات الدولية من شرم الشيخ يعني إزالة الحاجز الفاصل بين القوات المصرية والإسرائيلية من الجنوب . هذا معناه أن المبادرة بأيدي العرب » وأشار إلى الأسهم كمنطلق للجيش العربية التي تحيط بإسرائيل إحاطة السوار بالمعصم ، وقال : «إن العرب يعدون ١٥٠ مليوناً ، وأن القضاء على إسرائيل مؤكد هذه المرة » بعده تكلم آخرون بالمعنى نفسه ، والثقة نفسها ، ولاحظ كرم

أن فرحاً عاماً بقرب الخلاص قد شاع في الوجوه ، وبعد الاجتماع عاد إلى بيته يحاول عبثاً التقاط أيها إذاعة عربية في الراديو الضخم والقديم الموجود في غرفته .

في الصباح اجتمع عدد كبير من الطلاب العرب السوريين في بيت جورج . وفي الضحى خرجوا إلى الحديقة ومعهم الترانزستور . كانت الحرب قد بدأت ، وكانت صوت العرب تذيع البلاغات ، وهي شجعة ، لكن الإذاعات الأجنبية كانت تبث أخباراً مغايرة ، ومع تقدم النهار جليل الموقف ، لكن جورج ، وكرم وضياء التركي ، وحسن الإبراني ، وكل الذين تجمعوا في حديقة البناء الواسعة كانوا يكذبون أبناء الإذاعات الأجنبية ، وخاصة إذاعي لندن وصوت أميركا ، ويعتبرونها حرباً نفسية لصالح إسرائيل ، ولكسر المعنويات العربية .

بقيت الحال كذلك إلى مساء . نساء العائلات العربية في بنتزور أوتسا أعددن طعاماً للمجتمعين الذين تكاثروا عددهم ، وكانوا يخرجون ويدخلون ، وفي كل ساعة خبر جديد . لكن البلاغات العربية كانت تبث على الأطمنان . وهكذا انقضى اليوم الأول والثاني . وفي اليوم الثالث ، قبل الظهر ، عقد اجتماع كبير اشترك فيه الطلاب العرب الموجودون في بودابست ، والذين قدموا من جامعاتهم في المدن الأخرى ، وجرى اتصالات مع السلطات المجرية ، فوافقت على خروج مظاهرة سلمية تأييدية للعرب ، شارك فيها عدد كبير من الطلاب المجرين والأجانب ، وخاصة من القارات الثلاث ، وسارت حاملة اللافتات الكبيرة ، والأعلام العربية والمجرية ، وعلى رأسها منلو الطلبة وكرم ، وضياء ، وحسن ، وفهمي ، ورفض ادامو الإيطالي أن يدع مظلته وابنته ، وكذلك تهرب كبريانو ، وكان لنلسون

الإنكليزي موقف معارض، لأنه لم يتأكد بعد من أن هذه الحرب عادلة، ولم يعرف من كان البادئ بها.

أمام السفارة الأميركية خطب ممثل الطلاب المصريين، ولم يستطع جورج الكلام بسبب نوبة ربو مفاجئة، فاقترح الطلاب السوريون أن يخاطب كرم ففعل، ثم نلاه آخرون، ولم يتح لضيء وحسن أن يتكلم باسم بلديهما، وكانت الكلمات كلها تتدد بإسرائيل واميركا، وتؤيد الموقف العربي ضد الصهيونية، وتعلن الدعم الكامل والاستعداد للمشاركة في القتال، وخاطب رئيس اتحاد الطلبة المصريين معلناً موقف بلاده المؤيد لنضال العرب وعدالة القضية العربية، وفي وسط هذا الحشد الهائل من المتظاهرين، أحس كرم بيد تقبض على ذراعه وصوت نسوي يقول بالفرنسية:

- برفاق كرم، كنت رائماً يا عزيزي!

- وصاح كرم دهشاً وهو يلتفت الى مصدر الصوت:

- بيروشكا! ماذا جاء بك الى هنا؟

- الذي جاء بكل هؤلاء الطلاب.. حرّضت كل الطالبات واشتركن في المظاهرة.. وأمس رست بعض اللصقات وعلقتها على جدران الكلية.. إنني معكم يا كرم..

وقال كرم:

- شكراً يا بيروشكا! يا عزيزتي بيروشكا.. هذا جيل منك.. يسرني ان تكوني معنا..

قال بيروشكا وهي تشير الى جدار مقابل السفارة:

- انظر أليوش.. انه مع التلفزيون المصري ينقل وقائع المظاهرة..

كان اليوش قملاً هناك.. كان طويلاً، بارزاً، يتكلم في سعاة المسجل، وكان نصر جيل على الرصيف، وكانت الحماسة، من خلال المتفانيات، تشعل جوانب الباحة، وطالب على الأكتاف يتلو «ردية» والريح تحفق باللافتات والأعلام، وبعد ذلك توجهت المظاهرة الى السفارة المصرية، وهناك انفضت.

ومن جديد، في المساء، احتشد الطلاب في بيت جورج، جاء بعض الطالبات والطلاب المصريين ايضاً، استمعوا الى نشرة أخبار التلفزيون، رأوا الى مشاهد من المظاهرة، لكن الأخبار، من الإذاعات الأخرى، ازدادت سوءاً، وقبل إن إسرائيل تتقدم في سيناء، وان الجنود المصريين يتراجعون أمام قواتها المدرعة، ونظر الطلاب العرب بعضهم الى بعض، وخرج كرم الى الحديقة، لا يريد أن يسمع ولا أن يصدق، وجاءت اليه بيروشكا، ولم تتكلم أمام الحزن البادي على وجهه.

بعد ذلك رحمت الاحداث. كانت تراكض، تنداخل، تتطور، شبيهة بالتنفقات أفاع سوداء على بعضها في قفص زجاجي. ولج النهار في الليل، والليل في النهار، ولم يذق كرم طعم النوم، مشى غراب على روحه، داس وحيد القرن على صدره، أطلت من الجدران رؤوس شياطين كما في الوجوه المرعبة لأوبرا بكين. كل شيء بدا غريباً، خرافياً، مقبهاً، يكشر عن أنياب جنكيزية. يفقه كما العفريت الذي أفلت من قنقم، ومثات الكلمات، مثات الأسئلة، مثات الأجوبة، راحت تردّد في بيت جورج الذي أصبح بيتاً للجميع، لكل الذين جمعت بينهم النكبة، وحلت عليهم، وبهظنتهم، من رجال ونساء وطلاب وأولاد.

وفي ختام اليوم السادس بلغت المأساة ذروتها. القوات الإسرائيلية صارت على القناة. طلب وقف إطلاق النار. ثم إيقاف النار.. استقال عبدالناصر، وبكت النساء، بكى بعض الرجال، وخرج كرم من البيت لبيكي دون ان يراه أحد. تسأل الى الحديقة، ومنها انطلق الى الشوارع، وسار على غير هدى. تعرّت الجدران. الورق الملون الذي كان يستر بشاعتها مزقته يد وحش مرعب. الكذبة الكبيرة تكشفت عن سلسلة لا تنتهي من الاكاذيب. الخريطة، والأسهم، والجيش، والمئة والخمسون مليوناً من العرب.. كل شيء انهار. كان كرتونياً وانهار البناء كان متيداً على رمال. أين الصخر؟ أين الإنسان الذي هو الصخر والبناء والقوة والسلطة والمبتدأ والمنتهى؟ إنه، مثل كرم، ضائع، نائه، ملاحق، منهم. مدان، والبالون الكبير، الضخم، المزوق، العبود، المرسل في ساء فارغة، لعملفة لم تكن الا كتلة رصاصية تضغط على الصدور. وخزته إبرة، سلة، شقته مديّة، فانفجر، وتطايّر شظايا، وظهر أن ما في داخله كان رجماً، مجرد ربح، وسلاسل لا عد لها من قيود وقيود وقيود..

لا يدري كرم كم من الوقت مضى، لم يعد يشعر بوقت ولا مكان. سواد. كل شيء غدا غيمة سوداء تتثال كدخان وغلاً قمه وصدره وعينيه، وتغمر كيانه كله. وفي نوبة من النعمة الشاملة على كل شيء، وعلى نفسه أيضاً، عاد الى بيته. دخل وفي عينيه احمرار، ودمع، وحرقة، وكانت سترته مفتوحة، ورباط عنقه محلول، وشعره قد شعته الريح. كان الشقاء الداخلي، لنفس تألت لأنها اضطهدت، وتأملت لأن مضطهدتها تألم بدورها، لوطن نفاه، ولوطن صار منفياً في هزيمته، قد فجر في صدره ثورة على الخطأ، ولأنه لا يستطيع تجاه

هذا الخطأ شيئاً، ولأن الخطأ قد انسحب على الجميع، وتطلب منه من الجميع، ومنه قبل الآخرين، فقد اندفع، حتى دون ان يفلق الباب وراءه. راح يمزق اللوحات، يحطم الخزف يبعثر الأشياء في التحف، وجمع قبضته، حين واجه صورته في المرآة، وضربها بعنف، بعنف بالغ، قاتل، فتحطمت، وتناثرت، محدثة دويّاً شديداً، وسال الدم من يده، وسمع وقع أقدام، بعد لحظات، وأحاطت به أذرع، وكان جورج، في مقدمة الذن ضمّوه الى صدورهم وبكوا.. ولم تهدأ انتفاضة الدمع، والغضب، والحزن، إلا حين أعلنت القاهرة ان عبدالناصر رجع عن استقالته، وان الشعب المصري، الذي بهظته الكتلة الرصاصية، الشعب الطيب، الرائع، بعمّاله، وفلاحيه، ومثقفيه، وكسبه، ونسائه ورجاله وشيوخه، قد خرج يطوف الشوارع صارخاً في وجه المزيمة: لا!

سواء كانت هزيمة حرب أم هزيمة معركة ، فإن مرارتها فاقت كل ما عرفه العرب في الغربة سابقاً . في البدء سَمَّوها نكسة . لكن جرح هذه النكسة كان عميقاً ، وكان وقعها ، في النفوس ، أشبه بوقع الصاعقة . الذهول ، من بعدها ، تطاول . اشتاق الجميع على واقع مرعب . ما حسبه شعباً كان ورماً . ما ظنَّوه قوة كان ضعفاً . ما اعتقدوه صدقاً كان كذباً . كانوا كالسائرين في النوم ، وحين ، على شفا الجرف ، فتحوا أعينهم ، وجدوا الهاوية حقيقة لقد خدعوا جميعاً . من الذي خدعهم ؟ من الذي صنع الهزيمة ؟ على من الذنب ، بعد كل شيء ؟ وقال كرم ، في ذات نفسه : « علينا جميعاً » . على الذين صادروا حرية الإنسان العربي ، وعلى الإنسان العربي الذي سمح لحكامه بمصادرة حريته . على « البلغة » الكبرى ، والانتفاخ الضفدعي ، والخطب والبيانات والإذاعات ، وعلى وهم الرقم القاتل للفتنة والخمسين مليوناً ، والذين ، في عزِّ المعركة ضد الاستعمار والرجعية ، حولوا الهزيمة إلى صدور حواريتهم ، رجالهم ، طليعتهم . » وحين خطب عبدالناصر ، مملئاً « انتهاء دولة الخابرات » ارتسمت على الشفاء بسمه شاحبة : « بعد ماذا ؟ » .

الشبابة التي صارت في الغرب ، حين أجهزة الإعلام ، التلفزيون

في المقدمة ، راحت تنشر صور الجنود المارين في سيناء ، لم يصر مثلها في البحر . كان في عيون المجرين عتب فقط . كانت أسئلة : كيف ؟ ولماذا ؟ وأين ؟ . ولفترة اضطر كرم الى ملازمة بيته . وقال جورج إنه يفعل مثله ، وقال الطلاب إنهم ، لأول مرة يجلسون من النظر في عيون صديقاتهم . هتفت ايرجكا عدة مرات . أجاب كرم على بعضها ، معتذراً ، بكثير من اللطف ، عن أي لقاء . جاءت بيروتكا . لكنها جاءت لتشارك كرم صمته لا أكثر . وقال حسن ، جذباً هذه المرة : « ماذا حدث لأمة العرب يا أخي ؟ » وضياء التركي ، من باب التعزية ، تحدَّث عن حرب الاستقلال ، عن الأمان الوطنية الضائعة ، عن الشعوب التي لا تدمرها الهزائم ، وقال ألبوش : « شيء لا يُصدَّق يا كرم ! تصوّر ، الكارثة اكبر مما توقَّعنا : سيناء ، الضفة الغربية ، قطاع غزة ، الجولان .. ما هذا ؟ كيف حدث ؟ الصحف والإذاعات الغربية تبث أخباراً مرعبة » ومن الشباك ، نظر كرم الى الحديقة : كان ادامو في مكانه ، ونلسون يتفياً ، ويقرأ كتبه الماركسية ، وواصل كيريانو لعب التنس ، وظل التحف خرباً ، محطاً ، ميعترأ ، وفي رسالة مختصرة ، كتب كرم استقالته وقدمها الى الجامعة ، وأعلن ، بصوت لا لون له ، صوت حزين ، متهور : « أنا غائد الى الوطن » . وقال هادي : « الصحف الهربية تنشر أنباء شات الألو ف من النازحين ، تتحدَّث عن سقوط الجولان والقبطرية ، وتهيب بالشعب إلى التبرُّع ، إلى تقديم المساعدات الممكنة ، للأصدقاء الذين ينلفنون إلينا في ساعة الهنة ، وأن جارتة المعجوز ، دقت عليه الباب ، حاملة حقيبة ملأى بالملابس والأدوية ، وقالت : « اعذربي ، لا أعرف لمن أوجَّه هذه الحقيبة » . وقال جورج إنهم استدعوه ، بصفته رئيس الرابطة ، لبحث موضوع

المساعدات... وأن المجر أرسلت كذا طناً من الأدوية، والأغذية، والبطانيات، وأن اتحاد الشباب، واتحاد الطلاب، والاتحاد النسائي، والمنظمات، شرعت بجمع المساعدات والتبرعات، وأنه اختير عضواً في لجنة استلامها لتنظيم إرسالها إلى سورية.

اتفقوا بعد ذلك على أنه ينبغي عليهم القيام بواجبهم. دعا جورج إلى اجتماع عقد في بيته، حضره الطلاب والموجودون في المجر من السوريين، وشارك فيه كرم، مقتعداً كرسيّاً في أقصى القاعة، مثلاً جورج لأن بعضهم لم يلبّ الدعوة، مع أنه كان يقدر ألا أحد سيتخلف، ولا أحد يطاوعه وجدانه أن يتخلف. وبعد أن شرح جورج الموقف، والنكسة الخطيرة، ومئات ألوف النازحين من الجولان، ومبادرة الجرحى لتقديم المساعدة، قال إن الحياة لا بأس فيها، ولا يجب أن يكون، الحسائر يمكن تعويضها، الأراضي التي احتُلت تحتاج إلى نضال لتحريرها، لكن ما هو أهم، ألا نكون أقل من الجرحى مبادرة إلى المساعدة، ينبغي جمع مبلغ من المال، نرسل به أدوية إلى الوطن، أو موادّ غذائية للنازحين، هذا ينقلنا من السلب إلى الإيجاب، من الدموع التي ذرفناها، إلى الفعل الذي يرفع من قدرنا في عيون الجرحى، وينبش لنا أن نشارك واقعياً في تخفيف آثار النكسة، والاستعداد للمستقبل.

كان يتكلم بوهن، وبين الجمل ينفع من مضخته المطاطية الهواء في فمه لتسكين الربو، وتناول ورقة وقلماً، لتدوين الملاحظات والاقتراحات، تكلم بعض الطلاب. تكلم جورج ثانية معقّباً، كان من رأيه أن الطلاب العرب اعتادوا أن يعملوا قليلاً ليربحوا بعض النقود. ففي الشتاء يشاركون في رفع الثلج المتراكم من الطرقات، وفي الصيف في قطاف الفاكهة وجمع الخضروات، ولكن هذا عمل

خفيف. الآن، في حزيران، ليس من ثلج، وقطف الثمار تسليّة، ولأجل الوطن، وإشعار الجرحى بمحبتهم في تقديم مساعدة جيدة للنازحين من مواطنيهم في الجولان والقنيطرة، عليهم أن يعملوا في البناء. هنا يحتاج الجرحى إلى أيدي عاملة، والأجر مرتفع، والحصيلة ستكون محرزة، تبيّض الوجه، وقد بحث مع الجرحى في ذلك، فكان جوابهم أنهم يقدرّون عاطفة الطلاب العرب نحو وطنهم، وهم بحاجة إلى أيدي عاملة، وهناك أعمال ترميم في القصر الأمبراطوري، الذي سيحوّل إلى متحف، ويمكن لمن يريد أن يعمل فيه.

استحسن الحاضرون هذا الرأي. أبدوا حماسة ايضاً. شرع جورج بتدوين الأسماء، فلما فرغوا تكلم كرم لأول مرة:

- سجلّوا اسمي معكم..

التفت الجميع إليه. الأستاذ يطلب العمل في البناء، وفي مثل عمره. يداه اللتان تعودتا على القلم فقط، تستطيمان تحمّل عمل صعب في البناء. قالوا:

- نقدر عاطفتك يا أستاذ.. لكن في مثل سنك، وأنت كاتبنا، فإتينا نناشدك أن تحب اقتراحك.. مشاركتك تكون في الكتابة لا في البناء.

قال كرم:

- لا كتابة قبل العودة إلى الوطن.. أنا عائد إلى الوطن بعد شهر على الأكثر.. لقد استقلت من الجامعة، وأوقفت برنامجي الأدبي في الإذاعة.

وقال طالب:

- ولكنك، كما تعرف.. (ولم يكمل)

قال كرم:

- فهمت .. ومع هذا سأعود . هناك ، كما قلت ، يمكن أن أكتب .
قد تكون كتابتي مساهمة في خدمة الوطن والمجتمع ، وقد لا تكون ،
لكنه الواجب على كل حال .. هنا لم أستطع أن أكتب .. سأحل
غرسني الذابلة ، العقيمة ، الى ثربة البلد ، هنا سيعاودها الاخضرار ،
فتورق ، وتثمر ، وفي سبيل ذلك يهون كل شيء .. أعرف المضاعف ،
أعرف أن الألم ينتظري ، إنني أعنت عن الألم ، سأعلم أن أناأم ،
وسيكون لألمي فائدته .. انتهى كل شيء الآن . اتخذت قرارى .
سأعود .. لكنني سأشارك في العمل معكم ، سجلوا اسمي ، هذه مسألة
مفروغ منها أيضاً .. جورج لا يمكن أن يعمل في الغبار . في حالته
الراهنة ، كمريض بالربو .. العمل في البناء يقضي عليه . المسألة
هكذا : جورج يقوم مهمة الاتصال بالذين لم يحضروا الاجتماع .
بضعهم في صورة هذا الاجتماع ، يدعوهم الى المشاركة في العمل ، ويأتي
للاطلاع ، للإشراف من بعيد ، أما أنا ، وإذا وافقتم ، فسأكون في
المقدمة ، اسمحوا ، بحكم العمر والتجربة ، أن أقودكم لأداء هذه
المهمة .

حين انتهى الاجتماع ، وبقي جورج وكرم وحسين ، قال جورج :
- ما كان يجب ، يا كرم ، أن تشارك في عمل صعب كهذا ، وأن
تكون على رأس العاملين . أنا أعرفك . هادى ، وبهيج واكثر الطلاب
يعرفونك ، بقدرتك ، وقد رجوك أن تكتب ، لكنك أصرت على
العمل معهم .. لماذا ؟

لأنك لن تكون موجوداً بينهم في الورشة بسبب مرضك ، ولأن
العمل شاق ، وإذا لم يكن هناك من يتولى ضبط الأمور ، من يكون
قدوة ، من يعمل مجتهداً ، فإن الآخرين لن يعملوا ، والذين يعملون في

اليوم الاول . سينغيون في اليوم الثاني ، أو الأيام التالية ، منذرعين
بالمرض ، بالسفر ، بالدراسة ، بأي عذر .. وجودي بينهم ، انا الذي
اكرههم كثيراً ، سيبد عزائهم ، سيحرضهم على العمل ، ويجعلهم
يخجلون من التهرب ..

- إذا كان ذلك كذلك فأنت على حق .. لكنني أرجوك . اكتفِ
بالإشراف ..

- في الورشة أقرر ما أراه مناسباً .. غداً صباحاً نجتمع عند
ساحة الأبطال . ومن هناك تنطلق كما اتفقنا ، وأغلب الطلاب ، كما
أعتقد ، يعرفون القصر الامبراطوري ، من يتأخر يلحقنا الى
هناك .. أعطني لائحة الاسماء .. من هو المسؤول هناك ؟ .. اكتب
اسمه في اللائحة .. سأقابله فور وصولنا الورشة . وأدعُعه يحدد لنا
قطاع العمل في القصر ..

بعد الظهر اتتني بعض التحف ، وأرسلها الى ابرجكا ، مع
بطاقة منه . جاءت بيروشكا التي أبلغها جورج أن كرم قرر العودة
الى الوطن . وأنه سيذهب غداً صباحاً للعمل في البناء مع الطلاب .
وأنه رفض إعادة المتحف الى وضعه السابق ، لأن إقامته في المجر
انتهت .. قال لها ، من باب المودة ، إن كرم يتألم ، إنه يعيش أزمة ،
وإنهم اصرروا عليه ألا يذهب الى عمل البناء الشاق فرفض ، وقال
لها : « اذهبي اليه ، كوني لطيفة معه . اجعليه يتسلى قليلاً . لا تجبري
أن تحولي بيته وبين ما قرر .. عودته الى الوطن أصبحت ضرورية .. أنا
أعرف أنه سبلاقي بعض المتاعب ، وأنه سيتألم ، لكنه قال إنه يبحث
عن الألم .. تصوّري ماذا يدور في رأس هذا الصديق ؟ » .

وجدته بيروشكا يشرب . بصفي إلى السفنوية التاسعة
ليستهوف . يجلس بين خرابة من محتويات متحفه . لا يسمح لأحد

بالدخول، ولا بتنظيف الثقة، ولا يذهب إلى أيما مطعم. يأكل نواشف، معلبات. لكنه يشرب.. يشرب صامتاً كثيراً. هي، بحسبها الأنثوي، ينجلها الزائد، بحسبها العميق، استشعرت الآن مأساة حبيبها. قبلها من خدّها عندما دخلت. رَحَبَ بها كأنها يريد، قبل فراقها القريب، أن يكون لطيفاً معها إلى آخر حد. أن يتسبها أنه قاطعها. أن يجسّد لها معزّته. وحين عرضت عليه أن ترتب أشياء البيت قليلاً، رفض. كانت الزجاجات الفارغة على الطاولة الصغيرة وحولها، لقد شرب كثيراً في الأيام الأخيرة، وكان لديه، في بيت المؤونة، كمية من زجاجات النبيذ، ومن الكونياك، وزجاجة ويسكي، وأخرى فودكا، وقال لها إنه سيربها كلها.. سيرب إلى أن يأتي يوم الرحيل، وأنها تستطيع منذ اليوم أن تأني إليه ساعة نساء، كصديقة، صديقة فقط، فالماضي لن يعاد. «لنني أعاقب نفسي».

فكرت بيروشكا أن تنف إلى ايرجكا. إن يكون وجودها مسلماً له فلتات. لن تعترض. لن تغار. لن تغضب ولن تهرب. لكنه نهاها عن ذلك، قال إنه لا يستقبل أي امرأة. زوّاره محدودون: ضياء، حسن، فهمي، حبيب، ومن الغد سيكون مشغولاً، وسيأتي من العمل تعباً، لذلك يعتذر عن استقبال أحد في الليل. أضاف:

- بيروشكا خذي أي قطعة من هذا المتحف كتذكّار..

- لماذا؟ أنت لن تعود إذن؟ أهو الغراق نهائياً؟

- أحسب هذا..

- ألن تكتب إليّ؟

- لا أدري..

- ألا تفكر بدعوتي إليك؟

- لا أدري..
- ماذا لو ذهبنا معا يا حبيبي؟
- لا يمكن.. أنا غير ذاهب إلى البيت كما تتصورين..
- أين ستذهب إذن؟
- لا أدري بالضبط.. غير أنني، لا أستطيع أن أخذك معي.
- إتمام دراستك أهم.. ثم ماذا؟ تتزوج؟ أنت تعرفين رأيي..
- بولن نسمح لي بالذهاب معك غداً إلى العمل؟
- غداً ستكونين في الكلية.. لا نساء بيننا.. ماذا تستطيعين أنت هناك؟ تعملين في رفع الأنقاض؟
- أفعل كل ما يجعلك تأخذ صورة طيبة عني..
- أنا أخذ صورة طيبة عنك..
- كرم! أنت غير ملهوم، وستظل غير مفهوم.. هل هذا لتعذّبي أكثر؟ لتحملني أحبك أكثر؟
- أنا غير مبهم على كل حال.. ماذا عندي من الغموض؟
- من تحب؟
- لا أحد..
- لا أصدق.. قلت مرة إن لغة نداء مجهولاً بالنسبة إليك..
- كنت أمزح.. أحس ذلك أحياناً.. اسمعي يا بيروشكا حلمت منذ مدة بحنية القمر.. رأيتها كما في البقطة..
- تريد إقناعي بأنك محنون؟ فمة امرأة تنتظرك.. قل من هي؟
- ليس من امرأة بعد.. ايرجكا فهمت مشكلتي أفضل منك..
- لئن عاجز عن الحب، عن حب امرأة حتى المحنون، هذه هي المشكلة.
- تعتقد أنها ستتحلّ في بلدك؟.. تعثر على المرأة التي

تناديك؟.. أنا لا أصدق حكاية جنّة القمر هذه..

- وأنا لا أصدقها.. عقلي يرفض خرافة كهذه.. لكن قلبي.. عاطفتي، وجودي، كل ما فيّ ضد عقلي.. أخشى أن تكون هناك جنّة قمر حقيقية وأن أجنّ فعلاً..

في المساء طلبت منه أن يخرج بها إلى أيّ مكان.. «لتكن جلسة وداع» قالت.. «وبعدها لن تراهي، لن أفرض نفسي عليك.. وقال لها: «قرّرت ألا أعاد البيت.. ولكن إذا كنت مُصرّة على جلسة وداع فسنقوم بذلك الليلة.. هيا بنا»

في نحو الساعة التاسعة كانا في بار «سيف» (القلب) .. كان مكاناً ليلياً صغيراً، وفيه موسيقى بسيطة: عازف بيانو وعازف كمان، وكانت، تلك الأيام، تروج أغنية: «بعد مساؤك عزيزي بروسكا» فطلب عزفها، وراحا، معاً، يصغيان إليها، والصلت سوار حول القلبين، ودخان سيكارته يتعالى رمادياً، حلزونياً، مزوجاً بذلك الهمّ الوطني الذي أناخ عليه، كأننا بتقاضاء، هو دون سواء، نحن ذلك العبث، والتفريط، والعنجهية، وذلك القمع، والمصادرة، وتفرّج الإنسان، وفيه من ذاكرة الحكام، وعدم وجود الشعب في أيّ قرار يتخذونه.

وإذ رأت بروسكا إلى حزنه أخذت تسكي، فسالها: «ما بك؟ أأنت سعيدة معي؟» قالت: «أحاول أن أكون سعيدة، لكنك حزين، صامت وأعرف أني سأفارقك، وهذا ما يبكيني» قال كرم، «لا بأس يا بروسكا، أنا لست إلا عابراً في حياتك، لست إلا صديقاً سيحتفظ بذكراك طويلاً، لكنك، أنت، وفي هذا المجتمع الجديد، سيكون لك كل ما نطمح إليه: الدراسة، والعمل، والزوج، والمستقبل.. فمة رجال كثيرون، وستجدن مع أحدهم

السعادة التي لم أستطع أن أمنحك إياها» وأجابته ودموعها تتواصل: «أجل هناك رجال كثيرون، لكن أين يمكن العثور على صديق مثلك؟»

أوقفته في الشارع، مثلها يوم المنهي والمطر، كانت السماء صافية الآن، نسيم عذب رقيق، أضواء، الحركة هادئة، الشارع طويل، على امتداده، يترأى، وليس من سائلة، عادت إلى البكاء.. قبلته وعادت إلى البكاء، قالت: «ألن نلتقي بعد؟» قال: «ربما.. سأهتف إليك يوم السفر، لكنني، قبل ذلك، أفصل أن أبقي وحيداً، أنا وقراري. وسأكون مشغولاً بهاراً، وفي الليل، حين أجد فضلة من قوة، سأوضّب أغراضني. أوصيت على صناديق خشبية. سأبعت بأشياي محرّاً، إلى ميناء اللاذقية، وأركب الطائرة، إلى دمشق.

كان الليل قد انتصف، وكان المينى ساكناً، لكنه ما كاد يدخل بيته حتى قرع الجرس. من؟ كان ضياء وحسن وفهمي بانتظاره، أبلغهم جورج بما جرى في الاجتماع، فقرروا المشاركة في العمل، قال ضياء: «ليست المسألة بحجم ما نستطيع أن نوذّبه، ولكنها مسألة تضامن، الروح الأُممية يا كرم» كان يقف وسط الغرفة، طويلاً، هزياً، يكبح، وشارباً يتهدّلان على قمه، وسكارة تحترق بين أنامله، «نحن، أضاف، معكم.. سأعمل ولو ليوم واحد. هذا الربو اللعين لن يعيقني. أنت ستكون مشرفاً، جيّد. أعطني عملاً خفيفاً.. بعيداً عن الغبار» قال حسن وفهمي: «نحن في صحة جيدة. أعطنا عملاً صعباً. هذا لا شيء، مستعدّون للتبرّع أيضاً، لا بأس ستخرجون من المحنة» وعندئذ أنشد ضياء قصيدة لناظم، بلغة تركية جميلة وفيها هذا البيت: «من الأيام السود إلى الأيام البيض»

توجهوا صباحاً إلى ساحة الأبطال، كانت كوكبة من القاتيل تحيط نصف إحاطة بالساحة. كانوا يكامل قاماتهم، ويواجههم البرونزية، وفي المقدمة البطل الكبير، أرباد. ومن هناك، في المترو أولاً، ثم الباص، توجه الطلاب إلى القصر الامبراطوري. كانوا حوالي ثلاثين طالباً، وكان المهندس المسؤول بانتظارهم، وقال يشرح عملهم: «في الطابق الرابع أنقاض أعمدة، أحجار، أتربة، أسياخ حديدية... مهمتكم أن تزيلوها. الأتربة تجمع في السلال الكبيرة، وتوضع في المصعد، وتفرغ في الباحة، حيث تنقلها الشاحنات، أما الأعمدة والأخشاب والقضبان الحديدية فتحمل على الأكتاف، وتنزلون بها على الدرج، وتلقونها في الباحة أيضاً».

تولى ضياء عملية المصعد، كل دوره أن يعطي الإشارة من الأسفل، وهناك من ينقل سلال الأتربة والأنقاض. كرم وحسن وفهمي صعدوا إلى الطابق الرابع، مع الطلاب، وشرعوا بحمل الأعمدة الخشبية. كان الغبار كثيفاً. تجمع الأنقاض والأتربة أثار موجات كثيفة منها، عمل الجميع مجتهداً. مهمة. لكن الغبار خنقهم، كان كرم يلبس ثياباً عتيقة، وعلى رأسه قبعة تشبه اللبادة، لم يلبث، منذ الساعات الأولى، أن نزعها ووضعها على كتفه، مع ذلك تسلخ الكتف. أحسن بنار كاوية تخرج منه. صرّ على أسنانه كيلا يشكو. صار يحمل على الكتف الآخر، لكن هذا تسلخ أيضاً. ولم يلبث الصعود والمهبط أن أنهكا قواه. تجلّد ما استطاع، وعندما، في الساعة الثانية عشرة، دوت مطرقة الغداء، كان التعب قد هذه، قصدوا مطعم العمال. طاوولات مستطيلة من الخشب. مقاعد خشبية أيضاً. لكل عامل رغيف من نوع «الصّون» وطبق من اللحم والحضار. كانوا جوعاً. أحسوا أنهم أشد جوعاً من أي يوم في

حياتهم. و بانتظار طبق الطعام التهموا بعضاً من أرغفتهم. كانت شهيتهم متفتحة. وكان الطعام لذيذاً، أو هكذا وجدوه، وأكلوا بنشاط، أتوا على أرغفتهم وأطباقهم، وبعد ذلك أشعلوا سيكاراتهم، قالتهم رؤوسها وهم يعبون منها بنهم شديد..

ضياء، مع الأسف، لم يستطع إكمال يوم عمله، الغبار لطّخ وجهه وملأ قمه وأنفه، وعندئذ هاج سعاله، فبقي جالساً في المطعم، مراكباً عند قدم الجدار، يداري تعب الذي هدم جسده النخور. وحين دوت مطرقة العمل، لاحظ كرم أن بعض الطلاب قد تسلّوا وهربوا. اشتاط غضباً. قال للآخرين: «نصف يوم وهربون، لأي وجدان هذا؟ آفة جدية، وأي شعور بالمسؤولية؟ لكن فوجئ، في اليوم التالي، بغياب عدد آخر، صحيح أن طلاباً جدداً انضموا إلى العمل، لكن العدد أخذ يتناقص، وراح بعض الطلاب يجتنبون في زوايا الطوابق، ولم يجد يبدأ من الحلول على ضياء، على المصعد، كي يرى من يحاول الهرب. لقد كان إصراره على العمل في موضعه، لولاه لازداد الهرب، لكن وجوده، تجلّده، تغانيه، أخجل الآخرين، وهكذا بقي القسم الأكبر منهم، وكانوا، عند عودتهم في المساء، يخرجون أجسادهم التعب، وكان كرم يستحم، ويشرب، ويندل جهداً إضافياً في توضيب ما تبقى من متحفه في الصناديق.

الزيارة الأحلى، التي كان يترقبها، وينلقاها بفرح طفلي، كانت زيارة ضياء في بعض الليالي. يشربان معاً، يتحدثان، يحكي ضياء عن تضال شعب التركي، عن الفقر والجوع والقمع، عن البؤس في استانبول، عن البؤس الأشد في برّ الأناضول، وعند الانتهاء، ينشد بعض قصائد ناظم حكمت. كان كرم يطرب. كان يحزن، وكاد، لولا الحياء، ييكى، لكن الفصائد كانت تبعث فيه عزيمه

جديدة، وروحاً حنوناً، على مواصلة العمل، وعلى التصميم القاطع،
التصميم الذي لا رجعة عنه في العودة إلى الوطن. كانت المجر عزيزة
عليه، صار يحبها حقاً، لكن الوطن كان عزيزاً أيضاً، وكان حبيباً،
وكانت تسبغت من قصائد ناظم روح إنسانية فضالية خارقة،
وخاصة قصائده من السجن، وقصائده من المنفى، وكان يستند
ضياء، بكثير من الإلحاح، قصيدة ناظم عن أرض المجر.. «سلاماً يا
أرض المجر، يا أنت، كرهيف، ملأى بالأسرار، ومثلته مباركة
أيضاً. سلاماً للنهارات، والليالي، والدوالي، والعشاق، والأغاني في
ربوعك.. لا يشيع المرء من إنسانك، وحيالك، وتمعتك، وحريتك،
وشاعريتك وخمرك». وحين يبلغ ضياء، من قصيدته، ترنيمة
الوداع، كان صوته يندو رخياً، فيه حزن وشجوا: «وداعاً، يا من
أكرمتني أكثر مما أستحق.. وداعاً! وربما عدت، وربما غاب العمر،
من يعلم، لكنني أعلم، أن يوماً سيأتي، إلي أعلم، تسافرين فيه إلينا،
وتسافر إليك، ويعبر بعضنا إلى بعض، كما نعبّر حديقة إلى أخرى».
وحين تنتهي القصيدة بنغم الصمت، يظل كرم إلى النافذة، يقوم
ضياء، بغير كلام، فيفلق الباب وينصرف. كان هو، لا ناظم، يودّع
صديقه، يودّع المجر فيه، والأيام الجميلة، وتلك السهرات الرائعة.

وفي إحدى الأمسيات، حين دخل كرم باب الساية، بشباب
العمل، والغبار والسخام على وجهه وعنقه ويديه، استوقفته
السواية، قالت له: «تعال، ثمة من ينتظرك عندي». استمهلها أن
يفتسل ويعود، لكنها أصرّت على أن يرى من ينتظره من فور..
وعندما أطلّ من الباب، اضطرب للمفاجأة، كانت هذه ايرجكا!
ارتبك، مسح يديه على جني بنطاله قبل أن يضافحها، لكن
ايرجكا صاحت:

- لا تحجل.. لا تمسح يديك.. أنت الآن كرم الحقيقي، كرم
الذي ترك القلم، ترك المتحف، وذهب ليمسك في البناء، لأجل شيء
عزيز، عزيز كأكثر ما في الوجود.

اعتذر عن دعوتها إلى بيته، «كل شيء فوضى» قال لها. وعدها
أن يزورها، لكنه لم يف بالوعد. كان يتفادى المواقف
الدراماتيكية، ولا يسمح لأيا عاطفة أن تشبه عما اعتزم. كذلك لم
يتف إلى يروشكا. لم يخبرها بموعد سفره. أثر أن يكون الوداع بغير
دموع، وفي نهاية الأيام العشرة، المحددة للعمل، تفرغ لتوضيب ما
تبقى من أشياءه، وشحنها، بمساعدة البوش، بجرأ، وقطع تذكرة
سفر بالطائرة، ولم يأخذ معه سوى حقيبة واحدة، ولم يقبل، بعناد،
أن تقام له حفلة وداع. قال:

- شكراً لكل شيء. لكل المواطنين. شكراً يا جورج، ويا
جيل، وضياء، وحسن، وفهمي، شكراً لكم جميعاً..
أضاف مازحاً:

- انتهت دراستي، صحيح أنني لا أعود بشهادة علمية، لكنني
أعود بتجربة.. هناك، ربما، سأجد بعض المتاعب، بعض المضاعف،
لكن الغربة أقسى من كل شيء.. إنني كنت سعيداً هنا. كنت
سعيداً معكم، ولكنني، وبرغم كل الظروف، سأكون سعيداً في
الوطن أكثر.. هناك أرضي، وبيتي. هناك أهلي، وهناك سأكتب..

في المطار تقبل باقة زهور من مودعته. عانق الجميع، وضع رأسه
على صدر ضياء. كان العجوز يسكي وبكى هو أيضاً. وحين صعد
الطائرة، هتف في نفسه: «وداعاً يا أرض المجر»، واستسلم، طوال
الرحلة، لذكرياته وأفكاره الخاصة. وفي السابع عشر من أيلول، عام

١٩٦٧ كان في مطار دمشق. ومن هناك هتف لشقيقته، وحين جاء دوره أمام شباك الجوازات، نظر مسؤول الأمن في الصورة، ونظر إليه، وقال له « لحظة!... » ذهب إلى « الفيش » وحين عاد طلب منه أن يقف جانباً، وجاء من أدخله إلى إحدى الغرف وأغلق الباب، وعندئذ أدرك أنه موقوف.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أركب سيارة جيب. وضعوا القيد في يديه وأركبوه سيارة جيب، ولم يقل له أحد شيئاً، ولم يسأل هو، عن شيء... وقبلا السيارة تضيء، نظر من فتحتها الخلفية إلى السماء...

كان القمر مشملاً. كان يغمر الكون بضياء أبيض. حدق فيه. ظل يحدق فيه، خيل إليه أن في القمر نقطة يعرفها. اتسعت النقطة. ارتسمت... ظهر ما يشبه الوجه، ظهرت على الوجه ابتسامة... وابتسم بدوره قائلاً: « جنية القمر سافرت معي... » وأغمض عينيه على سعادة لم يعرفها من قبل.

(انتهت الرواية يوم ١ تموز ١٩٨٣)